

ميسره الدندراوي

جنة الاصطبل

رواية

مقتل
السيد
الكبير

الرواق للنشر والتوزيع



جنة الأصيل

ميسره الدندراوي

الطبعة الأولى: 2025

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر



للسر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2

مدينة نصر - القاهرة - مصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

www.alrewaqpublishing.com

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم الغلاف: إسلام أحمد

الترقيم الدولي: 3-271-824-977-978

رقم الإيداع: 2024 / 33454

إلى عينيك.. جنتي ومثواي.

إهداء

إلى الباحثين عن الجنة في قلب الجحيم..

أرجوكم واصلوا البحث.

إن الصمت والسكينة المحيطان بالقبور..
لا يعني أن كل مَنْ فيها في الجنة.

نقلت أحداث هذه الرواية -بتصرف- من صفحات عثرت عليها في صندوق ورقي.. يُقال إن مالكة كان ضابطًا في مباحث القاهرة يومًا ما.. ويدعى كمال.. لكنه الآن في مكان آخر.. لا يعلمه إلا الله.

المؤلف

تمهيد
جريمة قتل
صيف عام 2018

(1)

مساء يوم الجريمة

الصداع

الصداع الذي يزعجني كلما حركت رأسي يمنةً أو يسرةً محيياً هذا أو ذاك.

عيناَي اللتان أغمضتهما فقط منذ ساعة تتأفان وتعلنان العصيان عليّ، وترسلان إشارات الانزعاج من هذه الأضواء المتقطعة الزرقاء والحمراء إلى مخي.

- كمال باشا.. كمال باشا، من هنا معاليك.

صوت يأتي كأنه قادم من بئر عميقة، محملاً بلهجة نوبية صعيدية لا تخطئها أذناي.

التفت إلى مصدر الصوت الذي ينادي على اسمي بلا انقطاع وسط الضوضاء البصرية والسمعية.

أبواق.. كشافات.. أضواء.

أضواء سيارات الإسعاف الزرقاء.. وأضواء سيارات الشرطة الحمراء.

وسيارة من طراز جيب شيروكي تقطع الطريق أمام المارة الفضوليين والسيارات التي تخرج من نوافذها أيادٍ محملة بهواتف محمولة.. تلتقط في خلصة صورة أو فيديو قصيراً.

- حرك الطريق يا بشير.. وامنع التصوير أيًا كان صاحب السيارة.
صرخت بها عاليًا بلا داعٍ، حتى يسمعني بشير صاحب الأسنان
اللامعة وسط الوجه الأسمر الغارق في عرق صيف أغسطس الحارق.
الساعة الآن الثامنة مساءً، والرطوبة النسبية ستون بالمئة.
لماذا لم تُمنَح خياشيم في رقابنا حتى نتنفس هذا الهواء المحمل
بالماء.

- مساء الخير يا كمال باشا.

- من دون مقدمات يا ناصر.. من دون مقدمات بالله عليك.
رفعت كف يدي في وجه ناصر، الشرطي الشاب الذي تخرّج منذ
خمسة أعوام فقط من كلية الشرطة، وأنا أغالب جفنيّ اللذين أوشكا
أن ينغلقا فوق عينيّ بلا إرادة مني، فتنحني متابعًا:
- الجئة لرجل في الخامسة والستين.. رجل أعمال شهير.. عراقي
الجنسية.. يعيش بمفرده في هذه الفيلا الطويلة العريضة.. بلا زوجة
ولا أبناء..

درت برأسي إلى الفلل الفاخرة المحيطة بالمنزل الذي عبرت بوابته
الحديدية منذ ربع دقيقة.

- عراقي.. ويعيش هنا وسط القصور في هذه الجنة!

- إن كنت تسأل يا باشا.. فأنا في الحقيقة لا أملك أي إجابة.. وإن
كنت تتعجب.. فأنا أعتقد أننا توقفنا عن التعجب من زمن.

- كف عن ملاعبتي بالكلام يا ناصر.. لست في مزاج رائع لمتاهاتك

الكلامية.

ثم تقدمت خطوتين فوق الأرضية المصنوعة من حجر الإسكافي، وأنا أتشمم رائحة الياسمين في أرجاء هذه الحديقة الصغيرة.

- الخدم؟

- ليس لديه الكثير من الخدم.. أغلبهم يأتون صباحًا ويرحلون مساءً.. عدا الخادمة الإثيوبية التي جاءت معه من الخليج.. فهي تسكن في غرفة في الطابق الأرضي بجوار المطبخ الرئيسي.

- طيب وبالنسبة للسائق والجنايني والبواب؟

رفع في يده بطاقة هوية مصقولة، عليها صورة باهتة لرجل في أواسط ثلاثينياته أو ربما أواخرها، وأسفلها اسمه المكتوب بحروف عربية منمقة، وقال في هدوء:

- السائق يأتي في الخامسة صباحًا ويرحل في العاشرة مساءً.. أما الجنايني والبواب فهما شخص واحد..

أمسك بورقة صغيرة ورفعها أمام عينيه متابعًا:

- أحمد رضوان.. ومن لهجته يبدو أنه دمياطي.

- أو بورسعيدي.. من الصعب أن تخمن.

- لا.. لم أكن أتوقع.. اللهجة دمياطي.. وعنوانه كذلك في البطاقة.

حدجته بتلك النظرة التي تعيد لسانه إلى موضعه بين طرفي فكه السفلي، وتغلق شفثيه فوقه، وتقدمت ناحية درجات سلم رخامي تقود إلى باب خشبي عملاق، تفوح منه رائحة شبيهة بالعنبر، وقد

زُخِرِفَ لحاؤه بقطع من النحاس اللامع، تنعكس فوقها أضواء ثمانية مصابيح موزعة حول الباب بطريقة تجعله يبدو كباب للجنة نفسها.

- ما شاء الله.. هذا الباب قد يكلفني مرتب شهرين على الأقل.

- لم أكن أعرف أن مرتب المقدم قليل لهذه الدرجة.

قالها وهو يحاول إخفاء نبرات السخرية بين ثنيات الحروف، وهو يشيح ببصره إلى نخلة مائلة، تقف بمفردها في جانب الحديقة بجوار السور الحجري المرتفع.

- راجعت الكاميرات؟

- ننتظر الأدلة الجنائية كي تنهي المعاينة المبدئية.. والصبح نستصدر إذن النيابة لأجل تفريغ الكاميرات.

هزئت رأسي غير راض عن رده، فالقانون يعطيه الحق بصفته شرطياً في المباحث الجنائية أن يفحص الكاميرات مبدئياً قبل استصدار إذن النيابة.

لكن، منذ متى كان جيل (جوجل) الذي يجيبه عن أي سؤال قد يخطر بباله، يمكن أن يرهق رأسه بمراجعة اللوائح والقوانين؟!

أزحت الباب بيدي، ثم مددت كفي اليمنى تجاه ناصر، فوضع فيه زوجاً من القفازات المطاطية، ورحت أدور ببصري في المكان، وأنا أجاهد كي أدخل أصابعي الغليظة في الفراغات المطاطية.

- بيت فاخر ما شاء الله.

- القتل جاء من الخليج في ألفين وخمسة عشر.. ومعه ثروة لا

بأس بها.. أدارها في التجارة والصناعة والإنتاج السينمائي.. ومن ساعتها لم يترك مصر.

- كل هذا في ثلاث سنوات فقط! واضح أنه يعرف مصر أكثر منا جميعًا.

قلتها وأنا أبتسم ساخراً، وهزئت رأسي في أسى على حالي، وأتذكر عندما دخلت المنزل يومًا وخلفي عامل يحمل شاشة تليفزيون مقاس 50 بوصة، وأنا منتشٍ كأنما جلبت لأهل بيتي قناطر اللؤلؤ.

يومها زامت عائشة زوجتي بشفتيها المصبوغتين وقالت من بين أسنانها:

- ألم تجد شاشة أصغر قليلاً؟

وأنا في الحقيقة لا أعرف لماذا تعتقد زوجتي عائشة، المُدرّسة المشغولة دائماً، والتي تشاهد التلفاز في الإجازات الرسمية فقط، أن شاشة مقاس 50 بوصة صغيرة ولا تناسبنا

ربما لأن...

- كمال باشا.. معايا؟

- ها.. نعم.. لفت انتباهي فقط تلك الشاشة العملاقة.. كم بوصة حجم هذه الشاشة؟

نظر إليّ في دهشة، وكأنما لم يتوقع أن يكون هذا هو محور اهتمامي الآن، ثم قلب بصره نحو الشاشة متابعًا:

- لا أدري.. ربما 80 أو 85 بوصة.. كل الشاشات تشبه بعضها في الحقيقة.

كدت أخبره أن يقول ذلك لعائشة لا لي، لكنني تذكرت أن هناك جمعة ترقد في مكان ما الآن، تنتظر التعارف.

- من الذي بلغ؟

- الخادمة الإثيوبية.. اسمها.. أبيبا.

- وأين وجدته؟

- في حجرة مكتبه.. كان ممددا نائما على بطنه.. وحوله بركة دم..
الظاهر أنه طعن حتى الموت.

- وأداة الجريمة؟

رفع كتفيه وعلى وجهه تعابير طفل في السابعة تسأله معلمته عن
الواجب المدرسي الذي فوته للمرة الألف.

- وما معنى هذه الحركة السخيفة؟!

- معناها أنني لا أعرف يا كمال باشا.. لم يُعثر على أداة الجريمة
معاليك.

- تقصد أن القاتل طعنه وأخذ سلاح الجريمة معه؟ يا له من قاتل
منظم!

- في الغالب هذا ما حصل.. لا أريد أن أفترض قبل أن أتأكد.

- عملنا نصفه افتراضات وفرضيات وتوقعات.. تقود إلى نهايات

منطقية يا ناصر باشا..

هز رأسه بمعنى -كما تريد- ثم أشار لي نحو حجرة المكتب كي ألحق به.

وما إن عبرنا الباب، حتى غاصت أقدامنا في سجادة إيرانية فاخرة، امتلأت بزخارف لأسود تتظاهر بأنها صقور، وصقور تتظاهر بأنها أسود، وبقع حمراء متجمدة تغطي كل ذلك.

وفي وسط السجادة، يرقد على بطنه جسد ضئيل ذو رأس حليق، ملتف في قميص قطني أسود، وبنطال من الكتان السماوي، وحذاء إيطالي أسود بلا جوارب.

وبقعة الدم المنتشرة إلى جوار جسده.

وفوق الجسد، بالتحديد في الحائط الذي تتوسطه خزانة زجاجية قصيرة، تراصت فوقها دروع ذهبية وإطارات تحمل داخلها شهادات ما، علقت صورة لوجه حليق يتوسط رأسًا أصلع يرتدي نظارة طبية بلا إطارات، ويبتسم في غموض.

وجه يعكس وجه الجثة الراقدة الغارقة في دماؤها أسفل الصورة الآن.

وجه بسام الأصيل.

القتيل.

(2)

صباح اليوم التالي للجريمة

رحت أفرك عيني، وأنا أقرأ تلك الورقة التي خرجت من الطابعة منذ ساعتين.

أقرأها للمرة الثامنة خلال ساعتين.

منذ نصف ساعة وردتني المكالمات المنتظرة، والتي يصر صاحبها على أن:

- القتل رجل أعمال مهم وأحد أهم رجال صناعة الترفيه والضيافة في العالم العربي.. ونحن بالتأكيد لا نريد أن نتسبب في فرار رءوس المال التي جاءت للاستثمار في بلادنا.. ما يعود بالنفع على... إلخ إلخ.

- تمام معاليك.. كل شيء سيتم بسرعة البرق.

- كمال.. لا أحتاج إلى أن أنبهك.. معالي الوزير يتابع الأمر شخصيًا.. وهو حريص على...

يخفت الصوت في عقلي كأننا في فيلم سينمائي، وتتصاعد الموسيقى الدرامية.

بينما تتأهب ناصر كجمل ثائر، وفرك شعر رأسه الأسود الثقيل.

- يبدو عليك التعب والإرهاق يا باشا.. ألا تنوي أن ترتاح قليلًا؟
النهار ما زال في أوله.

- اذهب أنت إلى بيتك وئَم قليلاً.. سأبقى هنا لبضع ساعات.

نعم، اذهب يا ناصر، فربما تعود بعدها وأنت قادر على فعل أي شيء أكثر من التناؤب.

- جميل.. إذن لا منزل اليوم ولا راحة.

قالها وهو ينهض في حركة سريعة مفاجأة، حركة -لو كنت مكانه- قد تهبط بالدم من رأسي إلى قدمي وتسقطني على المقعد من جديد.

لكن العشرينيات لها أحكامها، كما للأربعينيات أحكامها.

- سأذهب لأحضر بعض القهوة.. وبعض الشطائر من عند أبو غالية.

- أريد شطيرتي المعروفة.. فلافل بالجبن والطماطم.. وقل لبدران إنه لو أغرق القهوة بالسكر كي يداري صنعتته الخائبة.. فسوف يبيت ليلته هنا مع بشير النوبي.

ابتسم رغماً عنه بعد أن سمع مني تلك الجملة التي تتكرر للمرة الخمسين، ثم رفع كف يده محيياً إياي، وغادر الحجرة.

رحت أراقبه وهو يعبر الواجهة الزجاجية لحجرة مكتبي، وشبح ابتسامة يتراقص فوق شفتي كلاعب السيرك.

ثم عدت إلى تلك الورقة التي كنت أقرأها للمرة التاسعة -أو ربما العاشرة- لا أذكر..

لم أعد أتذكر جيداً.

أم لعله الإرهاق والسهر؟!

بسام الأصيل.. خمسة وخمسون عامًا.. رجل أعمال.. يمتلك ثلاث شركات تعمل في مجالات الضيافة ومصنع أغذية معلبة ومصنع حلويات.. وخمسة محلات في ثلاثة شوارع تجارية مزدحمة.. وشركة إنتاج درامي.. ورصيدًا بنكيًا يتجاوز ميزانية دولة فقيرة من دول إفريقيا..

ثلاثة آلاف موظف يعملون في شركاته ومصانعه.. وسبعة من المستشارين الماليين والقانونيين.. وأشهر عازب عجوز في مصر حاليًا..

وقائمة قصيرة جدًا من المشتبه بهم.. قصيرة جدًا بشكل لا أفهمه.. تحتلها ثلاثة أسماء فقط!

هل عرفت لماذا أقرأ الورقة للمرة العاشرة في هذا النهار!

(3)

ظُهر اليوم التالي للجريمة

غارقًا في كوب القهوة الورقي زائدة السكر.. وأنا أقضم قضمات كبيرة من شطيرة خبز التفت حول قرصين من الفلافل الساخنة، مغمسة في دهان الجبن، رحت أطالع الورقة للمرة المئة.

بالتحديد ذلك الجزء الخاص بالمشتبه بهم.

- يا ليت كل أوراق القضايا تنحصر في ورقة واحدة..

- تنحصر.. أنت دفعة كم يا ابني؟

- ألفين وثلاثة عشر يا باشا.

قالها ناصر، ثم نفّض بقايا الردة من فوق ثيابه متابعًا:

- لو كانت الحياة مثل هذه الورقة.. ستكون حياة غاية في المثالية.

قلت وأنا لا أرفع عيني المتعبتين عن الورق.

- ثلاثة فقط.. كيف حصرت التحقيقات المشتبه بهم في ثلاثة فقط.. يمكنني أن أعد من لهم مصلحة في موت القتل على أصابع يديّ وقدمي.. وهذا فقط لمن هم داخل مصر وحدها.

أجاب بفهم مليء بالفول:

- لأن هذه هي دائرته المقربة.. كما يقول محضر التحقيقات.

- وكيف صدر محضر التحقيقات بهذه السرعة؟!

- يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

- اللهم قوّ إيمانك.

ثم أعقتها بابتسامة ساخرة نادرًا ما تصدر مني.. وأمسكت بقلمتي المهترئ الجسد.. ورحت أشخبط فوق أوراق قضية سابقة.. كانت مستلقية فوق مكتبي بلا فائدة..

خادمة.. سكرتيرة.. مدير حسابات.. دائرة مقربة لا تليق نهائيًا بأحد أباطرة التجارة من المقيمين في مصر.

بل أحد أباطرة التجارة حاليًا في العالم العربي بأكمله.

ربما -وكما يقول تقرير التحقيقات- بسبب الأحداث الأخيرة التي مرت بحياة بسام الأصيل.

مناقصات متعددة مع الدولة خسرها بسبب سوء تقديره.. أو ربما خيانات من مقربين سابقين له.. وعقود مع جهات مهمة خسرها بسبب سوء إدارته وعناده المتكرر.. وما زاد الشعر بيثًا، أنه -وبسبب عصبيته الشهيرة- كاد يموت بأزمة قلبية وهو يصرخ على مدير شركة المقاولات.

هكذا شهدت سكرتيرته المقربة كاترينا حسب مصدر التحقيقات.

وعندما انتهيت من الخربشة بالحبر فوق الورق.. كنت قد وصلت إلى نتيجة مهمة.

أنا أملك ثاني أسوأ خط غير مقروء رأيته في حياتي بعد خط ابني أحمد.. الطفل ذي العشرة أعوام!

أنا أهذي.. نعم أنا أهذي.

تبدأ لقلة النوم والصداع ولإلحاح عائشة المتكرر كي أترك الشرطة وأتاجر في العقارات مثل أخيها.

- ما رأيك أن نترك الورق، ونتكلم في الكلام المفيد؟ بمن تحب أن تبدأ؟

- أبدأ بماذا؟

- عمل المباحث الحقيقي يا كمال باشا.. عمل المباحث الحقيقي.. الاستجواب والاستدلال وكل تلك الأشياء التي لا تمل قولها ليل نهار. لطالما كنت أنا صاحب هذه المقولات.

إن تقارير التحقيقات.. ولوائح المعلومات.. وصور البطاقات المخزنة في قاعدة بيانات يحكمها كمبيوتر كبير.. ليست سوى غطاء البالوعة فقط.

قد تنفذ بعض الروائح الكريهة.. لكن المصدر نفسه يحتاج إلى يد قوية.. ترفع الغطاء.. وتمد يدها نحو الـ...

ما هذه التشبيهات المقرفة؟

أنا أهذي.. وأحتاج إلى النوم.

النوم.

- اذهب أنت إلى النيابة.. واستصدر أمر ضبط وإحضار لهؤلاء الثلاثة.. وأمر منع سفر الخادمة الإثيوبية والسكرتيرة اللبنانية.. مفهوم؟

ثم ناولته الورقة الوحيدة، وقلت وأنا أفرك عيني حتى كدت
أقتلعهما من وجهي:

- سوف أبدأ بالخادمة الإثيوبية.. من النهاية إلى البداية.

- كما تحب يا باشا.

ودارت العجلة.

العجلة التي لم أكن أعرف أنها لن تتوقف أبدًا.

(4)

مساء اليوم التالي للجريمة

فتاة هشة رقيقة، تعقص شعرها خلف رأسها فتكشف عن جبين عريض أسمر، أسفله عينان واسعتان خجولتان.

كانت تبكي بكاءً صامتًا يمزق نياط القلوب، وتمسح أنفها الصغير بالمنديل كل دقيقة.

- Do You Speak English?

سألتهما بهدوء، فمسحت أنفها للمرة المليون وأجابت بصوت متهدج:

- أنا أتحدث العربية جيدًا يا سيدي.

- ما شاء الله.. سمعت أنكم في إثيوبيا تتحدثون بعض العربية.. لكن لم أكن أتصور أنها عربية حلوة بهذه الطريقة!

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفثيها، وقالت:

- أنا عملت خمس سنوات في ليبيا قبل أن آتي إلى الخليج ومنه إلى مصر.. وفي ليبيا لا تتحدث إلا العربية يا سيدي.

- مفهوم مفهوم.

ثم نظرت إلى جواز سفرها ذي الصورة الباهتة غير واضحة المعالم.

- اسمك.. أبيبا جيم.. جيماري؟

- أيبيا جيميريه.. يا سيدي.

هزرت رأسي متفهمًا، ثم نظرت من جديد إلى بطاقة الهوية، مطالعًا تاريخ ميلادها الذي يرجع إلى العام 1978.

- عمرك أربعون سنة؟

- ربما يا سيدي..

- ربما؟! عمرك حسب جواز سفرك أربعون سنة..

ثم وضعت جواز السفر أمامي وصوبت نظرة صارمة إلى وجهها.

- عمرك أربعون سنة أم لا؟

- جواز السفر يقول إن عمري 40 عامًا.. إذن فعمري 40 عامًا يا سيدي.

عدت بظهري إلى الوراء وأمسكت بجواز السفر، ورحت أدق به فوق سطح المكتب الخشبي، والصمت يرفرف على هواء الغرفة الرطب.

- دعينا من جواز السفر.. وقولي لي.. كم عمرك؟

- في الحقيقة يا سيدي.. لا أعرف.. أذكر أنني ذهبت مع خالي إلى الطبيب وأنا صغيرة.. فقال إن عمري 14 عامًا.. لكنني يا سيدي لم أكن قد نزلت دماء الـ...

قاطعتها بإشارة من يدي، ووضعت جواز السفر إلى جوار جواز سيدها المقتول، ثم تنحنحت متابعًا:

- طيب يا أبيبا.. احكي لي ما حدث.

- مساء أمس وجدت سيدي واقفًا على وجهه في غرفة مكتبه وحوله دم كثير.. وعندما ناديته لم يرد.. فناديت من جديد.. لكنه لم يتحرك يا سيدي.. فعرفت أنه.. أنه...

ثم قطعت عبارتها، وراحت تبكي كصنوبر تالف، وجسدها الصغير الرقيق يهتز متشنجًا حزنًا على «بابا» كما تدعو أغلب الخادومات أولياء نعمتهم.

ناولتها زجاجة ماء، فنهضت من مقعدها، وانحنت بجسدها نصف انحناء، وتناولت الزجاجة.

- اجلسي يا أبيبا.. اجلسي واهدئي.

فتحت زجاجة المياه الصغيرة، وراحت تجرع منها بلا انقطاع كأنما لم تشرب الماء في حياتها، ثم مسحت فمها بكف يدها.

- أشكرك يا سيدي.

ثم قالت وهي تنظر في الأرض:

- هذا كل ما حدث.

مددت يدي إلى الطاولة الملحقة بمكتبي، وتناولت منها جهازًا صغيرًا في حجم هاتف محمول، ووضعت أمامها فوق طاولة المكتب، وعقدت كفي:

- هل تعلمين يا أبيبا.. طوال عمري كنت مفتونًا بالقصص وتفصيلها.. ولما أنهيت الدراسة الثانوية.. وبرغم أنني لم أكن بارعًا

في الجري والقفز و... لم أكن أحب استخدام السلاح ولا صوته.. فقد طلبت من أبي أن ألتحق بكلية الشرطة.. أتعرفين لماذا؟

قلتها مستخدمًا طريقتهما في نطق العربية الفصحى كمحللي البي بي سي الأجانب.. فأجابت في حيرة:

- لا أعرف لماذا يا سيدي؟

- لأنني أحب سماع الحكايات والقصص.. والضابط هو أكثر من يسمع القصص في حياته.. ولا يوجد مكان أفضل من المباحث الجنائية كي أسمع القصص يا أبيبا.. ولذلك سعيت أن أكون ضابط مباحث جنائية.. مباحث جنائية بالذات.

ثم مددت يدي وضغطت زرًا على شاشة الجهاز.

- والآن يا أبيبا.. هذا جهاز تسجيل.. وأنا سوف أضغط هذا الزر الأنيق لكي أشغل هذا الجهاز.. وأنت سوف تحكين لي كل شيء بالتفصيل.. منذ أن وصلت إلى الخليج عند بسام الأصيل.. وحتى جلست أمامي هنا.

تنحنحت، ثم مسحت أنفها من جديد.

- كل شيء يا سيدي؟

- كل شيء يا أبيبا.. كل شيء.

- كما تأمر يا سيدي.

عدت بظهري على المقعد الجلدي، ومددت ساقي أسفل المكتب، وضممت كفي خلف رأسي قائلاً:

- والآن يا أيبا.. كلي آذان مصغية.

الفصل الأول

أبيبا جيميريه

(1)

قبل الجريمة بأربع سنوات

ضربت عجلات الطائرة أرضية المطار الساخنة.

وراحت الطائرة ترتج يمينًا ويسارًا حتى استقرت فوق الممر.. ثم راحت تتباطأ وتتبختر يمنة ويسرة كفتاة لعب.

ومع تباطؤها، نظرت أيبيا بعينيها الواسعتين من النافذة الزجاجية المغطاة ببخار الماء، وهي تحاول أن تستكشف بعينيها ما خلف الزجاج.

أضواء ساطعة تأتي من طائرات عديدة تقف حولها، ومن خلفها تسمع الصوت الذي يتحدث لغة أمهرية حبشية ريفية.

- سمعت أن الطقس حار جدًا هنا..

- كان باردًا هناك.. والأمطار لا تتوقف عن السقوط.. لكننا لم نجد ما نأكله.

ثم نظرت إلى جارتها في الطائرة، ولمعة تكسو عينيها الواسعتين وهي تقول هامسة:

- لربما أمطرت علينا طعامًا هنا بدل الماء الحامض مر المذاق.

سارت كما يسير السائرون في الممر الرخامي المكيف وهي تحمل على ظهرها حقيبة قماشية مهترئة، بها بقعة بنية باهتة لكوب قهوة سقط عليها يومًا ما، وراحت عيناها الواسعتان تجوبان حوائط الممر المليئة بالكاميرات والأضواء الصفراء الساطعة.

تمشي بخطوات مسرعة لا تناسب قامتها القصيرة النحيفة، حتى بدت كطفلة تذهب إلى مدرستها في يومها الأول، وعيناها الواسعتان مثبتتان على نقطة في مقدمة حذاءها الكاوتشوك الأبيض الذي استحال لونه إلى لون القمح.

- أول ما أفعله.. سوف أشتري حذاءً جديدًا من أول راتب.

قالتها وهي تبتسم ساخرة من أحلامها.

فقبل الحذاء، عليها أن تسدد خمسة آلاف دولار للرجل الذي أتاها بتأشيرة السفر إلى الخليج، وإلا خرب بيت أهلها وُج بهم في السجون، أو على أقل تقدير، قد يطيح برقبة أحدهم لقاء عدم التزامها بسداد القسط كل ثلاثة شهور.

ألف دولار كل ثلاثة شهور، يعني سداد خمسة آلاف دولار خلال خمسة عشر شهرًا.

لطالما كانت بارعة في الحساب.

عندما كانت في المدرسة، كانت تحسب أي معادلة حسابية في رأسها بلا ورقة ولا قلم، حتى توفر القلم الرصاص لمدة أطول، وحتى لا تضطر إلى استهلاك المحاة.

- سأبقى هنا لعامين.. ثم أعود بعدها إلى ضواحي أديس.. وأتزوج وأنجب الكثير من الأطفال.

همست لنفسها من جديد، بينما ذلك الصوت المرتفع يدوي من آخر الممر:

- التأشيرات من هذا الاتجاه.. وحاملو الإقامة من هذا الاتجاه.

فهمت كل شيء لأنها تفهم العربية مثل أهلها، فهي لم تتعلم من مخدموها الليبيين سوى اللغة العربية، وشرب القهوة بالحليب كل صباح.

فقط.

- ماذا يقول هذا الشرطي يا أختاه؟

- يقول إن عليك أن تمشي في هذا الاتجاه.. لأنك مستجدة مثلي.

- وكيف فهمت كلماته؟ إنه يتحدث العربية على ما أعتقد.

نظرت لجارتها في الطائرة نظرة جانبية صامتة، ثم عادت تركز بصرها على تلك البقعة في حذاءها المتسخ.

هي لا تريد أصدقاء من بني جلدتها، لا تريد أن تكون عضوًا في مجتمعاتهم، لا تريد أن تجالسهم في يوم إجازتها الأسبوعي في الحدائق والمولات المكيفة.

تريد حياة منغلقة، هادئة، تجني فيها الدولارات التي يجب سدادها، وتخبيئ منها القليل لتساعد به أهلها على تكاليف حياتهم.

لا تريد صديقًا ولا رفيقًا.

لا تريد إلا أن تعبر هذه البوابات والختم فوق صفحة من جواز سفرها، والراتب في جيبها أول كل شهر.

ولم تكن تعرف وقتها أن الأيام الهادئة هي حلم بعيد المنال.

(2)

قبل الجريمة بثلاث سنوات وعشرة أشهر

شهرين كاملين منذ أن وطئت أرض المطار الرخامية الفاخرة
بحذائها المتسخ.

شهرين بلا عمل، بلا راتب، بلا كرامة.

تنام في فراش ضيق، يعلوه فراش آخر، كأنما هو وحش جائم على
صدرها.

لم تغادر المسكن المتواضع، الذي تفوح منه روائح المجاري،
والطبخ الهندي، ورائحة الأرجل المكشوفة التي تكدست صباحاً في
أحذية بلاستيكية ضيقة، تختلط برائحة مسحوق غسيل رخيص
لعياب نشرت لتوها فوق منشر ثياب معدني رخيص يقبع في طرف
الغرفة.

الغرفة التي تحتلها ستة أسرة مزدوجة ذات طابقين، واثنتا عشرة
خزانة ثياب معدنية صدئة.

واثنتا عشرة فتاة من خمس جنسيات.

سمعت الهمهمات، والنهنية، والبكاء المكلوم بكل اللغات.

لكن، كانت تتوق كل يوم أن تسمع اسمها ينطق بتلك الإنجليزية
ذات اللكنة الآسيوية، التي تتكلمها كانديس.

المشرفة الفلبينية البدينة ذات الوجه الشبيه بمديرة مدرستها
عندما كانت طفلة.

مع الفارق أنه وجه ملطخ بكيلوجرامين من أصباغ التجميل، تخفي بها شاربًا ناعمًا صغيرًا في وجهها البدين.

واللعاب يتطاير من فيها المصبوغ بأحمر شفاه رخيص.

حتى عندما تهمس:

- كاريا وحسينة وأنسو.. ارتدوا الثياب وهيا.. لديكم عمل اليوم.

فتقفز الفلبينية والبنجالية والنيبالية من فوق أسرّتهن البالية، ويرتدون ثياب التنظيف الرخيصة، ثم يدسسن أقدامهن الدقيقة في أحذية التنظيف البلاستيكية، ويقفن منتصبات كجنود في وحدة عسكرية.

تنزل أبيبا من فوق فراشها بهدوء، وتقترب من المشرفة الفلبينية:

- أريد عملاً.. ألا يوجد عمل لي؟

تنظر لها نظرة مقززة لزجة شبيهة برائحة عطرها الثقيل، وتفتح فاهها بابتسامة لا تقل لزوجة عن نظرتها، ثم تقول:

- لا.. لا أحد يريد سوداء عجفاء مثلك للعمل.. الزبائن يريدون فتيات قادرات على العمل بجد.. والأهم.. قادرات على العمل في صمت.

تبتلع الكلمات مع لعابها، وتبادلها ابتسامة لزجة حاولت قدر المستطاع أن تجعلها سخيفة.

- سوف أعمل في صمت.. فقط أعطيني عملاً.

- بعدين بعدين.

قالتها بالعربية، وبتلك الطريقة التي تجيدها الفلبينيات في جعل اللغة العربية فقرة في فاصل كوميدي، ثم همت بالرحيل.

- أنتِ تجلسين هنا في السكن حتى يأتي زبونك الذي يريد سوداء عجفاء تربى أولاده المدللين.. وتنام عشر ساعات في اليوم بلا عمل.

ثم نظرت لها في احتقار متابعة:

- فهذا ما يجيده السود أمثالك.

لكن أبيبا كفت عن البلع.

وقبل أن تلتفت، أمسكت بساعد الفتاة المترهل، وكشرت عن أسنانها البيضاء المنتظمة هامة:

- قولي عني سوداء ثانية.. وسوف ألتهم حنجرتك البديئة قبل أن تكلمي جملتك.

ثم ازدادت نظراتها شراسة والتمعت عيناها ببريق جعل الفتاة الفلبينية تتصلب عاجزة عن الرد.

- أنا لم آتِ هنا للنوم فوق فراش رخيص.. أكل القليل وأشرب الماء بالطابور.. وفي آخر الشهر تلقين لي بالفتات.. أنا أتيت هنا للعمل.. ولم أدفع لذلك الوغد خمسة آلاف دولار كي أنظف حوش بيت سيدك صاحب الشركة.. أنا أتيت هنا للعمل.. لذا أريد عملاً.

هزت الفتاة البديئة رأسها في خوف، وقبضة أبيبا رفيعة الأصابع تزداد إحكامًا كالكلابات المعدنية فوق ذراعها المترهل.

- أظن أنك تفهمين إنجليزيتي الضعيفة يا مس كانديس.

- مفهوم مفهوم.. فقط اتركي ذراعي لأنك تؤلميني.

أطلقت سراح ذراعها، فراحت الفتاة الفلبينية تتحسس علامات أصابع أبيبا في لحمها الأبيض، وهي تسب وتلعن بلغة التاجالوج، ثم أشارت إلى الفتيات المختارات للعمل وهي تصيح، بإنجليزيتها المحطمة.

وكان آخر ما صدر منها هي نظرة الكراهية العارمة التي صوبتها نحو أبيبا.

نظرة عرفت منها أبيبا أن هناك عواقب لما أتى منها الآن.

هذا ما قالته لها إيفا، تلك الكينية الضخمة الشبيهة بمصارعات الحلبة التي كان أخوها يمضي الليالي في ذلك المقهى الرخيص، ليشاهد مباراياتهن على أنغام تقارع أكواب الشعير المختمر.

اقتربت منها إيفا، وكشفت عن صف أسنانها البيضاء هامسة بإنجليزيتها الضعيفة الخالية من القواعد:

- هل تظنين أن كانديس بيضاء القلب.. أو أنها متسامحة صافية مثل سماء الربيع؟ لو لم تهربي من هنا إلى بيت سيد جديد.. فهناك عواقب لما فعلته أيتها الإثيوبية الضامرة النحيفة.. عواقب وخيمة للغاية.

(3)

قبل الجريمة بثلاث سنوات ونصف

ثلاث وظائف ظردت منها في ثلاثة أشهر.

عاملة نظافة في مشروع مبنى تجاري متهاالك، تنظف حمامات المكاتب التي أوشكت على التهاوي فوق رءوس مستخدميها، ورائحة العطن والرطوبة تغمر المكان.

ظردت لأنها فقط قالت لسيدة عربية سليطة اللسان، ألا تلقي بمناديل الحمام داخل كرسي الحمام، فهذا قد يسد صرفه ويغرق المكان بالماء كربه الرائحة.

يا له من جرم شنيع!

خادمة وحارسة منزل ومربية أحياناً لمدة عشر ساعات في منزل سيدة هندية، تعمل هي وزوجها في إحدى المؤسسات الحكومية التي يحتل أغلب مناصبها الإدارية بنو جلدتها من الهنود.

كانت تصل في الصباح الباكر، الخامسة تحديداً، والشمس الناعسة المستيقظة لتوها توشك على أن تصبح حارقة قاضية، فتبدل ثيابها الرخيصة -الأنيقة رغم ذلك- وتلبس ثياباً وردية سخيفة شبيهة بزي ممرضات المستشفيات الرخيصة في بلادها، ثم تقف منتصبة ويدها خلف ردفها لتستمع إلى تعليمات السيدة الهندية.

-أرون يستيقظ في السادسة.. ويمر عليه باص المدرسة في السادسة وأربعين دقيقة.. لذا لا بد أن يكون جاهزاً قبلها بخمس

دقائق.. ولا تنسي أن تضعي له الغداء في حقيبة الغداء.. وتحكمي الغلق.

- حسنا يا سيدتي.

ترد بها وعيناها تركزان فوق تلك البقعة المتسخة على سجادة رخيصة متآكلة الأطراف.

- أما أنيتا فلا تستيقظ قبل العاشرة.. واحذري أن تقدمي لها أي حلويات؛ لأنها تجعلها غاضبة وكثيرة الحركة.. فقط اللبن وحبوب الإفطار.. ثم اتركها أمام التلفاز.

ثم تضع قدميها الضخمتين في حذاء أسود بلا كعب، وتبصق بصقة كبيرة في منديل أبيض ورقي، ثم تضعه فوق الطاولة وهي تتابع:

- والباقي أنت تعرفينه.. ولا تنسي تنظيف هذه البقعة في السجادة.. فهي هناك بلا تنظيف منذ بدء الخليقة.

تنظر إلى البقعة في السجادة، ثم تقول بصوت معترض خفيض:

- حاولت كثيرًا يا سيدتي.. لكنها لا تذهب.

- حاولي ثانية.. فلماذا أدفع لك المال.. أم تريدني أن أنظفها أنا بنفسني؟

- مفهوم يا سيدتي.. مفهوم.

تصدر السيدة الهندية همهمة أو اثنتين بلغتها المليئة بحروف الراء المضغوطة واللام الممطوطة، ثم تصفع باب الشقة الضيقة وهي

تغادر نحو عملها.

وتمارس أبيبا كل ما طلبته منها السيدة الهندية.

تتحمل سخافات أرون، الطفل ذي العشر سنوات وهو يضربها على ذراعها معترضًا على إيقاظه من نومته الطويلة، وهو في حالة هياج كأنها نومته الأخيرة، ثم تتحمل سخافات الطفلة ذات الثلاث سنوات، وبصقها -اعتراضًا- على وجهها المليء بحبوب الإفطار والحليب، وسكبها لبقية طبقها فوق بلاطات السيراميك، ثم صراخها المتكرر عندما تحاول أن تدخلها الحمام كي تقضي حاجتها، والوقت الذي يتآكل على الساعة الرقمية، وكان حمازًا نشيطًا يقضم من حقل برسيم.

ثم ثفاجأ بنفسها وقد مرت ست ساعات وهي لم تغسل طبقًا بعد في حوض المطبخ الممتلئ عن آخره.

وعندما تنام الشيطانة الصغيرة نوم قيلولتها، تتحول أبيبا الضامرة النحيلة إلى المرأة الخارقة، وتنقلب ذراعاها النحيفتان إلى أذرع أخطبوط، فتمارس خمس أو ست مهام معًا في نفس الوقت.

ثم تكرر محاولاتها مع بقعة السجادة بلا فائدة.

- ما هذه البقعة؟! لو كانت من الشيكولاتة أو الصلصة لزالت بعد كل هذه الكيماويات.. لكنها لا تزول!

وتميل برأسها لتشمم البقعة، فتشم منها رائحة كريهة.

أمس طلبت من صديقها الهندي راجبان، سائق الشركة التي جلبتها إلى الخليج، وأكثر شخصيات الشركة نقاءً واحترامًا لمهنته وللشعر

عمومًا، طلبت منه أن يأتيها بأي نوع كيماويات قوي ليذيب هذه البقعة.

- هل ستعطيك تلك الهندية ثمن هذه المادة الخاصة؟

يرردها بالعربية المختلطة بالهندية المختلطة بتعبيرات لم تسمعها في حياتها، وهي كما عرفت، اللغة الرسمية للتعامل بين كل من يتحدثون العربية وكل مقيم شبه القارة الهندية العجوز.

- لا.. أنا سأدفع هذا المال من راتبي يا راج.. أنا أحب عملي وأحب أن أؤديه كما يجب.

فينظر لها مستنكرًا، ثم يفادي سيارة شيفروليه تاهو عملاقة، تظن أنها في سباق رالي.

- أنت تكسبين هذه الأموال من أجل عملك ولأجلك أنت فقط.. وليس لكي تنفقيها على هذه المرأة وسجاداتها اللعينة..

ثم هز رأسه ذا الشعر الناعم متابعًا بعربية يستخدمها كل أبناء شبه القارة الهندية في الخليج:

- كده ما في فايده.

فتبتسم وهي تربت ذراعه، ثم تصمت وتراقب الطريق الغارق في شمس الصباح.

لكن الكيماويات لم تؤت أكلها.

البقعة تزداد ثباتًا!

والسيدة الهندية تعود من عملها هي وزوجها النحيف ذو الكرش

المتكور الذي يثير ضحكها، فكيف يأتي كرش صغير كهذا على جسد نحيف مرن كجسد السيد الهندي؟!

والسيدة الهندية تهرش رأسها لتبدو كشيئا -الذي رأت تمثالا صغيرا له فوق طاولة صغيرة في غرفة المعيشة- ثم تصرخ معترضة على إهمال أبيبا وقلة جهدها، وأنها لا تدفع لها مالا وفيذا كي تنام أو تتحدث في المحمول أو تشاهد ال... إلخ إلخ من هذا الهراء، ثم تتصل بالسائق ليعيدها إلى السكن.

وغداً يوم جديد.

لكن السيدة الهندية في يوم من الأيام، عادت مبكراً وهي تحمل في يدها شهادة تقدير، ورسالة تتمنى لها التوفيق في مكان جديد بعمل جديد، لأن خدماتها الجليلة المهمة، لم تغد ذات نفع للمؤسسة.

ومع بداية الشهر الثاني، كانت أبيبا قد عادت إلى السرير المعدني ذي الطابقين، لأن خدماتها عديمة النفع -كما قالت السيدة الهندية- لم تغد ذات نفع للمنزل!

أما الوظيفة الثالثة، فقد ظردت منها لسبب بسيط.

لأنها لم تتحمل أن يربت سيد المنزل المصري على مؤخرتها.

سبب بسيط جداً.

فكيف تعترض على شيء بسيط كهذا، كما قال لها ذلك الرجل السوري، الذي تسميه كانديس (المندوب)؟!

الرجل الذي أجبرها أن تبتلع لسانها، ولا تشتكي لأحد، وإلا كانت

على أول طائرة مسافرة إلى بلادها الفقيرة المعدمة.

وفي جوف الليل، وعيناها ترسمان المشهد على سقف السرير
المزدوج، وتبكيان في صمت، راحت تلعن اليوم الذي غادرت فيه
بلادها الفقيرة المعدمة.

- سأطلب منهم أن يعيدوني إلى إثيوبيا.. وهناك سوف أدخل
السجن.. وتنتهي هذه القصة.

ثم راحت تمسح عينيها اللتين تذرغان الدمع كصنبور الحمام
التالف، وعقدت عزمها أن تنفذ ما نوت عليه.

إلا أن الصباح حمل لها خبرًا غريبًا.

في البدء طلبت منها كانديس أن تحزم أغراضها، وأن ترتدي ثيابًا
نظيفة منظمة، وأن تتعطر جيدًا لأن السيد الجديد حساس ضد
الروائح الكريهة.

كادت تسألها عن فكرتها عن الروائح الكريهة، ورائحة عرقها
المختلط بالعطر الدهني الثقيل تفعم جو الغرفة الضيقة، لكنها نظرت
لها وقالت:

- لن أعمل في بيوت عرب أو هنود.. أريد بيتًا أجنبيًا.. أو
فلتضعوني على طائرة إلى بلادي.

ثم أولتها ظهرها، لكن صوتًا عربيًا يحمل لكنة شامية صرخ من
خلف باب الغرفة:

- كانديس.. أسرعي قليلًا.. فالمعلم لا يحب أن ينتظر.

- حسنا مستر فراس.. سريعا سريعا.

ثم أمسكت بكتفي أبيبا، ولأول مرة تظهر على وجهها تلك النظرة الحنون.

نظرة لم تعرف أبيبا أنها قد تراها في عيني كانديس قط.

- اسمعيني يا فتاة.. إذا ذهبت اليوم إلى المعلم.. وقال إنك تصلحين.. فلسوف تتغير حياتك تمامًا.. إنها ليست خدمة في بيوت موظفين فقراء يعملون عشر ساعات ويعدون عليك الأنفاس وأكواب الشاي وملاعق السكر.. أنت ذاهبة إلى بيت صاحب الشركة.. إلى سيد الجنة نفسها.. ولتدعي ربك -أيًا كان- أن تعجبيه وتناهي رضاه.. لأنك لو نلت رضاه.. فستدخلين الجنة ولن تخرجي منها.

- أنا لست جارية في سوق عبيد يا كانديس، ولا أقبل أن...

- دعك من كلام الكتب والأفلام يا فتاة.. وانزلي إلى أرض الواقع قليلاً.. أنت هنا للعمل وكسب المال لأهلك.. لذا فلو جاءك الشيطان نفسه.. فلتعجبيه وتناهي رضاه.. وإذا طلب منك الخدمة في بيته في قلب الجحيم.. فلتخدمي بابتسامة راضية.. ما دام سيمنحك المال الذي جئت إلى هنا من أجله.

ثم نظرت في عينيها وهمست كأفعى بدينة منتفخة.

- والآن ارتدي ثيابك واحزمي أغراضك.. لأنك لو لم تنالي رضاه.. فلسوف يحققون رغبتك ويضعونك على أول طائرة إلى بلدك.. كما جئت منها.. فقيرة معدمة هزيلة.. فلا أحد يبقي عاملة قبيحة معدومة المواهب مثلك.. ظردت من ثلاث وظائف.

ثم ربت على كتفها، واختفت ابتسامتها لتحل محلها تلك النظرة الشرسة، والتي تكفلت الأصباغ الذائبة على وجهها بجعلها تشبه نظرة محارب هندي، ومشت وهي تهز ردفها ناحية الباب.

- الفتاة قادمة يا سيد فراس..

وقفت أبيبا لا تعرف ما قد تفعله.

ثم تذكرت الخمسة آلاف دولار.

وأما العجوز المريضة.

والمنزل الذي لم يذوق طعم اللحم منذ عام كامل.

والأخ الذي قتله الهزال والعمل بالبخس؛ فلم يعد قادرًا على فعل المزيد لأجل الأسرة الفقيرة المنهكة.

لذا وفي هدوء، ارتدت ثيابها، وتعطرت بذلك العطر الرخيص برائحة الياسمين، وعقست شعرها خلف رأسها الدقيق.

وحملت حقيبتها واتجهت في ثبات نحو الباب.

الباب الذي عبرته للمرة الأخيرة في حياتها.

(4)

قبل الجريمة بثلاث سنوات وخمسة أشهر

قابعة في غرفتها النظيفة المرتبة، المعطرة ببخور هادئ الرائحة، أمسكت الورقة والقلم للمرة الأولى منذ أن وطئت قدمها أرض المطار الرخامية، وراحت تحكي للورق

فصديقتها التي قابلتها في ذلك المول الفخم منذ أسبوع، ذاهبة إلى إثيوبيا في إجازة، وسوف تحمل معها الكثير من الخطابات والأموال في أظرف مغلقة.

لا تعرف من أين تبدأ ولا من أين تحكي.

لقد مر عليها هنا شهر كامل، ثلاثون يومًا بليلة.

واليوم حصلت على أول راتب كامل في ستة أشهر، وراحت تعد المال في سعادة، ثم تودع أغلبه في المظروف البني محكم الغلق.

لا تعرف من أين تبدأ، ولا من أين تحكي، لذا فقد قررت أن تحكي عن اليوم الأهم في تاريخ حياتها.

يوم أن قابلت سيدها، وسيد هذه الجنة التي أمضت بها ثلاثين يومًا حتى الآن، ولا تنوي أن تخرج منها أبدًا مهما حدث.

لذا بدأت تخط بلغة أمهرية، بخط أنيق فوق الورق الثقيل الفاخر، حكاية ذلك اللقاء.

تذكر يوم عبرت الحديقة الغناء الشبيهة بمرج أخضر تحفه الأزهار من كل مكان، وعيناها تجوبان أطرافها في انبهار، وأمامها فراس،

الرجل السوري الذي يسمونه المندوب، يمشي بخيلاء بقامته الفارعة،
التي تناقض قامتها القصيرة الضامرة، حتى يبدو للناظر أنه أب
فخور يصحب ابنته المجدة إلى باب مدرستها.

وقعت عينها المنبهرتان في الطريق على رجل هندي مهندم
العياب، يقف بجوار نخلة قصيرة عجوز في طرف الحديقة، وهو
يجمع بعضًا من ثمار البلح التي أوشكت على الذبول فوق النخلة،
بينما تلهو الطيور السوداء ذات المناكير الملونة حول الأشجار التي
تحف سور الحديقة الغناء لهذا القصر.

بلح في شهر مارس؟!

ابتسمت ابتسامة باهتة.

إن الخليج مُصر على إبهارها دومًا.

وقف فراس أمام باب خشبي كبير، مزين بزخارف جميلة زادت
من انبهارها، ورائحة جميلة هي خليط من الياسمين وزهور الموالح،
وصندل فواح، وبخور هادئ مدوخ، تأتي من حول ذلك الباب
الخشبي العملاق.

مد فراس يده الضخمة، وضغط زر جرس الباب.

وبعد دقيقة كاملة، فتح الباب العملاق مُصدِرًا صريرًا خفيفًا،
فالتفت لها فراس نصف التفاتة وقال بإنجليزية غليظة:

- اخلعي حذاءك.

فردت بعربية سليمة وهي تخلع فردة حذاءها الأبيض المهترئ،

والذي لا تملك غيره:

- أنا أتحدث العربية جيدًا يا سيدي، وأكتبها كذلك.

التفت لها بطرف وجهه وقال في غلظة:

- ممتاز.. كفانا استعراضًا لمهاراتك وقدراتك الخارقة.. ولا تتحدثي إلا إذا أعطوك الإذن بالكلام.. مفهوم؟

ثم رفع إصبعه محذرًا:

- وخذي حذرك.. فهذه فرصتك الأخيرة.. لو رضا عنك المعلم.. سوف تنفتح لك أبواب الجنة.. أما لو لم يرض.. فأنت تعرفين جيدًا إلى أين سوف تذهبين.

هزت رأسها خائفة وهي تخلع فردة حذائها الأخرى، ثم مسحت قدميها العاريتين في دواسة الأقدام الخشنة، لتسقط طيئًا جافًا وكأنها لم تخلع حذاءها بعد!

خطت بقدميها الدقيقتين خلف فراس إلى الداخل، لكن هذا الأخير ناولها غطاء قدم شبيه بما كانوا يلبسونه لها وهي تعمل في تلك البناية المتهالكة.

ارتدت غطاء القدمين على عجل، وخطت خلف فراس.

قاعة استقبال فخمة، تقف على أولها فتاة لبنانية حسناء فارعة القامة، لها شعر أسود لامع ينساب حتى خصرها، وتمسك في يدها لوح كتابة أبيض، وترتدي نظارة طبية أنيقة.

- هذه هي البنت؟

قالتا بعربية ناعمة، تختلف عن عربية فراس الغليظة.. فهز فراس رأسه.

راحت تتفحصها بعينيها وكأنها تنتقي زوجاً من الأحذية، ثم التفت حولها مثل التاجر في بلادها، والذي يعاين بهيمة في سوق الأحد.

ثم غمغمت بلا حماس:

- لا بأس بها.. نظيفة ومرتبة.

- وتتحدث العربية بطلاقة.

ارتفع حاجبا الفتاة للحظة تعبيراً عن دهشة مفتعلة مكتومة، ثم عادا إلى موقعهما من جديد، ونظرت إلى عيني أبيبا وهي تقول:

- أوك يا فراس.. والآن اذهب أنت.. وسوف أتصل بك لاحقاً.

- لكن.. أنا كنت أريد أن أقابل المعلم بخصوص..

- لاحقاً يا فراس.. لاحقاً.. المعلم ليس في مزاج رائق لمقابلة أحد.

نكس فراس رأسه، ثم تراجع للخلف، وغادر المكان.

بينما ثرَّد الفتاة الكلمات وهي ما زالت تتفحص أبيبا بعينيها.

- سوف أتصل بك لاحقاً.. لاحقاً يا فراس.

تنحنحت أبيبا وقالت:

- لقد رحل بالفعل يا آنسة.

- مس كاترينا حداد.. أنا السكرتيرة الخاصة لمستتر بسام..

ثم رسمت على وجهها ابتسامة عملية أنيقة، وقالت:

- تعالي.. سنذهب إلى غرفتك.. وبعدها قد تقابلين مستر بسام.

ثم أولت ظهرها لأبيها، وبدأت تدق كعبيها على الأرض الرخامية.

- لكنني ظننت أنني سأقابله أولاً، ثم...

وقطعت أبيها عبارتها عندما توقفت كاترينا عن المشي، والتفت لها وهي ترسم تعبير استنكار طفوليًا على وجهها، ثم همست في هدوء:

- الدرس الأول لك يا... ما اسمك؟

- أبيبا جيميريه.

- الدرس الأول لك يا أبيبا.. لا تتكلمي إلا عندما يُطلب منك أن تتكلمي.. أما الدرس الثاني...

ثم قطعت عبارتها وواصلت المشي وهي تشير إلى أبيبا كي تتبعها قائلة:

- الدرس الثاني.. عندما تقول كاترينا حداد أي شيء.. معناه أن مستر بسام قال نفس الشيء.. وعندما تأمر كاترينا.. يعني أن مستر بسام أمر بنفس الشيء..

ثم عبرت بجوار باب المطبخ، لتجد بابًا خشبيًا أنيقًا، أولجت فيه كاترينا المفتاح، ثم فتحت، ليهب تيار من الهواء البارد طيب الرائحة على وجه أبيبا.

- هذه غرفتك.. وملحق بها حمام.. أما الأكل.. فسوف تأكلين ثلاث وجبات من مطبخ شركة الضيافة..

ثم التفت لها وقالت:

- والآن.. اغتسلي واستحمي جيدًا.. واجمعي ثيابك القديمة وزوج الأحذية المهترئ الشبيه بغطاء البالوعة.. واجمعيها في كيس تخفيه في دولابك.. أو فلترمي بها في صفيحة القمامة.. ولا تفكري أبدًا أن تلبسها ثانية.. وسوف تجددين على السرير بعضًا من الثياب المنزلية البسيطة النظيفة.. وغداً سيأخذك السائق للمول.. كي تشتري ثيابًا جديدة.

ثم أشارت لها كي تخطو داخل الغرفة.

وعلى الضوء القادم من مصباح الممر الأبيض، راحت عينا أبيبا تتفحصان معالم الغرفة.

- أضيئي الغرفة يا بنت.. هل تظنين نفسك وطواظًا يرى في الظلام؟!

كادت تصح لها بأن الوطواط لا يرى في الظلام ولا في الضوء، كما قرأت سابقًا في أحد الكتب.

لكنها ابتلعت كلماتها وقررت أن تلتزم بالدرس الأول.

لا تتكلمي عندما لا يُطلب منك ذلك.

أضاءت المصابيح الصفراء، لثفاجاً بفراش أنيق خشبي، بجواره خزانة ثياب ذات بابين من خشب غامق أنيق، وعلى يمينها بجوار الباب طاولة صغيرة تعلوها مرآة.

كادت تصرخ فرحاً، لكنها حافظت على هدوئها وأدبها، حتى تنال

رضا مس كاترينا، التي تقول عندما يقول السيد.

- وبعد أن تستحمي.. تعطري بالعطر الموضوع فوق طاولة الزينة..
لأن مستر بسام حساس بشدة فيما يخص الروائح..

هزت أبيبا رأسها وعيناها لا تزالان ذاهلتين مما تراه.

منذ بضع ساعات كانت تبكي قهزًا وذلًا فوق فراش معدني صدئ
ذي طابقيين.

والآن هي تحقق في فراش أنيق ذي مرتبة عالية، وترى باب
الحمام المخصص لها كأنه باب قصر منيف.

- وعندما يجد مستر بسام وقتًا خاليًا من مشغولياته.. سوف
يقابلك.. وعندما تقابليه.. تذكرى الدرس الأول.. مفهوم؟

- مفهوم يا مس كاترينا.. مفهوم.

ابتسمت كاترينا ساخرة من نظرات الذهول الطفولية على وجه
أبيبا.

ثم أغلقت الباب خلفها.

وما إن أغلقت الباب، حتى خلعت أبيبا غطاء قدمها، ثم خلعت
ثيابها كاملة، وقفزت بثيابها الداخلية الرخيصة فوق الفراش الوثير،
وراحت تتراقص بجسدها فوقه وكأنها في مدينة ملاه.

وفي لحظات كانت تغط في نوم عميق.

نوم لم تنم مثله في حياتها من قبل.

وفي نومها، راحت تحلم أحلامًا متخبطة مختلطة.

عن البلاد، وعن أمها المسكينة العجوز، وعن عائلتها، وعن كانديس وابتسامتها اللزجة ورائحة عرقها الشبيهة برائحة الخل، وعطرها الثقيل الدهني.

وفي قلب كل هذا، وجدت نفسها تقف أمام باب القصر الخشبي الكبير، وراحت تسمع دقات على الباب كأنها تدق فوق رأسها..

وصوتًا عميقًا يأتي من بئر سحيقة يناديها:

افتحي يا أبيبا.. افتحي يا أبيبا.

لكن يدها لا تقوى على فتح الباب، يدها مكبلة خلف ظهرها فوق ردفها.

والصوت العميق يتحول بالتدريج إلى صوت رفيع مائع، يصيح بالعربية الناعمة:

- افتحي يا ملعونة.. هل مَثِّ وأرحتِ العالم منك؟

وفي لحظة واحدة، وكأنما ضغط أحدهم على زر كبير مكتوب فوقه «الاستيقاظ» فتحت أبيبا عينيها، وراحت تحقق في السقف المزين بأربعة مصابيح.

ووجدت نفسها ترقد فوق الفراش بغيابها الداخلية، غارقة في العرق البارد بفعل جهاز التكييف الذي يرمي بهوائه البارد عليها.

- أجيبني. أو سوف نحطم الباب كي نُخرج جثتك قبل أن تتعفن فوق السرير.

نهضت من الفراش بسرعة، فترنح جسدها بفعل انخفاض ضغط دمها، وكادت تسقط ميتة بالفعل، لكنها تحاملت واقتربت من الباب، وقالت بصوت سمعته هي بالكاد:

- نعم يا مس كاترينا.. أنا هنا.. كنت نائمة قليلاً.

- يا ملعونة.. اذهبي وبدلي ثيابك في خمس دقائق.. وقابليني في اللوبي.

هزت رأسها من خلف الباب وكأن كاترينا تراها، ثم قالت بصوت مبحوح:

- حسناً.. كما تأمرين.

- ولا تنسي أن تتعطري.. ها..

ركضت بسرعة إلى الحمام، لتتسع عيناها انبهاً من النظافة والأناقة.

- إذا كان هذا حمام الخادمة.. فكيف يبدو حمام السادة؟!

ثم خلعت ثيابها الداخلية، ووقفت عارية تحت الدش الذي يلقي بمياهه داخل حوض استحمام صغير، وراحت تغسل جسدها الضئيل، وتزيح من عليه العرق والأوساخ الملتصقة بها منذ ستة أشهر.

وراحت تحك جسدها باللوفة القطنية في عنف.

وكانما تغسل روحها مع جسدها.

وبعد ست دقائق بالضبط، كانت تقف في قلب البهو المؤدي لقاعة

الجلوس، وهي تعقد كفيها خلف ردفها، وهي ترتدي البيجامة القطنية طويلة الكمين، التي لا تناسب مقاس جسدها الضئيل، ورائحة الياسمين تفوح من جسدها وثيابها.

سمعت صوت قرع الكعبين، وعطر شانيل الراقى، ثم ظهرت كاترينا وهي منتعشة كأنها استيقظت لتوها، وقالت وهي تنظر في ساعتها الذكية:

- سبع دقائق.. كثير.. لا بد أن ندرّبك على سرعة رد الفعل.. مستر بسام لا يحب ردود الأفعال البطيئة.

ثم نصبت قامتها القصيرة، وشدت فوق جسدها قميصها الرسمي الأبيض، وقالت في هدوء:

- والآن سوف تقابلين مستر بسام.. وتذكري.. الدرس الأول هو...

- لا تتكلمي عندما لا يُطلب منك ذلك.

- ممتاز.. تتعلمين بسرعة.

ثم نظرت في عينيها نظرة لن تنساها أبدا ما بقيت على وجه الأرض، وقالت:

- الدرس الثالث.. لا تبوحى لنفسك بأي شيء قد تخافين أن يسمعه مستر بسام.. فحتى أنفاسك.. سوف يسمعها.

هزت ألبيا رأسها كأنها نقار الخشب، ثم مشت وراء كاترينا وهي منكسة الرأس نحو حجرة المكتب.

دقت كاترينا الباب في هدوء، فسمعت الصوت الجهوري الخشن

ينادي من الداخل:

- ادخلي يا كاتي.

ابتسمت كاتي عندما سمعته يناديها باسم التدليل، وهو ما فهمته
أبيبا من فورها، فتوارت وراء كاترينا وكأنها تحتمي بها.

وما إن دخلت حجرة المكتب، حتى غاصت قدماها في سجادة
فاخرة سميقة، وراحت -وهي تتعجب- تفتش عن أي بقعة مستعصية
في قلب السجاد.

لكن لم تجد أي بقعة.

- يسعد مساك مستر.

- يسعد مساك.. أين البنت الإثيوبية؟

- هنا معي يا مستر بسام.. هي خجولة قليلاً.. ولذلك هي مختبئة
خلف ظهري.

- خجولة.. كلهن يدعون ذلك في البداية.. وبعدها يسرقوني
ويراودنني عن أنفسهن طمعاً في بعض الدولارات.

بداية غير مبشرة.

هكذا قالت أبيبا لنفسها.

لكن الصوت الأجش الجهوري طردها من أفكارها كما طردها
السيدة الهندية الشمطاء.

- تعالي يا بنت.. اقتربي.

خرجت من خلف ماري، وهي لا ترفع عينيها من السجادة الفاخرة.
- انظري إلي.. فأنا أبدو أنيقًا أكثر من السجادة!

ثم ضحك ضحكة مجلجلة سخيقة، فضحكت كاترينا مجاملة في
لزوجته.

وهنا رفعت أبيبا عينيها نحو مصدر الصوت.
وكانت هي المرة الأولى التي ترى فيها سيدها الجديد.
بسام الأصيل.

عينان خبيمتان شبيهتان بعيون الشياطين، ترقدان خلف نظارة
طبية فاخرة ذات أذرع ذهبية، وقميص كتاني أبيض واسع يغطي
جسدًا هزيلًا قصيرًا، بينما بنطال أسود واسع ينحسر على ساقه
البيضاء المشعرة كساق الذئب، وحذاء أسود فخم يلمع في قدمه بلا
جوارب.

- شكرًا يا مس حداد.. اتركينا خمس دقائق.

- كما تأمر يا سيدي.

التقطت أذنهما ذلك التغير في لهجة بسام، وبالذات عندما نادى
سكرتيرته المخلصة باسمها الرسمي، والتغير في لهجة الفتاة عندما
غادرت المكتب.

وأغلقت الباب.

- ما اسمك؟

- أبيبا جيميريه.

- لست أسألك كي أستصدر لك جواز سفر.. أريد اسمك فقط.. والآن
لنعيد السؤال.. ما اسمك؟

- أبيبا.

ثم حولت عينيها إلى السجادة الفخمة.

نطق الاسم، وكأنه يلوكه بين شذقيه، ثم تناول سيجارًا فخماً
صغير الحجم من علبة خشبية أنيقة، وأشعله وهو لا يزيح عينيه عن
وجهها.

- ما معنى اسمك بالإثيوبية؟

- الوردية.

- إممم.. اسم جميل..

- أشكرك يا سيدي.

ردت بصوت مختنق خجول، بينما نفت بسام الأصيل دخان
سيجاره، وقال متابعًا:

- منذ متى وأنت في الخليج؟

- ستة أشهر يا سيدي.

- وكيف تتحدثين العربية بطلاقة هكذا؟!

- عملت في ليبيا سابقًا.. كنت عاملة نظافة في هيئة الـ...

- مفهوم مفهوم.

قاطعها بلا اهتمام، فاحمرت أذناها، واحتشد الدم فيهما.

- حسنا يا أبيبا.. أنا أعمل طوال النهار وطوال الليل.. لكني لن أناديك إلا عندما أحتاج إلى شيء من المطبخ أو أحتاج إلى تنظيف غرفتي.

هزت رأسها علامة على الفهم، فتابع كأنه يقرأ نشرة تعليمات أخرجها من علبة دواء:

- الغياب تأتي مكوية من المغسلة.. والطعام يأتي مطبوخًا من مطعم الكباب.. وطلبات البقالة يأتي بها أكبر علي.. ومواعيد الدواء ستخبرك بها كاترينا.. آه.. أحيانًا قد أحتاج إلى طبخ سريع.. لذا سوف تتعلمين كل الاكلات التي أجبها.. سيأتي الشيف مازن ليعلمك..

للمرة الأولى تبدأ الشعور بأنها تعمل، تعمل فعلاً لا تخدم أو تزيل البقع من السجاد.

- حجرة مكثبي لا يدخلها أحد وأنا خارجها.. إلا أكبر علي.. هل تعرفين أكبر علي؟

- لا يا سيدي.

نفث الدخان الكثيف من جديد، وراح يسعل في حدة، حتى كادت روحه تصعد لبارئها، فأشار لها نحو دورق ماء فخم يقبع فيه فسان من الليمون وورقتا نعناع، فهُرِعت نحوه مسرعة، وصبت كوبًا كبيرًا من الماء، ثم ناولته له.

جرع الماء في نهم، ثم ناولها السيجار، وأشار إلى المنفضة

الكريستالية بجواره، فأطفأت السيارة مسرعة، وتناولت كوب الماء من يده ووضعتة جوار الدورق.

تنهد وهو ينظر لها نظرة استحسان من خلف نظاراته بعينيه اللتين احتشدت فيهما دموع السعال.

- مفهوم يا أيبيا.

قالها كأنما لا ينتظر منها ردًا، ونهض من مقعده الوثير إلى مكتبه، ثم جلس خلفه وبذل نظارة القراءة، وقال من دون أن يرفع عينيه عن الأوراق:

- قهوة سوداء.

هزت رأسها، وهُرعت مسرعة إلى المطبخ لتحضر له القهوة.

وما إن خرجت من الباب، حتى وجدت كاترينا تنتظرها وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

- طلب قهوة؟

- نعم يا مس حداد.

- تعالي.. سأعلمك كيف تحضرين قهوة المساء.

- قهوة المساء؟!

قالتها متسائلة، فسحبته كاترينا من يدها كأنما تسحب بهيمة في مرعى، وقالت وهي تقودها إلى المطبخ:

- هناك قهوة الصباح.. وقهوة الظهيرة.. وشاي العصر.. وقهوة

المساء.. وعليك أن تتعلمي الفرق.. وحذاري أن تخلطي بينها.. مفهوم.
هزت رأسها كأنما تذكر نفسها، فلم تكن كاترينا تنظر لها أساسًا.
وفي المطبخ، أشارت كاترينا إلى كنكة تحضير القهوة.. وإلى ذلك
البرطمان المعدني الذي كُتب عليه بالإنجليزية «قهوة المساء»،
وقالت:

- والآن.. ملعقتان من هذا الوعاء.. وبلا سكر..

ثم ناولتها كاترينا وعاء فخاريًا صغيرًا، ثم تابعت:

- املئي هذا الوعاء بماء بارد.. ثم تضعينها على النار حتى تغلي.

وقفت أبيبا تحقق فيها وفي الوعاء ببلاهة، فعلت نظرة الاستنكار
في عيني السكرتيرة، وقالت صائحة:

- هل تنوين التقاط صورة لي؟! هيّا.. حضري القهوة.

أخرجها الصباح من حالة الارتباك، وراحت تبدأ في عمل القهوة.

وبدأت أول أيام حياتها.

في جنة بسام الأصيل.

(5)

قبل الجريمة بسنة

كل شيء في تلك المدينة المزدهمة يذكرها بمدينتها الأم.
كل شيء.

الزحام.. والأصوات الصارخة في الشوارع بلا داع.. والبرك التي
تنتشر بجوار الأرصفة عندما تهطل الأمطار.. والوجوه الجامدة
المتجهمة.

القاهرة.. قلب مصر الذي شاخ وأوشك أن يتوقف.

لا تذكر أبيبا متى وصلت إلى هنا مجرورة جزًا في ذيل سيدها
العراقي الغاضب صاحب الصوت الأجش..

لكنها تذكر جيدًا أن السنة الماضية لم تكن أفضل سنوات سيدها،
ولم تكن «الأعمال مزدهرة» كما تعود أن يقول لها وهي تضع قهوة
المساء أمامه على الطاولة الصغيرة، وتقف مطرقة برأسها مستمعة
-رغمًا عنها- إلى خواطره المسائية الهامسة، حتى ينتبه إلى وجودها
الباهت، فيأمرها أن تذهب إلى غرفتها، وألا تنسى أن تزيل رائحة
التوابل من فوق أظفارها الصفراء.

كان يمتلك أنف كلب.. وعيني صقر عربي كالتي كانت تراها في
الحديقة في الخليج.. وغريزة ذئب بري جائع.

لذا، ويوم شعر بأن الطعام في الصحراء الرطبة قد صار شحيحًا،
قرر أن يرحل إلى الوادي الخصب.

وفي ظرف خمسة أشهر، كان قد باع كل شركاته، وحوّل كل أمواله إلى خارج الخليج، وأنهى كل ما يربطه بالأراضي الصحراوية، وشحن أثاثه الأثير، وأحضر شركة متخصصة في أعمال النجارة المتطورة، كي تنزع باب القصر الخشبي، ثم استعان بشركة متخصصة أخرى كي تشحن الباب إلى المقر الجديد.

المقر الجديد لجنة بسام الأصيل.

أفاقت على صوت صراخ أحد الباعة الجائلين، فراحت تنظر حولها من النافذة مشدوهة كأنما كانت نائمة في سبات عميق، بينما اخترقت ضحكة جمعة السائق أذنها.. مصحوبة بسعلة متحشجة من أثر الدخان الرخيص.

- اسم الله عليك يا سمارة.. هل كنت شاردة؟

- قلت لك إن اسمي أبيبا.. ولا أحب اسم سمارة هذا.

أشاح بيده معترضًا، وأدار مقود المرسيدس السوداء وهو يضحك مدممًا بكلمات أغنية ما، كانت تغنيها مطربة نوبية رأتها أبيبا مرة في شاشة التلفاز الكبيرة.

- والله بحبك موت.. يا سمارة.

أدارت وجهها من جديد إلى الطريق، وراحت تراقب تغّير الوجوه والأشجار والأرصفة.

وما إن تحول الطريق إلى صحراء جرداء، وظهرت الحواجز المعدنية الصدئة، حتى أراحت أبيبا رأسها على الزجاج الداكن، ووضعت السماعات اللاسلكية الرخيصة التي اشترتها من سوق

صيني إلكتروني، وراحت تسمع تلك الترانيم.

«الرب يعرف أنك هنا

ويعرف أن الشر محيط بك

ارفعي يديك وابتهلي له

يبعد عنك الشر ويبعد عنك الأشرار».

ابتسمت أبيبا ابتسامة ساخرة باهتة.

كيف يبعد عنها الرب الشر والأشرار، وهي تعيش وسطهم؟!

بل يدها مغموسة في ماعون الشر، ومخضبة به مثل الحناء
الحمراء.

وتذكرت ما حدث، وما كان.

كيف بدأ كل شيء.. وكيف قرر صاحب الجنة أن يرحل إلى الأرض
المزدحمة.

وكيف بدأ الشر.

(6)

قبل الجريمة بسنة وستة أشهر

صوت جرس الباب يرن متلاحقًا.. مزعجًا.. في تلك الفيلا الفاخرة في أطراف المدينة الخليجية.

حتى إن سيدها راح يصرخ من غرفة مكتبه في غضب:

- افتحوا الباب أيها الغنم.. هل قطعت آذانكم؟!

راحت تركض مسرعة بحذائها الرياضي الخفيف، وهي ترد بصوت بالكاد سمعته:

- أنا متجهة إلى الباب يا سيدي.. أنا متجهة نحو الباب.

كان متعكر المزاج كعادته في تلك الأيام، وخاصةً بعد أن سمعته يصرخ على كاترينا غاضبًا، عندما جاءته بخبر خسارته لعقد حكومي دسم، كان يدر عليه نهرًا من العسل الخليجي المختلط بأموال النفط.

متى تعودت أن تتنصت على حوارات سيدها؟

لا تذكر.. لكنها أصبحت تأتي بالعديد من الأفعال الذميمة مؤخرًا.. ثم تركع على ركبتها ليلاً أمام صورة العذراء المباركة وهي تحمل وليدها المقدس، وتستغفر لسيدها السماوي كي يرحمها ويعفو عنها. وتعيد الكرة في اليوم التالي بلا توقف.

تقدمت نحو الباب الخشبي العملاق، ومدت يدها لتزيح القفل المعدني، ثم أزاحت الباب بيدها ليصدر ذلك الصرير الشبيه بأبواب

القلاع.

وخاطر أحرق يضرب رأسها.. بأن باب الجنة -بكل تأكيد- لن يُصدِر صريرًا كريهاً كهذا.

وخلف الباب.. رآته للمرة الأولى.

رجل أبيض البشرة.. رأسه أشبه ببيضة تحمل وجهًا.. وشعره القصير منحدر قليلاً من مقدمة رأسه ليصنع شكلاً شبيهًا بمثلث أسود يتوسط صفحة بيضاء.. تلمع بفعل بقايا زيت شعر رخيص.. وأسفلها يتلاقى حاجبان كثيفان.. وعينان ضيقتان ذكّرتا أبيبا بعيون الضبع الذي هاجمها يومًا وهي طفلة في ضواحي أديس أبابا.

وجسد يتضخم جذعه ويتضاءل أسفله.

ضبع على هيئة إنسان في قميص أبيض رخيص وبنطال أسود من الجينز ملتصق بفخذه الضامرتين.

الخلاصة أن كل ذلك أثار في أبيبا شيئًا من التقزز والخوف والرغبة في قيء إفطارها

- مَنْ أنت؟ ولماذا تدق الجرس بهذه الطريقة؟

ابتسامة زادت من ضيق عينيه واتساع جبهته اللامعة، وكشفت صف أسنانه المدبب غير المتناسق.

- هل المستر بسام موجود؟

سألها بإنجليزية كسيحة وهو يحرك يديه في الهواء بلا داعٍ، فأجابته بعربيته المميرة للضحك:

- لم تُجب عن سؤالي بعد.. مَنْ أنت؟

- محمود التهامي.. المحاسب.. قل لي له إن محمود التهامي يريد.

قطبت حاجبيها، وكادت تبدأ في رفع صوتها الرقيق، لولا أن صدح صوت كاترينا الحاد عبر الردهة:

- اتركيه يا أبيب.. واذهي لتكملي عملك.. ولا تنسي قهوة الضيف.

مسح محمود حذاءه الملطخ بطين الحديقة في دواسة الباب الخشنة، وتقدم عابراً من الباب الخشبي العملاق، وهو يحدق لأول مرة في زخارفه وإطاره الذي تفوح منه رائحة الصندل.

- مساء الخير يا مس كاتري.. هل الرئيس في مكتبه؟

- أخبرتك من قبل أن تتوقف عن تدليلي بهذا اللقب المقزز.. وأن تتوقف عن وصفه بالرئيس..

تجعد جبينه العريض في ضيق.. وأشاح ببصره ناحية باب المكتب نصف المفتوح، ثم أشار بيده مستثذناً، فأزاحت كاترينا جسدها الممشوق لتفسح له فرجة تليق بابن عرس يتسرب إلى عشة دجاج.

وعندما عبر بجوارها، أمسكت بذراعه في قوة فزعت لها فرائصه وهمست من بين شفتيها المصبوغتين بلون قرمزي:

- أين الفتاة؟

- سأقابل الرئيس أولاً.. ثم...

- أنت لا تضع الشروط هنا يا محمود.. بل أنا من أضع الشروط هنا..

وما عليك إلا أن تمتثل.

ارتسم على وجهه ذلك التعبير الكرتوني.. الشبيه بابتسامات ضباع
فيلم الأسد الملك.

- اهدئي يا كاتري.. ستأتي الفتاة.. وسيأتي كل شيء جميل.. لكن..
بعد أن أقابل الري... أقصد مستر بسام.

أفسحت له الطريقة وعلى وجهها تعبير جمد الدم في عروق أبيبا،
إلا أن الضبع المكسو بقميص أبيض لم يهتم لها كثيرًا.

فهو الآن يعرف سر عصبيتها، وسر غضبتها.

والآن يلعب بشروطه هو فقط.

سيمر عبر البهو الرخامي الأنيق.. ويمشي على قدميه إلى مكتب
الأصيل، وسيجالسه ويشرب من شايه السيلاني الفاخر، بل سيحكي
له عن مغامراته وصولاته وجولاته.. وكيف بذل من جهد عظيم في
تحصيل أمواله التي احتجزها عملاؤه زورًا وبهتانًا و... وكيف أنها لم
تكن لتعود إلى خزائنه العامرة إلا بفضل مجهوداته وخدماته.

- والآن.. سوف أقابل المستر أولًا.. ثم أعود إليك لتباحث في أمر
مهم..

ثم التفت بنصف وجهه إلى أبيبا وقال بصلف لم ترَ له أبيبا سندًا
في هيئته:

- شاي يا سمارة.. شاي سكر زيادة.

لهجته ليست شامية مثل فراس.. وليست لبنانية مثل كاترينا..
وليست سودانية كلهجة مَن علموها العربية.

وليست عراقية مفخرة كلهجة سيدها.

إذن فهو ببساطة..

مصري.. مصري بكل تأكيد.

وكان هذا لقاءها الأول بمحمود التهامي.

ولكنه لم يكن اللقاء الأخير.

- اسمي أبيبا وليس سمارة.

- زبيبة.. اسمك زبيبة.

- اسمي أب....

- كفى.

صرخت بها كاترينا بصوت حاد مرتفع، ثم همست من بين أسنانها
في تقرُّز كأنها توشك على بصق الكلمات:

- اذهبي يا أبيبا وحضري الشاي.

التفت التهامي ناحية أبيبا، ورماها بنظرة فاحصة وقحة مقتحمة..
حتى شعرت وكأنه يمزق ثيابها من فوق جسدها النحيل.

- طب ما البنت يجي منها يا كاتري.. أم أنك لا تفضلين إلا الأوربي؟

- تهامي.. ابلع لسانك وإلا اقتلعته من منبته وحشرته في مؤخرتك.

- خيالك مريض.. لكنه مجنون.. وأنا أحبه.

ثم أشار إلى أبيبا بإصبعه الغليظ متابعًا:

- لا تنسي الشاي يا زبيبة.. سكر زيادة.

ثم مسح وجهه حذائه في بنطاله القذر، ومشى متقدماً من باب المكتب، ونقره في هدوء مبالغ فيه وهو يتنحّج، فجاءه الصوت الغليظ من داخل الغرفة:

- ادخل يا تهامي.

عبر الباب مسرعاً، ثم أغلقه خلفه في سرعة.

- أبيبا..

- نعم يا مس حداد.

- تعالي إلى هنا.

جرت قدميها ناحية كاترينا وهي تطرق رأسها كطفل في الغامنة أغضب مُدرسته.

- نعم يا مس حداد.

- ما رأيك فيما سمعته من هذا... التهامي؟

- مس حداد.. أعتقد أن الدرس الثالث يقول...

قاطعتها كاترينا بإشارة من يدها، وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، ثم ربت على وجهها كزعيم عائلة مافيا يبارك تابعه المخلص:

- اذهبي يا صغيرتي.. وآتية بالسم كي يشربه.

- أمرك يا مس حداد.

ثم التفتت ناحية المطبخ، وراحت تمشي متباطئة مستمتعة..

عينها لامعتان وابتسامتها تكشف عن أسنانها ناصعة البياض.. وهي
تهمس:

- من الآن وصاعدًا.. لن تصبح أبيبا أمة لأحدهم.. سوى سيدها
العجوز.. سيدها العجوز فقط.. يا كاتري.

نطقها مثل ذلك الوغد المصري.

ثم اتسعت ابتسامتها في سخرية.

(7)

قبل الجريمة بسنة وثلاثة أشهر

- أبيبا.. أبيبا.. أنت أيتها العجفاء اللعينة.

سمعت صرخات سيدها تدوي في قلب المنزل من خلف باب مكتبه الأنيق، فهُرِعت راکضة في خفها البلاستيكي محدثة قرعًا متخبطًا فوق الأرضية الرخامية الناعمة.

السيد بسام الأصيل ليس في مزاج جيد منذ شهرين.

صارت الأعمال غير جيدة كما يقول.. وصار يخسر العديد من الصفقات التي كان يربحها بمكالمة هاتف بسيطة أو دعوة على العشاء في أحد المطاعم الفاخرة.. والتي يملك ثلاثة منها على الأقل..

أو كان يربحها بزيارة من كاترينا إلى العميل المطلوب.

وصارت زيارات ذلك التهامي كثيرة.. ولحظاته مع المستر تتحول إلى ساعات.. وصارت ملابسه أكثر نظافة وأكثر أناقة.. بل إنه اشترى سيارة جديدة.

كيف تكون الأعمال غير مزدهرة إذن؟ وكيف تتناقص ثروة الأصيل.. بينما خادم بيت ماله يشتري سيارة جديدة؟!

- هل أصبت بالصمم يا امرأة؟!

قرعت أبيبا الباب نصف المفتوح، ودخلت المكتب مسرعة وهي تطأطئ رأسها وتحقق في السجادة الإيرانية السميقة، وقدمها

تغوصان فيها.

كما غاصت قدماها في هذا المستنقع.

طوال الثلاثة أشهر الماضية.. ومنذ أن اكتشفت بعضًا من أسرار السيدة ممشوقة القوام.. والأسرار تواصل الكشف عن نفسها وكأنها قطع دومينو تتساقط خلف بعضها.

- أريد قهوة سوداء.

نظرت أبيبا إلى الساعة ذات الإطار المذهب المعلقة فوق مكتبه، والتي تشير عقاربها إلى العاشرة صباحًا.

هذا موعد قهوة الصباح، والتي تتكون من جرعة 40 مللي من الإسبريسو و100 مللي من الماء و50 مللي من الحليب كامل ال...-

- هل أصبت بالصمم من جديد أيتها السوداء العجفاء؟! قلت أريد قهوة سوداء.

- لكن يا سيدي.. هذا موعد قهوة الصباح.

لم تكن تتم حروف عبارتها المرتعشة، حتى احمر وجهه الصغير، وانتفشت عروق رقبتة المتجعدة كسلحفاة عجوز.

العاصفة قادمة يا أبيبا!

- هل جئنت يا امرأة وأصبحت تملين عليّ ما أشربه؟! قلت أريد قهوة سوداء.. إذن.. هي قهوة سوداء.

ارتعشت ساقاها النحيلتان داخل البنطال القطني الواسع، وهبطت عيناها إلى قدمي سيدها المغروستين في قلب السجادة السميقة.

- أمر سيدي.. قهوة سوداء.. قهوة سوداء.

- واجعلها أسود من مؤخرتك المنتفخة.. هيّا.. أسرع.

صوته أجش حاد كذلك الممثل الأجنبي الذي شاهده يصرخ على شاشة التلفاز الكبيرة ذلك المساء.

كان قصيرًا كسيدها، حاد الملامح مثل، بارد النظرات، تقتحم عينيه كل تفصيلة في جسد من يُحدّثه.

راحت تُعد القهوة السوداء من برطمان معدني كُتب عليه «قهوة المساء»، ثم حثت السير عائدة إلى مكتب سيدها الهادئ في تلك الساعة من النهار.

- القهوة يا سيدي.

- ضعها هنا.. واجلسي.

تجلس في حضرة بسام الأصيل!

كيف؟!

للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات.. منذ أن صحت من غفلتها وهي عارية للمرة الأولى فوق فراشها البارد في غرفة الخادمة.. يطلب منها سيدها المبجل أن تجلس.

افترشت الأرض فوق البساط السميك، وربعت ساقيها حتى غاصت مؤخرتها المستديرة داخله، وراحت تُحدّق في أصابع قدميها المطلية بلون بني رخيص تشققت أطرافه.

- هل تعرفين لماذا صرت أخسر الأموال مؤخرًا يا صغيرتي؟
لفتة منها إلى القهوة على غير إرادتها، لتتأكد من أنها قهوة وليست
شيئًا آخر!

هل ناداها الأصيل بصغيرتي منذ قليل؟!

- لا أعلم يا سيدي.. فأنا لا خبرة لي بالتجارة.

خرجت الكلمات مرتعشة خافتة، إلا أن الأصيل سمعها واضحة
جلية.

فهو يسمع كل شيء ويعرف كل شيء.

- لست بحاجة إلى أن تكوني خبيرة لتعرفي ذلك يا أبيباً..

ثم رشف رشفة كبيرة من كوب القهوة الساخن بلا أن تطرف له
عين أو تهتز فيه شعرة.

- لأن من حولي يسرقونني.. ويبالغون في سرقتي.. حتى صاروا
كمَن يعبون من جبل.. وعندما نفذ الجبل.. صاروا يحفرون الأرض
تحتة.

لم يستوعب عقلها الصغير كلماته المتلحمة المتأثرة بمزاجه
الصباحي السيئ.

لكنها فهمت أن من حوله يسرقونه.

وإلا لماذا صار هذا التهامي أكثر أناقة وأكثر نظافة من ذي قبل؟

- ولماذا لا تسلمهم للشرطة يا سيدي؟

- ثم...

- ثم تستبدلهم بأناس أكثر أمانة لا يسرقون منك.

ارتفعت ضحكته تدريجية تمثيلية مبتذلة - كما بدت لأبيبا- ثم خفتت كما بدأت.

ممثل مسرحي قديم على وشك إلقاء مونولوج درامي.

- يا ليت الحياة كانت بهذه البساطة يا فتاة.

لم تعرف بما تجيبه.. فهو صاحب المال.. وصاحب التجارة.. وصاحب كل شيء.

وكانما قرأ أفكارها كالعادة.

- نعم، أنا صاحب المال.. وأنا صاحب التجارة.. وأنا من يملك زمام أرواحهم وأرزاقهم.. لكنني لا أقدر على طردهم من جنتي بهذه البساطة..

ثم انحنى وهو يقرب وجهه الحاد من وجهها المنكسر المطأطئ نحو البساط السميك، وهمس بصوته الممتلئ بأثر سيجار فاخر، وبقايا كحول عالق من سهرة أمس.

- هؤلاء هم أذرعى وأرجلي.. ملائكتي وقت الإحسان.. وزبائيتي وقت الغضب.. أدخل بهم من أريد إلى جنتي.. وأقصي بهم من أريد إلى جهنمي.. هؤلاء مثلهم مثل البكتيريا في كوب اللبن.. هم من يساعدون معدتي المنتفخة على طرد الفضلات منها.. مقابل أن يأكلوا قليلاً مما أكل.

- لكنهم صاروا يأكلون الكثير يا سيدي.

نظر نحوها نظرة استحسان قلما رأتها على وجهه مؤخرًا، ثم وضع ساقًا نحيلة فوق ساق أكثر نحولًا، وخفت صوته حتى صارت بالكاد تسمعه.

- لكنني لا ألوم عليهم.. فعندما كنت مثلهم.. مجرد عبد في ملكوت سيدي.. كنت أنتظر الفرصة كي يغفل سيدي أو ينام.. حتى أنقض على كوب حليبه.. فأنهم منه ما يكفيني.. حتى إذا جاءني لحظة الحقيقة.. أكون قد شربت منه ما يكفيني..

ثم احتضن كوب القهوة كمراهقة في ليلة شتوية، وسرحت عيناه الضيقتان من خلف نظارته مذهبة الإطارات.

- وعندما حانت اللحظة.. وقرر السيد أن موعد العقاب قد حان.. تحسنت اللحظة المناسبة.. وقفزت من علياء جنته إلى جحيم الأرض.. وهربت.. هربت كفرخ صقر يهرب من مخالب حدأة.. وبنيت عشي.. وجلست فيه أنتظر لحظة أن ينمو جناحي.. حتى أنقض على الحدأة.. فأقضي عليها.. وأحصل على فراخها غنيمة لي.. حتى أربيها أسفل جناحي.. وأجعل منها أسلحتي التي أصطاد بها أعدائي.

هزت رأسها مؤمنة على كلماته من دون أن تفهم نصفها.

فهي لم ترَ صقرًا في حياتها.. وكل ما تعرفه عن الحدأة أنها تصطاد أفرخ الدجاج من فوق أسطح البيوت في وطنها.

وهي دجاجة مرتعشة عجفاء.

- وصرت أنشر الحذاء في كل مكان.. حدأة تصطاد الأفرخ.. وحدأة

تصطاد النسر بأصباغها.. وحدأة تصطاد أكياس الغلال.. وحدأة
تخدش وجه من أريد أن أحذره فقط.. وفي النهاية.. تأتيني حدائي
بالغنائم في عريني.. عرين الصقر الأصيل.

هزت رأسها من جديد.. وصمتت منتظرة أن يكمل اعترافاته
الصباحية.

لكنه صمت.

- لكن الحداء يا سيدي.. صارت تسرق الغنائم ولا تأتي بها إلى
العش.

- آها.. لذلك.. لا بد أن أعاقبهم.. حتى إن ظن أحدهم أنه صقر
متخف في ريش حدأة.. نتفت له ريشه..

وضع كوب القهوة فوق الطاولة، وأمسك هاتفه المحمول الكبير،
وراح يضرب شاشته بكلمات لم تتبينها.. فهي تتكلم العربية ولا
تقرؤها.

ثم وضع الهاتف فوق الطاولة، وعقد كفيه المتغضنتين قصيرتي
الأصابع فوق كرشه الصغير.

- والآن.. ننتظر العقاب.. ليهبط فوق رءوسهم..

ثم أغمض عينييه وأراح رأسه على مسند الرأس.

- الآن تحل غضبتي عليهم.. الآن تحترق أجنحتهم.

ثم انتظمت أنفاسه على صوت تنبيهات الردود.

وبقيت أبيبا جالسة فوق البساط السميك، تنتظر الإذن بالرحيل من

سيدها الغائب في سكرة نوم جديدة.
لكن الإذن لم يأتِ.

(8)

قبل الجريمة بشهر ونصف

صارت تكره كل هذا.

الزحام، ضيق الحال.. ديون سيدها المتراكمة.. والتي تحولت بالتبعية إلى ديون متراكمة عليها هي.. وصارت لا تقدر حتى على إرسال قروش قليلة لعائلتها التي تتغذى على فتات ما تأتي به من خدمتها لسيد الجنة.

السيد الذي هرب بعد أن أحرق أجنحة الحذاء.. ومزق أطرافها.. وألقى بها فوق الجبال السبعة.

لكنه عندما دعاها كي تأتيه سعيًا.. لم تأتِه.

بل أتاه صقر آخر.. يرتدي الثوب والفترة والعقال.. وراح ينهش في رقبتِه هو.. رقبة السيد الكبير.

وانتهى صراع الصقور بنهاية توقُّعها الجميع.

وأصبح واجبًا وإلزامًا على الصقر العجوز.. أن يبحث عن عرين آخر. وبناءً على نصيحة كاتمة أسرارهِ الشمطاء.. وخادم بيت ماله المنحني لعلياء سيده.. قرر أن يرحل إلى أرض الفرص.

إلى الزحام.. والعشوائية.. والفرص الضائعة.. والكاتب الجالس القرفصاء فوق حجر منحوت.. والمال السائل بين أطراف الكبار كأنهار العسل.

إلى أرض جديدة.. تصلح لمن هم على شاكلته كي يبني فوقها
جنته الجديدة.

جاءها منهزماً.. مكسور الجناح.. راکفاً على ركبتيه معلناً هزيمته..
لكن العجوز اللعوب احتضنته.. وربتت على رأسه.. وفتحت له أبواب
خزائنها.

كانت تسمعه يصرخ.. ثم يضحك.. ثم ينهنه كالأرامل.. ثم يضحك
من جديد.

ومؤخراً.. كانت ترى فتيات في أعمار أحفاده.. يأتي بهن ذلك الوغد
واسع الجبين ضيق العينين.. ثم يرحل.. ويضاف إلى أذنها صوت
جديد..

صوت يكاد يمزق أذنها.

«نجنا من الشرير».

كانت تهمس بها أمام صورة العذراء ووليدها المقدس، ثم ترسم
الصليب فوق صدرها وثقبّل طرف سبابتها.

وتظن أن الرب يستمع إلى مناجاتها.

حتى أتى اليوم.

في مساء خريفي هادئ.. كانت تحمل صينية فضية، وتتقدم إلى
غرفة مكتبه، وهي لا تخفي دهشتها المكررة من تطابق هذا القصر مع
قصره القديم في عرينه الخليجي الحار.

نفس الحوائط ونفس الأبواب ونفس الأثاث.

نفس الباب الخشبي الأنيق، ونفس المقبض المطلي بماء الذهب.
نفس الحديقة ونفس الباب الخشبي المزخرف الذي تفوح منه
رائحة الصندل.

حتى إن محمد رضوان.. الحارس الهندي وخادم الحديقة الغنّاء..
قد استبدله بنسخة مصرية منه.

وكانه حمل العش بين أجنحته ونقله إلى عرينه الجديد.
لكن الحذاء قلّت مؤخرًا.. وصار لا يعتمد إلا على حدّاته الملطخة
بدماء العذراوات والغراب واسع الجبين ضيق العينين.

صار لا يثق إلا في كاتيا والتهامي.

وصارت هي.. السوداء العجفاء.. كاتمة أسرارهِ واعترافاته المشينة
في لحظات الشكر ولحظات الصحو.

أبيبا جيميريه.

لم يُنَجِّها الرب من الشرير.. بل جعلها نديمته وخادمتها.

قهوة المساء السوداء تتصاعد منها الأبخرة من فوق الصينية
الفضية، ورائحة مسك خفيفة تتصاعد من رقبة أبيبا اللامعة إلى
أنفها مختلطة برائحة الهيل في القهوة السوداء، صانعة مزيجًا خاصًا.

عينا أبيبا تلمعان من فرط السعادة، فتلك على ما تبدو ليلة جديدة
من ليالي سيدها الطويلة، حيث يحكي فخّرًا عن ذكرياته وليالي
فقره المدقع في حوارٍ البصرة.. وكيف أصبح فارسًا من فرسان
الشارع الأقوياء وهو بعد في عمر المراهقة.. ثم يحكي لها في فخر

كيف باع أول قطعة آثار إلى تاجر أمريكي نهم.. وكيف تحول إلى المعلم بسام الأصيل..

كل هذا في فخر شديد.. كأنه طفل فخور بنجمة فوق كراسة الحساب.

ثم يبتسم ابتسامة استحسان من طعم القهوة القوية، ويربت على وجه أبيبا الرابعة إلى جواره فوق السجادة السمكية، ومن دون سابق إنذار، يسقط رأسه على صدره غائبًا في نوم عميق.

تقدمت منه، ووضعت الصينية فوق الطاولة الصغيرة، ثم وقفت مطأطئة رأسها تنتظر كلماته اليومية المعتادة:

- اجلسي يا أبيبا.

تفترش الأرض راحة على ركبتيها فوق البساط السميك، لكن بقعة داكنة أسفل ركبتيها تزعجها.

بقعة لم تكن هناك من قبل.

راحت تحاول فركها بطرف إصبعها بينما يتصاعد صوت ارتشاف القهوة.

ثم يتلمظ سيدها:

- قهوة جميلة.. ومختلفة.

نفس كلماته بالحرف كعادة لياليه الأخيرة كلها.

البقعة تزعجها وتثير سخطها.

- اسمح لي سيدي.. سوف أحضر الأدوات لأنظف هذه البقعة.

- أي بقعة؟

رفع كوب القهوة إلى شفتيه وهو ينظر نحوها بعين نصف غائمة، وهو يلوك قطعة الأفيون الرابضة أسفل لسانه.

- هذه البقعة.. إنها.. إنها تُفسد مظهر السجادة.

نظر إلى البقعة في لا مبالاة.. وسحب رشفة جديدة بصوت مرتفع.

همت لتنهض، لكن يده الحرة أمسكت بذراعها تمنعها من الحركة.

ارتعش جسدها.. وسرت فيه الكهرباء.

واخترق الصوت الأجش أذنها حتى ضربت نبراته ستار سلامها النفسي.

- اجلسي.. ودعي البقعة اللعينة مكانها.

لم تلتفت نحوه.. لا تدري لماذا؟!

ربما لأنها خشت ألا تحب ما ستراه في عيني سيدها العجوز.

- لكن البقعة إذا جفت.. فلن أستطيع أن...

- لا.. سوف تستطيعين.. فدماء العذراوات لا تترك أثراً.

ارتعش جسدها.. وحاولت تخليص يدها في رفق من قبضته العظمية.

لكنه واصل الكلام بنفس النبرات التي صارت تمزق ستار سلامها النفسي الهش.

- هذا المبتدئ الساذج.. يأتيني بعذراء.. عذراء يا أبيبا.. وهو لا يعرف أنها عذراء.. ولا يعرف أنني لا أحب العذراوات ولا أحب خوفهم وارتعاشة أجسادهم ودماءهم التي تلوث سجادتي.. ثم يأخذ الأموال وهو يبتسم كالضباع.. يسرقني.. هذا الوغد المصري يسرقني.

قبضته العظمية النحيلة تشد فوق ساعدها.. حتى كادت تحفر مكان أصابعه فوق لحم ساعدها الشحيح.

ثم بدأ يجذبها نحوه.

«نَجْنَا من الشرير».

راحت تهمس بها مرتعشة، ويده تجذبها مقربة وجهها الأسمر اللامع من وجهه المتغضن المتبلد.

وأنفاس سيدها المحملة بأثر دخان السيجارة والكحول ورائحة الأفيون تخترق صدرها.

- هل أنت عذراء يا أبيبا؟

- نعم.

نطقتها بحروف متخبطة مرتعشة.. نطقتها وكأنهم يقتادونها إلى مصطبة علقت فوقها أنشودة من حبل خشن.

- اصدقيني القول يا امرأة.

- أقسم لك إنني...

- لا أصدقك.

ثم أدار جسدها نحوه.. وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة.

- قلت لي إن اسمك يعني الوردية.

اختنقت الإجابة في حلقها.. وراح جسدها يرتعش كالمحمومة.

وهو لم يكن ينتظر منها إجابة على كل حال..

لم يكن ينتظر.

(9)

صباح اليوم الثاني بعد الجريمة

صمتت أبيبا فجأة.

صمتت كأنما لم تكن تتكلم طوال ست ساعات.

صمتت وعيناها تمتلئان بالدموع التي أوشكت على السريان كماء يفيض من سد متهدم.

صمتت ويدها تقبضان على المنديل الورقي.. وهما ترتعشان.

- وكم مرة حدث ذلك يا أبيبا؟

نظرة استنكار علت وجهها البريء، واحتشدت معها المزيد من العبرات على ضفاف عينيها.

وفطنت أنني أسألها عن الأمر، وكأنني أسألها عن عدد المرات التي غسلت فيها أسنانها كل يوم.

رجل آخر متبلد الأفكار، متوحش، ممل كمثل سيدها الراقد على طاولة المشرحة الباردة.

لم تُجب عن سؤالي، ولم أكرره.

رشفت من قهوتي السابعة في تلك الليلة الطويلة، ثم رحت أعب الماء كمسافر ظمآن، ومسحت فمي بباطن يدي.

بعض القصص لا يجب أن تُروى.

- تمام يا أبيبا.. قلت لي إنك وجدتي جثته مساء أول أمس واقعة

ممددة فوق السجادة السميكة في غرفة مكتبه.. وكما فهمت من
حكايتك.. كان هذا عندما تأتين له بقهوة المساء.. هل هذا صحيح؟

هزت رأسها بلا رد، فابتسمت ابتسامة باهتة سخيفة، كمحاولة
فاشلة لجعلها تهدأ قليلاً.

محاولة لإيقاف انهيار السد.

- وماذا فعلت بعدها؟

مسحت طرف أنفها بالمنديل الورقي الغارق في الدمع والمخاط.

- وضعت الصينية الفضية فوق الطاولة الصغيرة.. وهزته برفق
حتى أوقظه..

- توقظينه؟! وهل تعود سيدك النوم على وجهه فوق السجادة؟!

- كان ينام في أي وقت وفي أي مكان بلا إنذار.. فظننت أنه يجرب
نومة جديدة.. لكنني لاحظت البقعة.

ثم راحت ترسم بأصابعها دوائر كبيرة في الهواء.

- بقعة كبيرة.. كانت أسفل جسده.. بقعة غامقة ما زالت طازجة..
مثلها مثل بقعة ال... ال....

ثم صمتت كأنها تبحث عن تعبير مناسب لم تسعفها لغتها العربية
الركيكة كي تعثر عليه.

- كأنها بقعة دم لثور مذبوح.

قالتها بحروف غُمست في مزيج من الخجل والحزن والتشفي

والرهبة.

ثم رسمت صليبا مرتجلا فوق صدرها.

وعادت تقبض بكلتا يديها فوق المنديل الورقي.

- أسفل جسده أم بجوار جسده؟ تذكرى جيدا.

- لا يا سيدي.. أسفل جسده.. أنا متأكدة.. حتى إن السكين الطويلة كانت بجواره

- أي سكين يا أبيبا؟ الشرطة لم تجد أي سكاكين بجوار جثته

- أقسم لك يا سيدي إن السكين كانت إلى جواره وقت وجدته.. حتى إنني كنت أصرخ بلا انقطاع من مظهرها المخيف.

ربما إذن اختلط الأمر على ناصر، وعلى رجال البحث الجنائي، وعلى أنا شخصيا.

أو ربما انتشرت البقعة لاحقا بجوار جسده.

هل جفت الدموع في عينيها، أم أن أثر السهر المتواصل قد جعلني أتخيل ذلك؟

- ثم اتصلت بالشرطة؟

متسائلا مشتتا مضطربا، قلتها وأنا أفرك عيني المنتفختين.

- لا.. اتصلت بميس كاترينا.. وهي من جاءت مع التهامي.. ثم طلبت مني أمرة أن أغادر الغرفة وألزم حجرتي بجوار المطبخ.. فركضت باكية إلى غرفتي وأغلقت علي الباب.. ورحت أصلي للرب كي يغفر

له خطايا.. ثم بعد قليل سمعت صوت رجال الشرطة.. وأخرجني أحدهم من الغرفة.. وراح يسألني عن سيدي وعن الوقت الذي وجدته نائمًا في دمه.. ثم طلب مني أن أبقى متيقظة حتى إذا أرادوا مني شيئًا.

غمغمت بكلمات لم أفهمها، وهزئت رأسي مؤمنًا على أشياء لا أعرفها.

لا بد أن تنام يا كمال.. لا بد أن تنام.

رفعت سماعة الهاتف الأبيض الصغير بجواري، وضغطت ثلاثة أرقام ليصدر صوت رنين متواصل.

ثم صوت ناصر الناعس، المحمل بأطنان من عناصر النوم.

- هل نمت يا حضرة الضابط؟

- غفوت قليلًا.. فالبشر يحتاجون إلى النوم من وقت لآخر..

حتى وهو نصف نائم.

- حسنا.. لقد انتهينا اليوم.. تعالْ وخذ أبيبا إلى الحجرة المجاورة..

ستبيت ليلتها في الحجرة الملحقة.. ثم غدا ننظر في أمرها.

نظرة امتنان علت وجهها النحيل.

نظرة تعاكس صوت ناصر الساخط.

- ولماذا لا تنام في الحجز مثل غيرها؟ أنسيت أنها مشتبه بها؟

- أراك تناقشني كثيرًا هذه الأيام.. وأنا لا حمل لي ولا طاقة لهذا

الجدل البيزنطي العقيم.. لذا نُقِّذ التعليمات.

صمت.. وتصاعد صوت أنفاسه الثقيلة عبر الهاتف.

- واذهب أنت قليلاً كي تنام.. ولا تنس أن تأتني غداً ببقية المشتبه فيهم.

- جميعهم؟

قالها مبتورة ساخطة.

فأجبتة ببرود لم أجده يوماً:

- نعم.. جميعهم.. أريد تسليم محاضر التحقيق وترحيل مَنْ نريد ترحيلهم إلى النيابة قبل المساء..

- ولم العجلة؟ ألا تريد أن تأخذ وقتك في الـ...

قاطعته بصوت أزال قناع البرود من فوق وجهي المنتفخ:

- أريد الانتهاء من هذه القضية في أسرع وقت.. في أسرع وقت يا ناصر.

- لماذا تُكرِّر المقطع الأخير من كلماتك؟ لسنا في رواية بوليسية تشويقية.. على العموم.. هناك ملف نائم فوق مكتبي الآن.. به بعض الأوراق التي أتى بها خبير الأدلة الجنائية من خزانة المجني عليه.

- وهل أصبح الحلواني خبير فتح خزائن هذه الأيام؟

صدرت منه ضحكة مبتورة قصيرة، ثم أجاب:

- الحلواني لم يفتح الخزانة في الواقع.. لكن لأن عينيه الواسعتين

تلتقطان كل شيء.. وجد باب الخزانة المغلقة لا يبدو مغلقًا كما يجب.. وبعد أن رفع البصمات والتقط كل شيء من فوق الباب.. أزاحه ليجد داخلها ملفًا صغيرًا به بعض الأوراق.. وعندما جاءوا به إليّ.. فكرت في أن تلقي عليه نظرة.. خصوصًا قبل أن تستجوب المحاسب والسكرتيرة.. كمال باشا.. هل تسمعي؟ أما زلت هنا؟

وكانت هذه آخر كلمات سمعتها من ناصر في تلك الليلة.

ببساطة لأنني وضعت السماعة في هدوء.

ومنحت أبيبا ابتسامة مرهقة.. ظلت ترتسم على وجهي حتى خرجت من جندي الخدمة.

وحتى خرجت أنا إلى سيارتي العجوز النائمة.

وذلك السؤال يدور في رأسي كدولاب مسن السكاكين.

لماذا تغير مكان البقعة بجوار الجثة؟

لماذا؟

وظل الدولاب يدور في رأسي، حتى غفوت فوق المقود.

الفصل الثاني

محمود التهامي

(1)

ظهر اليوم الثاني بعد الجريمة

حليق الوجه.. واسع الابتسامة.. منتعش كالمصيبة.

وقف ناصر أمام مكتبي.

- من الواضح أنك تمتعت بنوم عميق للغاية.

- من الواضح فعلاً.. ألا ترى علامات مقود السيارة على وجهي؟

كاد يصرخ في وجهي قائلاً إنه يسخر مني، لكنه آثر السلامة اتقاءً
لشر خلقتي غير المهندمة غير النائمة.

لماذا لم أذهب إلى المنزل لأرتاح قليلاً؟

سأجيب بنفس الإجابة التي لا أملك سواها، والتي لم تقنع عائشة
زوجتي هذا الصباح.

- القضية مهمة يا عائشة.. مهمة لدرجة أن الوزير شخصياً يتابعها..
هذا بسام الأصيل بنفسه.

- بسام الأصيل منتج أفلام الخلاعة والراقصات.. وراعي حفلات
المجون والخلاعة.. هذا الرجل أصبح يفسد كل ما تطأه قدماه منذ
أن دخل هذا البلد.. من الجيد أن الموت أصبح يحسن انتقاء ضحاياه.
ابتسمت ابتسامة باهتة.. للمرة الأولى ابتسم منذ أيام.

- من المفروض أن تمنحوا ذلك البطل وساقاً.. تقديرًا للعمل العظيم.

- للأسف.. لا يمكنني منح الأوسمة للقتلة أيًا كانت مبرراتهم.. حتى

وإن كان القتل هو بسام الأصيل.. وأنتِ خصوصًا تعرفين كيف يعلج هذا صدي أنا تحديدًا.

- لا يعلج صدرك إلا رؤيتك لعدالتك المزعومة تتحقق.. أليس هذا بسام الأصيل الذي لا تتوقف عن التحدث عنه وعن فسادِه منذ أن...

ثم صمتت وسمعت صوت مصمصة شفاه عبر سماعة الهاتف المحمول قبل أن تتابع:

- حاول أن تأكل شيئًا على سبيل الإفطار.. فأنت لا تأكل جيدًا هذه الأيام.

- الساعة الثانية عشرة والنصف.

- إذن على سبيل الغداء.. أو أي سبيل.. المهم أن تأكل..

ثم رحنا نتجادل كالعادة في أمور الأطفال والمنزل والسوبر ماركت وسعر اللحم والخضراوات في بورصة سوق العبور.

ومن جديد أنا هنا فوق الكرسي الجلدي المهتز.. خلف المكتب الخشبي مهترئ الحواشي.

أنظر إلى ناصر بنصف عين.

- هل ذلك المحاسب موجود بالخارج؟

- تقصد.. السيد مدير حسابات مجموعة الأصيل؟

قالها بطريقة آلية ساخرة، كأنه يقدم مسئولًا في اجتماع مجلس إدارة.

- أيًا كانت صفته.. أجب عن سؤالي بالله عليك.. فروحي تقف على طرف أنفي مستعدة للخروج في أي لحظة.

- بالتأكيد يا كمال باشا.. أنت طلبت حضوره.. وطلباتك أوامر.

- إذن أدخله وأغلق الباب علينا.. وائتنا بكوبَي شاي من دون سكر..
أسرع أيها المتحذلق.

- ألم أقل لك؟ طلباتك أوامر.

خرج ناصر بعد أن أدى تحية كوميدية مرتجلة، ثم سمعت صوت الباب يدق في هدوء.

وعند صيحتي المختنقة، طالبًا الواقف خلف الباب بالدخول، دخل التهامي إلى الغرفة.

عندها فقط عرفت أن تلك الفتاة الإثيوبية قوية الملاحظة إلى أبعد الحدود.

عينان خبيثتان ضيقتان.. تلمعان في جشع غير مبرر.. وفم منتفخ يليق بغوريلا.. وجبهة عريضة مقطبة كأنما وُلد بها.. وشعر رأس خفيف انحسر من المقدمة تاركًا ذلك الجبين يلمع من أثر عرق دهني لزج.

تشاغلت بالنظر في ملف ورقي أمامي، وسألت بلا مبالاة:

- اسمك بالكامل.. وسنك ومهنتك؟

- محمود أحمد بدران التهامي.. 38 سنة.. مدير حسابات مجموعة الأصيل للـ...

- مفهوم مفهوم.

كان ناصر ماهراً للغاية -كالعادة- في تقليده.

- اجلس يا سيد محمود.. تفضل.

تقدم بخطوات حذرة نحو المكتب، وضم ياقة قميصه الضيق على رقبته المكتنزة المتعركة بحركة عرفت أنها حركته العصبية المفضلة.

- منذ متى وأنت تعمل لدى بسام الأصيل؟

- منذ خمس سنوات ونصف.. بدأت محاسباً في شركة المقاولات في الخليج.. ثم بفضل الله وبعد أن قَدَّر الرئيس مجهوداتي.. رُقيت حتى أصبحت مدير حسابات الـ...

قاطعته بسعلة عالية لا مبرر لها، ثم نظرت نحوه للمرة الأولى، لأجد عينيه تضيقان وتتفحصاني بطريقة مستفزة.. تجعلني أرغب في لكمه بلا توقُّف على أنفه الأفتس.

- أي رئيس؟

- الرئيس بسام (رحمة الله عليه)..
- وهل ترشح سيادته للرئاسة من قبل؟

ابتسامة لزجة غير مبررة علت وجهه، ثم راح يضم ياقة القميص ويتابع:

- هذه تعني المدير في لغتنا.. تعبير مثل الكبير أو الـ...

- مفهوم.. مفهوم.

نظرت إلى الملف النائم فوق مكتبي من جديد، ولفت انتباهي حجم إصبع إبهامه الكبير فوق صحيفة الحالة الجنائية.

أغلقت الملف، ونظرت إلى وجهه مقطب الجبين، وحاجبيه الملتقيين في شكل رقم سبعة.

- احكِ لي يا سيد تهامي كل ما تعرفه.

- وصلت إلى الفيلا عندما اتصلت بي الأنسة كاترينا.. سكرتيرة الرئيس.. فُقدت سيارتي الهوندا من منزلي في مدينتي إلى أكتوبر.. وعندما وصلت وجدت.. وجدت.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم ظهر على وجهه التأثير، فازداد تقطيبه حتى تحول إلى ورقة مكرمشة خرجت من فم كلب لعوب.

- مفهوم.. مفهوم.

ثم عقدت كفي فوق بعضهما، ونظرت نحوه بعيني الباردتين نصف المفتوحتين.

- اسمعني جيدًا يا سيد.. سيد تهامي نعم.. أنا أحب سماع القصص.. أحبها للغاية.. وخصوصًا.. قصص الصعود الملهمة الممتعة.. مثل قصتك مع بسام الأصيل.. لذا...

وضعت هاتفِي المحمول نائمًا على شاشته، بعد أن ضغطت زر التسجيل وتابعت:

- لذا سوف تحكي لي قصتك الملهمة بالكامل.. من أول يوم توظفت في شركات الأصيل في الخليج.. وحتى وصلت إلى الفيلا

أول أمس.. ووقفت مصدومًا مشدوهاً أمام جنته.. مفهوم؟

- مفهوم معاليك.. مفهوم.

دق الباب، ودخل جندي الخدمة حاملاً صينية معدنية حكومية، فوقها كوبان من الشاي عديم السكر، وراح يضع الأكواب بهدوء مبالغ فيه.

بعد خمس سنوات من وضع الأطباق والأكواب، وتعديل وضع الأكواب، أدى الجندي التحية، وخرج مغلقاً الباب.

- تفضل الشاي يا سيد تهامي.

- يزيد فضل معاليك.

رشف رشفة عالية سوقية من كوب الشاي.. ثم كاد يبصقها متأففاً من مرارته، ورأيت في عينيه علامات الاعتراض، فسألته ساخراً:

- ماذا؟ ألا تحب الشاي الحكومي الثقيل؟

- بالعكس.. هذا شاي مضبوط ولذيذ.. كما أحبه تمامًا.

كاذب متقن للكذب.. حتى في طعم الشاي.

- إذن.. انطلق.. أنا أسمعك.

وضع كوب الشاي فوق الطبق.

وبدأ يحكي.

(2)

قبل الجريمة بست سنوات ونصف

سنة أشهر مرت منذ أول يوم.

وكلها كأنها نفس اليوم.

كان أول يوم يومًا باردًا من أيام البرد القليلة في دول الخليج،
الشبورة تملأ الطريق، والسيارة التويوتا القديمة تحاول أن تشق
طريقها وسط ستار بخار الماء.

رأفت يجلس خلف المقود، يغلق النافذة، وسيجارة أمريكية تتدلى
من طرف فمه، بينما يجلس محمود على المقعد المجاور، يحتضن
حقيبة ظهر قديمة قماشية، تحوي كل ما يملكه من أوراق.

رأفت هنا منذ ثلاث سنوات، منذ أن حمل نفس الحقيبة القماشية،
وقبل يد أمه العجوز، وسافر باحثًا عن الوهم.

ثلاث سنوات عمل فيها في كل مهنة ممكنة وغير ممكنة، حتى
استقرت به الحال مشرف عمال في شركة مقاولات صغيرة، تبني
المنازل السكنية لأبناء الدولة الخليجية الغنية.

وكانت النتيجة بيتًا بُني بالطوب الأحمر، يطل على ترعة واسعة
في قريته الفقيرة في أرياف مصر، وسيارة ميكروباس تعمل على
خط ريفي ثير عليه بعض المال، وزوجة من أقاربه أخته بطفلين
بائسين مصابين بسوء التغذية، يراهما كل عامين.

لكن محمود يملك أحلامًا أكبر وأعرض.

يحلم بما يتعدى المال والبيت والزوجة والأطفال.

السلطة.. السيطرة.. النفوذ.

المال والوظيفة لا يمثلان له سوى وسيلة يصل بها إلى تلك الغاية.

حاول في شبابه أن يصل لها عن طريق حزب الدولة الحاكم، ثم حزب الدولة الإسلامي.

وكل ما واجهه كان الفشل.

فهو لا يملك من مقومات النجاح في هذه المهمة شيئًا، عدا بعض من قدرة استثنائية على النفاق والمداينة، وبعض من مهارات الحساب والجمع والطرح، تعلّمها في سنوات دراسته الست في كلية التجارة.

وهي مقومات لا تكفي ذئبًا محدود المواهب وسط غابة من الذئاب الموهوبة.. القدرة على تحويله لأشلاء بمجرد أن يفكر في مصارعتها على مقعد السلطة.

لذا فقد هداه عقله إلى عملية حسابية بسيطة.

ثلاث سنوات في الخليج + عمل بجد واجتهاد = مالًا وفيرًا.

لتتحول بعدها إلى معادلة جديدة.

مال وفير + عضوية حزب الدولة = عضو مجلس نواب موقرًا.

وبعدها سيعرف كيف يتسلق السلم إلى المكان الذي يليق به.

أفاق من شروده في الستار الأبيض الغائم على صوت نفير انطلق

من سيارة عملاقة، مرت بجوارهم كوحش أسطوري، فكادت تلقي بهم على جانب الطريق

- لا.. لا تقلق وتماسك.. هذه سيارة أحد المواطنين.

- ما مربنا الآن سيارة؟ ظننتها سيارة نقل.

ضحكة عالية ساخرة من بين شفّتي رأفت، تبعثها سعدة من أثر دخان السيجارة المحتشد في صدره.

- لا.. هذه سيارة تُدعى سيلفرادو.. وتمتلك صندوقًا خلفيًا مثل البيك آب.. النصف نقل إذا كنت لا تفهمني.. والمحليون يحبونها كسيارات ملاكي.

هز محمود رأسه مُظهرًا الفهم، على الرغم من عدم استيعابه للأمر. كيف يحب شخصًا ما أن يقود سيارة نصف نقل عملاقة كسيارة ملاكي وهو يملك أموالًا تملأ خزانات. لكنه سيفهم وسيعرف.

فالتريق الوحيد لكي يصل إلى ما يريد مع مواهبه المحدودة.. هو أن يعرف ويفهم ما يحبه المواطنون المحليون، مالكو المال والسلطة.

كي يصل إلى ما يريده؛ لا بد من أن يفهم.

والآن، بعد ستة أشهر، يتذكر ذلك اليوم.

يتذكره وهو جالس فوق فراش معدني صدئ.. يتصاعد منه البق ليمتص دمه كل ليلة.. في غرفة من شقة حقيرة عطنة.. يشاركه فيها

ثلاثة من الحالمين بالجنة.

أو الحالمين بالوهم.

يتذكره وهو ينهي عشاءً من رغيف خبز رقيق به قطعتان من جبن
المثلثات.

يتذكره وهو يعد العملات المتبقية معه، والتي لا تكفيه إلا ليومين
قادمين.

يتذكره وهو يضع رأسه فوق الوسادة.

بلا عمل.. بلا مال.. بلا شيء.

(3)

قبل الجريمة بست سنوات

- يا محمود.. أنت أيها المعتوه.. ألا تعرف كيف تعد ملفًا لحساب التكاليف؟

صرخ بها السيد عبادي، مدير حسابات شركة المؤيد للمقاولات، وهو يلوح بورقة كبيرة في حجم جريدة، بينما يجلس السيد محمود التهامي على مقعده الصدي، خلف مكتب معدني في مقر الشركة.

منذ شهر، حصل محمود على وظيفته الأولى التي تدر دخلًا شهريًا ثابتًا، بعد العمل في وظائف اليوم واليومين، والتي لا تدر عليه إلا القليل من المال، ووجبة غداء أغلبها من الأرز الأصفر والدجاج المحقون بالهرمونات.

ومنذ شهر، وهو يعمل لست عشرة ساعة يوميًا تحت إمرة مدير حسابات من أصول أردنية، لا يجيد إلا الصراخ في وجهه والضغط عليه كبرتقالة، حتى يحصل على آخر قطرة في عصير روحه.

ومنذ يومين، حصل على راتبه الأول، والذي بالكاد سيكفي سداد ديونه المتراكمة منذ أن وطئت قدماه أرض الأسفلت أمام سكن الغراب القذر، الذي يشارك فيه ثلاثة من البائسين أمعاله.

نهض من فوق مقعده منتفضًا، وضم ياقة قميصه الكاروهات الأزرق، وقال بصوت خفيض منسحق:

- لماذا السباب يا ريس؟ لقد أعددت الملف كما طلبته مني.

- طلبت الملف معذًا على الإكسيل ومرسلًا لي على البريد الإلكتروني.. ولم أطلب ورقة حقيرة في حجم جريدة لا أقوى على قراءة حرف منها من دون عدسة معظمة.

قالها بنفس درجة الصراخ، ومن دون أن يخفض صوته حتى لديسبيل واحد، ثم ألقى بالورقة فوق المكتب غاضبًا.

السيد عبادي قوارقي، المحاسب الذي عمل في ست شركات بترول، والذي أمضى عشرين عامًا في الخليج العربي متنقلًا بين شركات كبرى، مطلقًا على أحدث ما أتت به التكنولوجيا، حتى انتهت به الحال مديرًا لحسابات شركة مقاولات معدمة.

وها هو الآن يحاول أن يحول إدارة الحسابات في هذه الشركة إلى إدارة محترفة مثل التي كان يعمل بها في شركات البترول.

يحاول أن يجعل محمود التهامي وسيد بابو ومجيب خان وعماد الحاج يعملون كالمحترفين.

أربعة محاسبين من جنسيات مختلفة، لا يجمع بينهم إلا الفقر والعوز وضيق الحال ومحدودية المواهب.

كلهم لا يصلحون حتى أن يكونوا محاسبين في شركة مقاولات معدمة كتلك، بل ربما لا يصلحون حتى لمعالجة حسابات بقالة.

- يا ريس.. هذا الكمبيوتر لا يصلح حتى لكتابة ملف على برنامج الورد.. فكيف تريد مني أن أنشئ ملف إكسيل معقدًا كهذا؟! سيتطلب مني هذا على الأقل أربعة أيام متصلة.. وحجم العمل كبير جدًا يا ريس.

- أنت تحصل على راتبك كي تنجز العمل يا تهامي.. لا كي تتبرم وتلقي الأعذار في وجهي كتلميذ خائب..

ثم اقترب منه، وخفض صوته الجهوري حتى تحول إلى صوت دب غاضب يوشك على الفتك بفريسته عديمة الحيلة.

- تذكر أن الإدارة طلبت مني خفض تكاليف العمالة في إدارة الحسابات.. وأنا لدي أربعة محاسبين.. أربعة أنت أحدثهم.. ما يعني أنني لن أواجه مشكلة كبيرة في اختيار الوزن الزائد الذي أريد تخفيفه.. هل نحن متفاهمان الآن يا محمود؟

هز رأسه في خوف ورهبة، وضم ياقة قميصه من جديد، بينما استدار عبادي وهو ينظر إلى المحاسبين الثلاثة صارخًا:

- باثروا عملكم أيها الكسالى.. ليست فقرة من فقرات السيرك حتى تحدقوا في هكذا.. هيا.. اعملوا مقابل رواتبكم.

وغادر الغرفة الضيقة صافقًا الباب خلفه في عنف.

بينما راح محمود ينحني ويجلس بهدوء وكأنه يجلس بالتصوير البطيء.

ويضغط على زر في ذلك العملاق الأسود الجاثم فوق مكتبه، والمسمى مجازًا بالكمبيوتر، فينتفض العملاق في أصوات معدنية وأزيز لا يتوقف.

وبعد ربع ساعة كاملة، أضاءها محمود التهامي في النظر إلى شاشة سوداء تحمل علامة الويندوز، ظهرت شاشة نظام التشغيل.

وبعد خمس دقائق أخرى، تمكن من الدخول إلى برنامج الإكسيل.
وبعد خمس دقائق أخرى، قرر أن الوقت قد حان لكتابة الاستقالة،
والعودة إلى وظائف اليوم الواحد التي تدر عليه وجبة وعلبة عصير،
بعد الوقوف لساعات كفرد آمن مرتجل في مدخل مزين بالورود
لحدث ترفيهي يمرح فيه أولاد المواطنين والمقيمين ذوي الخطوة.
وبعد أن كتب استقالته على ورقة بيضاء، نكايّة في أبو فراس،
المدعو عبادي، سمع الصوت الرخيم يخاطبه من فوق رأسه بلهجة
سودانية محبة للنفس.

- ماذا تفعل أيها المعتوه؟ عليك الله مزق هذه الورقة قبل أن يراها
عبادي.

التفت نصف التفاتة إلى الكيان الأسمر العملاق الذي يحتل الفراغ
وراء كتفه اليسرى، والدموع تحتشد في عينيه.

- تعبت يا أبا قاسم.. تعبت ولم أعد أقدر على الاستمرار..

ثم عاد بوجهه متطلعًا إلى الورقة البيضاء، ثم أمهرها بتوقيعه
البسيط الساذج وتابع:

- ثم إنني أحدث من انضم إلى هذا المكتب.. وعندما سيقرر أن
يفصل أحدهنا.. سوف أكون أنا المفصول بلا شك.

- أتقصد الكلمتين الخائبتين اللتين يرددهما عبادي عن تخفيض
التكاليف والفصل؟

ثم ضحك كاشفًا عن صف أسنان أبيض براق، ورفع صوته مناديًا

مجيب خان، المحاسب الباكستاني الشاب، قائلاً بإنجليزية تحمل
لكنته السودانية:

- مجيب.. ماذا قال لك مستر عبادي أول أمس؟

ليجيب مجيب بطريقة آلية وهو لا يرفع وجهه من فوق شاشة
الكمبيوتر:

- الإدارة تنوي تخفيض التكاليف.. وأنت أصغر الموجودين سنًا.. لذا
لن أحتار في الاختيار عندما أنوي التخلي عن بعض الوزن الزائد.

ثم رفع عينيه وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، لتنطلق ضحكة عماد
الحاج مجلجلة في قلب المكتب.

- هل سمعت بأذنك أم تريدني أن أزيدك من الشعر بيثًا؟

ثم سحب المقعد المعدني بصوت مسموع، وجلس مواجهًا محمود.

- منذ أسبوعين قال لي نفس الكلمات.. والحجة أنني أكبركم سنًا
وأقلكم معرفة بالكمبيوتر وبرامج المحادثة.. لذا عليك الله والرسول
مُرَّق هذه الورقة الحقيرة.. وعد لعملك كي تحصل على راتب أول
الشهر.

ثم أخرج علبة سجائره الرخيصة، وأشعل سيجارة راح ينفث
دخانها في وجه لوحة ممنوع التدخين المثبتة على حامل خشبي
رخيص فوق مكتب محمود.

- عبادي لا يقدر على فصل أيّ منا.. لأننا ببساطة وسيلة وصوله
الوحيدة إلى مكتب الشيخ.. والشيخ طال عمره لا يعترف إلا

بالأرقام.. ونحن مَن نصنع الأرقام يا محمود.. نحن مَن نجعل الأرقام جميلة.. ونحن مَن نجعلها قبيحة.. والشيخ إذا رأى أرقامًا قبيحة.. سيطيح برأس عبادي أولًا.. لكن إذا رأى الأرقام جميلة.. فسوف يمنح عبادي زيادة في راتبه.. وعندها سيكافئنا عبادي ببقائنا هنا في علبة السردين الضيقة.. نحصل على الفتات نهاية كل شهر.. ونمنحه الرضا والقبول.

ثم نهض وهو يلقي بسيجارته على الأرضية المصنوعة من بلاط رخيص، ويسحقها بحذائه الوحيد متابعًا:

- لذا اعمل في صمت.. واحرص على أن تجعل الأرقام جيدة.. هذا درسك الأول والأخير يا ابن النيل.

واستوعب محمود التهامي الدرس.

استوعبه جيدًا.

(4)

قبل الجريمة بخمس سنوات ونصف

جالسًا فوق طاولة خشبية.. في منطقة تناؤل الطعام داخل موقع إنشاءات يدر أتربة وردمًا أكر ما يدر هواءً.. وعلى يمينه ويساره وأمامه وخلفه مجموعة من العمال الهنود والبنجال يتناولون أطباق الأرز والدجاج بأصابعهم المجردة.

راح محمود التهامي يتذكر.

لقد وعى الدرس جيدًا.. وعاه حتى أكله وهضمه وأفرغه.

لكن عبادي ذهب ذات ليلة ولم يغد.

ذهب في حادث أليم على طريق سريع، ووقف المارة يصورون السيارات المتحطمة المنبجعة وسط أضواء سيارات الإسعاف والدفاع المدني.

ذهب وأتى بعده بالسيد الفاضل شاكيل كومار، والذي لم يكن مثل عبادي أبدًا.

لم يكن يلقي بالكلمات جزافًا.. لم يكن يرمي التهديدات في الهواء كي يشعر موظفوه بالخطر.. فيقبلون العمل لساعات وساعات بلا مقابل يُذكر.

في الواقع لم يكن يتكلم نهائيًا..

كانت كلماته فقط تأتي على هيئة خطابات أنيقة.. مطبوعة على طابعة ليزر جديدة.. ممهورة بتوقيعه وختم الشركة.

وفي صدر الخطاب تأتي الكلمات الثلاث الكفيلة بإصابتك بأزمة
قلبية تُنقل من فورك بعدها إلى المستشفى.

خطاب إنهاء خدمات.

كما حدث بالضبط لعماد الحاج.. الصديق الوحيد لمحمود التهامي.
وعندما حضر الخطاب، وسلمته له سكرتيرة هندية تضع
جوهرة صغيرة في جانب أنفها، وطلاء أظافر رخيص على يديها
المتشققتين، لم يُصَب محمود بأزمة قلبية.

بل ساد الصمت من حوله وكأنه انتقل إلى عالم موازٍ.

حمل حقيبته الصغيرة، وزجاجة الماء البلاستيكية التي يملؤها من
مبرد المياه القديم في ركن الكافتيريا، وحمل ما تبقى له من طعام
إفطاره الرخيص، وألقى بنظرة امتنان صغيرة لمجيب خان، الجالس
وسط ثلاثة من الهنود المنتمين إلى نفس المقاطعة التي جاء منها
السيد شاكيل.

ورحل.

وبعد شهر آخر من البحث والبحث والمزيد من البحث.

عمر على عمل براتب بخس في أحد مواقع الإنشاءات، وأصبح
مسئولاً عن إعداد كشف الرواتب لخمسمئة عامل ومشرف، بما
يشتمله من حساب الوقت الإضافي والإجازات والغيابات والبدلات..
إلخ إلخ من كل هذا الهراء الوظيفي.

وظيفة من المفترض أن يقوم بها ثلاثة موظفين، أصبح هو مسؤولاً

عنها بمفرده.

وبراتب لا يكفي سوى السكن المشترك الرخيص، وبضع جنيهاً يرسلها إلى أمه العجوز في مصر، بعد أن توقف والده المزواج عن منحها ما يكفيها الطعام والكساء.

حياة بلا هدف وبلا نفع وبلا قيمة.

ألهذا جاء إلى الخليج؟

يسأل نفسه هذا السؤال كل ليلة وكل لحظة.

حتى وهو جالس وسط العمال الذين أصبحوا يهابونه ويخافون غضبته ويجزلون له العطاء من حلوى بلادهم وخيراتها التي يأتون بها في إجازاتهم.

حتى السجائر والمكيفات لم يغد يشتريها، لأن المشرفين الهنود صاروا يمنحونه إياها بلا مقابل، حتى يترقق في حساب الوقت الإضافي لهم.

هذا ما يبقيه مكانه.

السلطة.

سلطة عقيمة منقوصة على رقاب خمسمئة من المساكين.

غرس الملعقة البلاستيكية في طبق الكشري الذي لا تختلف رائحته عن رائحة البرياني الذي يملأ الجو من حوله، وراح يقلب في صفحات مواقع الوظائف الإلكترونية بحثاً عن أي وظيفة قد تأتي بها.

المزيد والمزيد من مطاردة الوهم.

حتى رن هاتفه المحمول برقم يعرفه جيدًا.

وبفم مليء بالعدس الجاف والمعكرونة نصف المسلوقة أجاب:

- أبو قاسم.. كيف حالك يا أخي الكبير؟

- يا محمود العزيز.. كيف حال عملك الجديد؟

نظر حوله مراقبًا الأصابع المغروسة في أطباق الأرز وأجاب وهو
يبتلع طعامه

- بخير.. بخير.

- لا يعطي صوتك أي دليل على أنك بخير.. ما علينا.. لندخل في
صلب الموضوع مباشرة.

لفتت الجملة انتباهه، فترك الملاعة البلاستيكية فوق طبق الكشري،
واعتمد منتبهًا.

- أنت تعرف أن بعد إصابتي بتلك الأزمة القلبية.. لم أعد أقدر على
العمل بدوام كامل ولا حتى بنصف دوام.. وابنتي البكر هي التي
تعمل الآن وتصرف على البيت..

- شفاك الله وعافاك.

- لا يبدو أن الشفاء قريب يا محمود.. لذا فعندما غرضت عليّ تلك
الوظيفة.. عرفت أنها تناسبك أنت.

أزاح طبق الكشري من أمامه إلى نصف الطاولة، ونهض منتصبًا

وهو يمسح فمه بطرف كم قميصه المهترئ.

بينما يتابع عماد:

- وظيفة في شركة كبيرة تتبع أحد رجال الأعمال المهمين.. يعمل في مجال الضيافة والخدمات.. أتعرف شيئًا عن هذا المجال؟

ضم ياقة القميص إلى صدره وهو يهمس:

- وحتى إن لم أكن أعرف.. فسوف أعرف وأتعلم.. فقط أخرجني من هنا وسأبقى مديّنًا لك طوال عمري.

سمع الضحكة الخافتة المرهقة عبر الهاتف:

- ألا يعطونك معاشًا من عملك في موقع الإنشاءات؟

كاد يصرخ بصوت مرتفع يصم الآذان أنه لا يبحث فقط عن المعاش.

وأنه حتى وإن منحوه مال الدنيا هنا، فليس هذا مبتغاه ولا هدفه.

وأن يومًا واحدًا فوق المكتب المعدني يتحمل فيه تقريع وسخرية وصراخ عبادي المتتالي.. لأفضل عنده من سنين في هذه الحفرة المغطاة بتراب الإنشاءات ورائحة الأسمنت.

إلا أنه أجاب في هدوء:

- مستورة والحمد لله.. لكن المرء يبحث عن الأفضل دائمًا.. والجو هنا يصيب بالمرض والهم.

- إذن جهّز نفسك لمقابلة صاحب الشركة غدًا.. أريدك في قمة

أناقتك.

- وهل الراتب مناسب يا أبو قاسم؟

زمجرة مكتومة صدرت من فم عماد تبعها صوت استنكاري
اعتراضي:

- أنت في خرا أم في شم ورد كما تقولون في مصر.. ارتدي بدلتك
اللعينة واذهب إلى صاحب الشركة.. وبعدها يقبلك في ملكوته..
ساعتها اسأل عن الراتب.. أم تريد أن تتعفن عندك في تلك الحفرة،
وئصاب بالربو من شم أتربة الأسمت والجبس؟!

هز رأسه نافيًا وكأن عماد يراه رؤيا العين، ولان صوته قليلًا:

- حسنا.. سأفعل.. فقط أرسل لي الرقم.

- بعدما ننهي المكالمة سأرسل لك كل التفاصيل.. عليك الله استعد
جيدًا.. فربما كانت هذه هي فرصتك الوحيدة لدخول الجنة.

ثم صمت لحانية كأنه في مسلسل درامي رخيص وتابع:

- فرصتك الأخيرة يا محمود.

وبعد أن أغلق الخط، وصلت رسالته القصيرة لرقم رجل يدعى
فراس، وتحتته كلمات عن اسم الشركة.

أنهى محمود عمله في حساب ساعات العمل الإضافي، وفي تحفل
رائحة عرق العمال والمشرفين، ثم ركب سيارة الشركة حتى وصل
إلى المنطقة المزدحمة التي يقع فيها سكنه المشترك.

وأسفل البناية، أمسك الهاتف وراح يطلب الرقم وهو ينظر إلى

بقعة ماء راكد صنعها صرف مكيف البقالة الكائنة في الطابق الأرضي من البناية.

وراح ينتظر الرد.. بلا إجابة.

مرة تلو المرة حتى كاد يصيبه اليأس.

وعندما قرر التوقف عن المحاولة، والصعود فوق درجات السلم الذي تغير لون رخامه الداكن.

جاءته مكالمة الرد:

- آلو.. أنت اتصلت بي خمس مرات.. مَن أنت؟

صوت شامي ثقيل، يشبه أصوات ممثلي مسلسل (باب الحارة):

- اتصلت بخصوص الوظيفة في شركة الضيافة.. أنا من طرف عماد الحاج.

- تقصد عماد السوداني.. أنا لا أعرف أحدًا يدعى عماد سواه.

صدر منه صوت لا يعرف ماهيته، لكن الشاب أكمل:

- أنت المحاسب المصري؟

- نعم هو أنا.. محمود أحمد الـ...

- هل سأصدر لك بطاقة شخصية يا هذا؟! مالي واسمك الكامل؟!

ابتلع محمود لسانه وكلماته، وراح يضم ياقة القميص مرات متعددة كأنه عذراء انتهك أحدهم ثيابها:

- قال لي عماد الحا... أقصد السوداني.. أن أتصل بك لأجل المقابلة

غداً مع...

- مع المعلم.. نعم نعم.. اكتب هذا العنوان أو احفظه جيداً.. وكن هناك في التاسعة صباح الغد.. مفهوم؟ التاسعة صباحاً.. المعلم لا يحب التأخير.

راح يمليه العنوان، الكائن في منطقة معروفة برفاهيتها وغنى ساكنيها، ثم أغلق الخط بلا كلمة سلام.

راح محمود يراجع العنوان في رأسه، وعقله المرهق يفكر في وسيلة للغياب عن عمله في الصباح؛ كي يكون مستعداً لزيارة الرجل الذي يلقبه الفتى الشامي بـ«المعلم».

والأدهى من ذلك، ماذا سيرتدي غداً لتلك المقابلة المهمة؟ فهو لا يملك من الثياب إلا قميصه الكاروهات المهترئ وقميصاً أبيض استحال لونه إلى البيج من كثرة العرق والغسيل بمسحوق الغسيل الرخيص.

وراح عقله المتقد يعمل بسرعة لم يعهدها في نفسه.

رسالة إلى مدير الموقع تخبره بمرضه الشديد وبضرورة أن يبقى في الفراش، ورسالة أخرى إلى زميله السكرتير الهندي تحمل كلمات إنجليزية ضعيفة البناء بضرورة تحمّل ضغط العمل غداً لأنه مريض وعاد لتوه من المركز الصحي.

صعد مسرعاً إلى الشقة المعدمة، وتجاوز صراخ السيدة الفلبينية التي تؤجر الغرفة له ولزملائه الأربعة المعدمين، ثم راح يقلب في خزانة الثياب المشتركة بحثاً عن أي سترة نظيفة تليق بتلك المقابلة،

حتى وجد ضالته.

صحيح أن قياسها يكبر قياسه بدرجتين، وأنها تجعله يشبه سمير غانم في شخصية القزم الكوميدي فطوطة، لكنها ستفي بالغرض.

مع الاستحمام، والقميص الأبيض المختبئ أسفل السترة الزرقاء، وبنطاله الأسود القماشي الوحيد من أيام الخدمة في كنف عبادي، كل شيء سيكون بخير.

وفي الصباح، وبعد ليلة لم يَنَمْ فيها سوى ساعة واحدة مليئة بأحلام الفشل والفقر والموت، كان في طريقه داخل سيارة الأجرة إلى ذلك القصر.

إلى الجنة.

وعندما هبط من السيارة، منقذًا السائق نصف ما يملك من مال، عرف أنه سيدخل هذا المكان ولن يخرج منه إلا كما يريد.

حتى وإن كلفه ذلك حياته.

حتى وإن باع روحه للشيطان نفسه.

خطا عتبة البوابة الحديدية نصف المفتوحة، وراح يجوب بعينه في الحديقة الغناء الخضراء.

نخيل قصير يدر بلحا أصفر لامعًا، ومساحات خضراء لا تحصيها العين، وبعض الصقور الغافية مغماة العين فوق أعمدة خشبية تحت خيمة شعبية مرتجلة.

شاب هندي أنيق يقابله بابتسامة متحفظة، ثم يقوده إلى ذلك

الكشك الذي يجلس إلى بابه فرد أمن نظامي خاص، وبجواره شاب أشقر ضخم الملامح، يربي لحية مثل أبطال المسلسلات التركية.

- السيد.. فراس.

- نعم.. أنا السيد فراس.. ومَن تكون أنت؟

قالها في غلظة وبلا أدنى علامة من علامات الترحيب.

- أنا محمود التهامي.. جئت من أجل مقابلة الـ...

- المحاسب المصري.. نعم نعم أتذكرك.

ثم نظر في ساعته الضخمة، وظهرت على وجهه علامات الاستحسان:

- التاسعة إلا خمس دقائق.. جيد.. الالتزام في المواعيد هو علامة جيدة.. اترك بطاقة هويتك هنا.

أخرج محمود بطاقة الهوية ومنحها لفرد الأمن الذي راح يسجل بياناتها في دفتر ورقي ضخمة.

بينما نهض فراس، وسوّى من وضع قميصه الكتاني فوق جسده المتناسق، وأشار لمحمود كي يتبعه.

صعدا درجات سلم رخامي فاخر، ورائحة الصندل تفوح من حولهما.

وأمام الباب الخشبي العملاق.. وقف محمود التهامي مشدوهاً.

في حياته التي تخطت الثلاثين عامًا لم يرَ باب قصر أو فيلا يشبه

ذلك الباب.

باب خشبي مزخرف، منقوش بعناية كبيرة وبفن لا يحتاج إلى خبير لمعرفة مدى أصالته، ورائحة الصندل تفوح منه حتى تُسكِر العقل وتُذهبه.

دق فراس مقبضًا معدنيًا صغيرًا، ثم رفع إصبعه الغليظ نحو الجرس الكهربائي.

وكأنه كان يطلب الإذن قبل أن يزعج سكان الجنة.

وعندما أزيح الباب مُصدِرًا صريرًا مميّزًا لم يسمعه محمود من قبل، ظهرت على عتبه فتاة فلبينية حسناء، تعقص شعرها خلف رأسها، وترتدي تنورة قصيرة ضيقة، بينما تغطي صدرها بمريولة قصيرة.

وبإنجليزية مهشمة، قال فراس وعيناه لا تبارحان صدر الفتاة الذي يكاد يمزق قميصها ومريولتها.

- هل السيد بسام موجود؟

نظرت الفتاة له ساخرة، ومالت بصدرها نحوه وعلى وجهها ابتسامة لعب:

- سيدي في غرفة مكتبه.. سأطلب الآتسة حداد أولًا.. لأنه مشغول جدًا.

ثم استدارت وهي تمشي متراقصة، وعينا فراس الجائعتان تقلبان جسدها كله.

وعندما شعر بنظرات محمود إلى وجهه الجائع الشهواني، تنحنح

وقال مديراً وجهه، راسماً عليه نظراته الجادة الصارمة.

- الآنسة كاترينا حداد هي سكرتيرة المعلم الشخصية.. وهي من تنظم له مواعيده.

- ومن هذه الفتاة الفلبينية؟

نظر له فارس وعلى وجهه نظرات صارمة غاضبة:

- لا تسأل فيما لا يخصك السؤال عنه يا هذا.. وتذكّر أنك هنا للعمل فقط.

- أتمنى أن تقول هذه الكلمات لنفسك أولاً يا فراس.

التفت كلاهما إلى صاحبة الصوت الحاد الساحر.

وعندها كادت عينا محمود تخرجان من وجهه، ويلقي نفسه على ركبتيه طائفاً راكفاً.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها فتاة في جمال كاترينا حداد، منذ أن وطئت قدماه أرض الخليج الحارة، وكانت هي المرة الأولى التي يخفق فيها قلبه نحو صنف النساء كله منذ أن تعود رؤية سيدة المنزل الفلبينية وزميلاته الهنديات بشواربهن التي تنافس شوارب الرجال.

- آنسة حداد.. أنا...

- كف عن التحديق في صدر وأرداف ماري آن.. واتخذ لنفسك زوجة أو صديقة.. أو اذهب لأحد بيوت المساج السرية حتى تشبع رغباتك المتفجرة.

ثم نظرت إلى محمود التهامي بلا مبالاة:

- ومن هذا الأخ الغارق في ثيابه؟

- هذا المحاسب المصري.. الذي حضر لمقابلة المعلم.

جالت ببصرها وعلى عينيها نظرات ساخرة مهينة، وكأنها تعاین عبداً في سوق عكاظ، ثم مصمت شفتيها قائلة:

- لا بأس به.. فقط لو خلع هذه السترة التي تخص أباه.. سيكون جيداً.

هم محمود بخلع السترة، لولا أن قبض فراس على ساعده بقبضة كالكلابات الحديدية.

- لديه موعد لمقابلة المعلم.

راحت كاترينا تتفحص أوراقها، ثم قالت بلا مبالاة:

- نعم نعم.. مواعده في التاسعة.. ومستر بسام في انتظاره.

ثم نظرت إلى محمود متابعة في جدية:

- لديك خمس دقائق مع المعلم.. ثم بعدها ستعرف إن كنت ستحصل على الوظيفة أم لا.. شكراً يا فراس.. سوف أتصل بك إذا احتجنا إلى شيء.

أوماً فراس برأسه، ثم تراجع بظهره عبر الباب الخشبي، وكأنه في حضرة شجر الدر بنفسها.

بينما استدارت كاترينا وقالت بصوتها الحاد الأمر:

- لا تُضع وقت السيد بسام الثمين.. وأجب فقط عن الأسئلة التي يسألك إياها.. وإياك والتجويد أو الاستعراض.. فهو لا يحب ذلك.

لا يحب أن يشعر بأن أحدهم ماهر أو ذكي أو لامع سواه.

فهم الدرس ووعاه جيدًا.

اقتربا من الباب الخشبي الأنيق، فدقته في هدوء ليسمع نبرة الصوت الخشنة الجهورية تأتي من خلفه:

- ادخلي يا كاتي.

ابتسمت في دلال، فخلبت لبه ورقص قلبه طربًا، حتى وإن لم تكن الابتسامة له.

وعبر خلفها من باب صاحب الجنة.

وعلى مقعد جلدي مريح، يجلس بسام الأصيل.

قائمة قصيرة نحيلة، ورقبة شبيهة بسلحفاة عجوز تخرج من قلب صدفتها، ونظارات بإطار ذهبي، ويدان ذاتا أصابع رفيعة تمسكان بكوب قهوة سوداء تفوح رائحته حتى الباب.

غاصت قدماه في البساط السميك المزين برسوم الأسود الفارسية، بينما أشارت له كاترينا بالوقوف مكانه، فحنى رأسه الشبيه ببيضة النعامة، وضم ياقة قميصه توترًا

- من هذا.. فطوطة المصري؟!

قالها المستر بصوته الجهوري، وبلهجته العراقية المفخمة، ثم أطلق ضحكة ساخرة ملأت سماء الغرفة.

وملأت أذني محمود بدماء الخجل.

- هذا المحاسب المصري الذي رشحه عماد الحاج للوظيفة.

- إممم.. يبدو غبيًا مسطحًا محدود الموهبة برأسه الشبيه بالبادنجان.

إهانة تلو الأخرى، ومحمود يحاول ابتلاع كل شيء.

بل إنه تمنى لو كان في يده كوب ماء، ليتمكن من ابتلاع ريقه الجاف مع إهانات صاحب الجنة.

- أوامرك.. هل نصرفه بلا عودة؟

قلب بسام الأصيل عينيه الصغيرتين من خلف النظارة الذهبية، ثم أشار بطرف يده إلى كاترينا، التي فهمت الإشارة وتركت الغرفة.

- أغلقي الباب خلفك يا كاتي.

- أوامرك مستر بسام.

ومع صوت إغلاق الباب، انتفض جسد محمود.

انتفض بلا داع في الحقيقة، وراح يرتعش أسفل السترة الواسعة والقميص المهترئ.

- تعالَ يا... قلت لي ما اسمك؟

- محمود التهامي معالي الرئيس.

- معالي الرئيس.. إممم.. ومنافق أيضًا.. جميل.

اقترب محمود خطوتين وقدماه تغوصان أكثر في البساط السميك.

- هل تعرف عمل الحسابات في شركات الضيافة يا محمود؟

- أعرف عمل الحسابات يا معالي الرئيس.. وعمل الحسابات يحتاج فقط إلى الإخلاص والأمانة أيًا كانت الشركة أو أيًا كان تخصصها.

- وهل تتمتع بالإخلاص والأمانة يا محمود؟

كاد يخبره أنه لا يعرف من الإخلاص والأمانة إلا اسمهما فقط، ولا يعرف من صفاتهما إلا إخلاصه للمال وأمانته مع ما يخدم مصلحته.

إلا أنه قال في لهجة حرص أن يجعلها منسحقة ذليلة:

- جربني يا سيدي.. وإن لم أعجبك أو لم تجد في الأمانة والإخلاص.. ألق بي من فوق أعلى برج في البلاد.. وسأقبل ذلك طائعا صاغرا.

وضع بسام الأصيل قدح قهوته فوق الطاولة الأبنوسية، وعقد كفيه وهو ينظر من فوقهما إلى محمود.

نظرات متفحصة.. نظرات مقتحمة.. نظرات خبير نخاسة محترف.
- حسنا يا محمود.. سأجربك..

كاد محمود التهامي يرقص فرحا، أو ينقض لاثقا يد بسام الأصيل، أو ربما أصابع قدميه البارزتين من خفيه المصنوعين من الجلد الطبيعي.

- ثم إن عماد الحاج قد أوصى بك.. وعماد الحاج من أهل ثقتي.. وأنا يا محمود لا أثق بالناس بسهولة.

ثم تناول جريدته من فوق نفس الطاولة، وفتحها على مصراعها وهو ينادي كاترينا بصوته الجهوري:

- كاتي.. تعالي إليّ.

فُتح الباب الخشبي بعد ثانية واحدة، وكأن كاترينا كانت تقف خلفه ملتصقة به.

- أوامرك يا مستر بسام؟

- ارصدي له راتبًا جيدًا كي يرتدي ثيابًا مناسبة.. وكى يستحم جيدًا وينام في مكان خالٍ من البق.. واطلبي من فراس أن يأتي برجال شركة المكافحة كي يرشوا المكتب جيدًا.

- أوامرك مستر بسام.

صمت للحظات وهو يقلب صفحات الجريدة.

بينما كاترينا تقف منتبهة تحمل دفترًا أنيقًا تكتب فيه ما يمليه عليها من تعليمات وفرمانات.

- واصرفي راتب شهر لماري آن.. ثم احرصي أن يراها الطبيب.. وبعدها أرسلها إلى بلدها في أول طائرة صباح الغد.

- لكن يا مستر بسام، الفتاة...

- مس حداد.. أول طائرة.

أغلقت السكرتيرة الحساء دفترها الأنيق، وضمتة إلى صدرها وهي تحني رأسها الجميل صاغرة مطيعة.

بينما صمت المبجل، وراح يقرأ جريدته في سلام.
ليدرك محمود بفطرته المنسحقة، أن وقته قد انتهى.
خمس دقائق بالتمام والكمال.

خمس دقائق غادر بعدها القصر الفخم.. وعبر الحديقة الغناء..
ووقف على قارعة الطريق ينتظر سائق شركة الضيافة كي ينقله إلى
الحي المزدهم.. وفي جيبه ظرف به نصف شهر من راتبه الجديد..
الذي يوازي نصف شهره راتب شهرين من عمله في حفرة الأسمنت
والطابوق.

خمس دقائق كانت كفيلة بإدخاله الجنة بلا حساب.
أو هكذا ظن محمود.
ولكم كان مخطئًا!

(5)

قبل الجريمة بسنتين وستة أشهر

فتح محمود التهامي نافذة مكتبه في الطابق الخامس عشر من ذلك المبنى ذي العشرين طابقًا، وراح يعب هواء الخليج الخريفي الجميل.

خريف الخليج كما عهده.. هو أجمل فصول السنة وأكثرها قربًا لقلبه.

في الخريف هنا يكون الطقس معتدلًا.. ليس جحيماً من الرطوبة الخائقة والحرارة التي تشويك كالدجاجة.. ولا باردًا قارسًا بذلك البرد الصحراوي الرطب.

- هواء جميل.. هواء جميل للغاية.

يبتسم عبد الجواد.. رفيقه في المكتب ومساعدته القادم من أقاصي النوبة.. ثم يلتفت ناحية شاشة الكمبيوتر مكملًا ما يفعله.

مرت ثلاث سنوات منذ أن خطت قدماه جنة الأصيل، وأصبح أحد منعميه ومقربيه.

فرصة أتته بلا حساب ولا تخطيط، فتشبث بها بكل ما أوتي من قوة، وراح يصعد السلم درجة درجة من الطابق الثاني -حيث مقر شركة الضيافة- إلى الطابق الخامس عشر -حيث المقر الرئيسي لمجموعة الأصيل- وهو يبهر من حوله بقدراته الفذة على النفاق والمواربة وقلب الباطل حقًا والحق باطلاً.

حتى أصبح كبير محاسبي المجموعة المتشعبة ذات الأذرع الثماني
كالأخطبوط.

وأصبح واحدًا من أعضاء دائرة المقربين.

الحداء.. كما يسميهم سيده الأصيل.

لكن محمود ليس حدأة.

محمود نسر مفترس.. يتخفى في ريش الحدأة.. ويصر على أن
يظهر ذلك.

أخرج هاتفه المحمول الذكي من جيب بنطاله الضيق، وراح يقلب
في صفحات مواقع التواصل بلا هدف، ثم أغلق النافذة وقال بلا أن
يلتفت:

- هل أنهيت قائمة المرتبات وملف التحويل البنكي؟

ليرد عبد الجواد بلا أن يرفع عينيه من الشاشة:

- منذ يومين.. وطبعتهما وأودعتهما الظرف البني الكبير.. حتى
توقعهما ونرسلهما إلى المستر كي يوقع بالاعتماد.

- ممتاز.

ثم التفت له وقال بلا مبالة:

- ضع الظرف في الدرج.. سأوقعه بعد غد.

- لماذا؟

- ليس من شأنك..

- لكن.. أنت تعرف أن غداً أول الشهر.. ونحن نحتاج إلى... إلى...
- قالها عبد الجواد مستنكراً.. جاحظ العينين.. واللعب يتجمع على طرف فمه في عصبية.
- بينما يتمشى محمود التهامي في حجرة المكتب بلا هدف وهو يقطع بشفتيه.
- لو احتجت إلى قرض صغير.. فأنا حاضر.. لكن الرواتب لن تُصرف قبل الخامس من الشهر.
- لماذا يا محمود؟ أقصد لماذا يا ريس؟
- جلس محمود التهامي على المقعد المواجه لمكتب عبد الجواد، ووضع ساقه القصيرة فوق ركبته، ثم ضم ياقة قميصه قائلاً في صلف:
- كي لا يتعود الموظفون صرف رواتبهم مبكراً.. ويظنوا أن ذلك حقاً من حقوقهم.. فيطالبوا به كل شهر..
- لكن حق من حقوقهم حسب قانون العمل هو صرف مرتباتهم في موعد أقصاه...
- ضحكة سخيفة عالية صدرت من حنجرة محمود التهامي، تبعها قرع متواصل بكف يده فوق سطح المكتب الخشبي.
- حق من حقوقهم؟!!
- راح يردد لها لنفسه ضاحكاً، بينما ينظر له عبد الجواد مندهشاً.
- الموظفون في الشركات كشركتنا يا جودة.. لا بد أن يبقوا على

تعلقهم بالشركة والشعور دائمًا باحتياجهم إليها.. وأن يبقى كل منهم يعمل بجد واجتهاد.. مؤديًا حق الشركة أولًا.. وعندما تقرر الشركة أن تمنحه مقابل أدائه لهذا الحق.. لا بد أن يكون ممتنًا أنها أنقذته من العوز والفقر.

ثم سرح بعينه على شهادة البكالوريوس المعلقة في إطار مذهب فوق الحائط المواجه له متابعًا:

- وأن يحمدوا الله.. ويقبلوا أيديهم شكرًا.. لأنهم يعملون في وظيفة في شركة تؤدي مرتباتهم في موعدها.. ولا تؤخر لهم شهرًا وشهرين مثل باقي الشركات.

- تتحدث كأنك صاحب الشركة.

- لأن هذا هو الواجب علينا.

ثم نهض من فوق المقعد وراح يجوب الغرفة كأنه يؤدي مشهدًا مسرحيًا كلاسيكيًا.

- صاحب الشركة وضعنا في هذا المكان أمناء على ماله.. ومن واجبنا أن نحافظ على هذا المال.. بل أن نُسهم في زيادته ونموه.

ابتسم عبد الجواد كاشفًا عن صف أسنان أبيض لامع وسط بشرته السمراء اللامعة.

- هذه هي القصة إذن.

- أي قصة؟

- الحفاظ على المال وزيادته..

- ماذا تعني؟

هز عبد الجواد رأسه وابتسامته لا تفارقه، ثم عاد بعينه إلى شاشة الكمبيوتر، وراح يضرب بأصابعه لوحة المفاتيح مجيبًا:

- إذا تأخرت الرواتب إلى الرابع من الشهر.. فسيضيف البنك فائدة إجمالي المبلغ.. وخمسة بالمئة ليست بالقليلة قياسًا بالرقم الموجود في الحساب..

- وجهك يوحى بالغباء الشديد.. لكنك تملك عقلًا يفكر في النهاية.

هز عبد الجواد رأسه مؤمنًا، ثم ضرب ضربة أخيرة فوق لوحة المفاتيح، فتصاعد صوت الطابعة الصغيرة تطبع ورقة ما.

بينما جلس محمود فوق مكتبه، وأمسك الهاتف، وراح يكتب رسالة على أحد تطبيقات الرسائل:

«مساء الخير يا مس كاترينا.. أبلغني الرئيس أنني سوف أنتظره في مكتبه بعد يومين.. كي يوقع لنا كشف الرواتب».

وبعد أن ضغط زر الإرسال، رأى العلامات الزرقاء، ثم جاءه الرد سريعًا:

«من الجميل أن تأتيك رسالة الاطمئنان هذه.. لكن الأجمل أن تصل الرسالة الأخرى في موعدها.. وأنت تعرف ما أقصده».

ابتسم ابتسامة ساخرة تليق بضيق جائع، ثم راح يرد على الرسالة بكلمات سريعة

«كل شيء تحت السيطرة.. لا تقلقي.. رسالة الراتب.. ورسالة ال...».

ثم وضع وجهها يغمز وأرسلها من دون أن ينتظر ردًا.

وعندما وضع الهاتف فوق المكتب، ورفع عينيه إلى أعلى، وجد صاحب ذلك الوجه الأسمر اللامع المبتسم.. يقف أمامه راسقًا نفس الابتسامة على وجهه.. ممسكًا بورقة مطبوع عليها توقيعه البسيط.

- ما هذا؟ أنت لا تحتاج إلى طلب سلفة.. فقط قل لي كم تحتاج وسوف...

- هذا ليس طلب سلفة يا محمود.. وأنا لا أحتاج إلى شيء منك ولا من غيرك.

أمسك الورقة بيده والدم يحتشد في أذنيه من لهجة عبد الجواد المقتحمة الجريئة، وقرأ العنوان في وسط السطر الأعلى:
«طلب إنهاء خدمات».

- ما هذا أيها المجنون المعتوه؟!

- من دون سباب وقلة أدب يا محمود يا تهامي.

- أتقدم استقالتك من أجل تأخير أربعة أيام على صرف الراتب؟!

- وقّع الاستقالة يا محمود.. ودعني أمض في سلام.. بالمناسبة.. بها أيضًا تنازل عن راتب شهر الإخطار المتبقي من عقدي..

أمسك محمود التهامي بالورقة وهو لا يفهم ما عليه فعله.

لكن عبد الجواد عاجله بنفس اللهجة المقتحمة التصاعدية:

- والأسباب كما وردت في الورقة أمامك.. لأسباب شخصية.

- هل يمكنني أن آخذ فكرة عن أسبابك الشخصية؟

- هذا ليس من شأنك ولا من شأن أحد..

ثم مال بجسده على المكتب، واختفت ابتسامته الواسعة:

- أنا رجل حر.. لست عبدًا لأحد ولست متعلقًا بأحد.. ولا أحد قادر على لي ذراعي بمال يدفعه لي مقابل عشر ساعات من العمل كل يوم.. بل على مَنْ يستخدمني أن يحمد الله كل يوم لأنه رزق بموظف مخلص أمين مثلي.. لا أن يستخدمني ليربح بضعة دراهم إضافية.. ويحرمني حقي.. وهو يبعثر الأموال في كل مكان على حفلاته الماجنة.. ورشاويه الملوثة لعملائه الكرام.

ثم نصب قامته النحيلة، وشد قميصه للأسفل مساويًا إياه وتابع:

- والآن.. وقّع الاستقالة والموافقة على تسوية شهر الإخطار.. ودعني أمض لحال سبيلي.. فأنا قد ارتكبت خطأ فادحًا ببقائي هنا بعد ما عرفتته ورأيتة.. والآن جاء وقت تصحيح هذا الخطأ.

- وماذا ستفعل بعد أن تخرج من هنا يا عم الثورجي؟! هل ستبقى عاطلاً تستجدي قوت يومك من أقاربك وزملاء سكنك.. ثم تربط أنشودة في ماسورة الدش.. وتنتحر من فرط اليأس؟!!

- الأرزاق على الله يا محمود.. والله لن يضيعني ما دمت اتقيته فيما أفعل..

ثم وضع كفيه في جيبه ورسم تلك الابتسامة على وجهه متابعًا:

- اتقيت الله يا محمود.. وابتغيت وجهه.. وليس وجه بسام

الأصيل.

- احذر من كلامك وزنه جيدًا يا عبد الجواد.

- نهايته.. توقيك إذا سمحت..

أمسك محمود بالقلم في عصبية، ووقع فوق الورقة بكلمات قليلة وهو يغغم:

- موافقة.. تتم التسوية حسب قواعد الشركة.

اختطف عبد الجواد الورقة من تحت يده، ثم أخذ القلم وخط كلمات قليلة فوق ورقة صغيرة من النوع اللاصق، ثم نزعها ولصقها أمام محمود على المكتب، محدثًا دويًا مرتفعًا:

- الرقم السري لجهاز الكمبيوتر.. كي تفتش فيه كما تحب.. وتبحث عما تصنع منه قضية ضدي..

- أصنع قضية ضدك؟! لا حول ولا قوة!

- لا تتصنع البراءة يا محمود.. قدم السيد نعمان ما زال يلوث يدك.. وتذكر...

ثم مال نحوه من جديد وهو يضغط على حروف كلماته:

- إذا فكرت أن تعبث معي.. أو أن تختلس فلسًا واحدًا من مكافأة نهاية الخدمة.. فسوف أفضح سيدك في كل مكان.. لذا اشترِ سكوتي بمنحي حقي.. صفقة رابحة لك وله يا محمود.. وليسامحني الله.

ثم عدل من وضع قميصه من جديد ورفع يديه ساخرًا، وحمل

مفاتيح سيارته الصغيرة، وخرج صافقًا الباب في عنف.

بينما جلس محمود التهامي يحدق في الباب المغلق لدقائق.

لطالما كان عقله محدود الذكاء قادرًا على استيعاب أغلب طباع البشر.

حتى إنه يعد نفسه خبيرًا في طباع وردود أفعال بني آدم.

لكنه دائمًا ما يقف عاجزًا عن فهم ردود أفعال كتلك التي يأتي بها هؤلاء المعاتيه.

الشرف.. الكرامة.. الحق.. العدل.

كلمات لا وجود لها في قاموس الحياة، ولا قيمة لها إذا وُزنت في كفة ميزان أمام المال والسلطة والنفوذ.

كلمات يتمسك بها معدومو الحيلة مثل عبد الجواد.

ومثل السيد نعمان.. الرجل الذي سبقه في حمل مفاتيح خزائن الأصيل.

ذلك الرجل الذي يشبه محاسبي الأفلام القديمة، بنظاراته السمكية وشاربه الرفيع المهندم، وعينييه اللتين تشعان عتًا وغباءً، وقامته البدينة المحنية، وأنفاسه المتلاحقة كلما تفوّه بجملته من ثلاث كلمات.

رجل رخو متهدل.. لا يصلح حتى أن يكون محاسبًا في بنك زراعي.

لكنه طيب القلب ورقيق الحاشية ويحب الموظفين ويفضل

مصلحتهم.

كل هذا كان من الممكن تقبله والتعامل معه بقليل من المداينة والالتفاف حول الحقائق.

لكن العيب الأهم هو الأمانة.

نعم، كان محمود يرى أن الرجل أمين أكثر من اللازم، وهذا في رأيه عيب خطير.

صاحب العمل لا يحب أن يرى أنه يخسر، ولا يحب أن يخبره كبير محاسبه أن قرابة ماله تنزف بلا انقطاع.

لذا، وعندما قرر الرجل أن يحمل ملفاته ودفاتره، ويذهب رأسًا إلى بسام الأصيل، ليخبره أنه يخسر بلا انقطاع، وأن مصروفات السهرات والعزائم والرشاوى والعمولات.. تستنزف حسابه في البنك وتزيد من أعبائه وديونه وفوائد قروضه المتراكمة.. جلس محمود التهامي أمامه راجيًا:

- راجع نفسك يا ريس..

- راجعت كل شيء أكثر من مرة يا محمود.

- لا أقصد الأوراق يا ريس.. بل أقصد ما تريد أن تنقله للريس الكبير.

خلع الرجل نظارته، وراح يلمعها بطرف قميصه الواسع.

- ماذا تعني يا محمود؟

- أعني ما يوجد في هذه الأوراق والدفاتر يا ريس.

- ما يوجد في هذه الدفاتر هي الحقيقة المطلقة.. الشركة تنزف الأموال بسبب المصروفات الإضافية.. ومن الواجب أن نوقف هذا النزيف.. وأن ننبه صاحب المال أن ماله يتناقص بلا توقف.

ضم محمود ياقة قميصه الأبيض الكتاني، وأشار إلى الدفاتر قائلاً:
- ولماذا لا نذهب إليه بدفاتر أخرى.. تحوي مصروفات أخرى يمكن تخفيضها.. من دون إثارة غضبه وسخطه؟

- ماذا تعني؟ يبدو أنني عاجز عن فهم ما ترمي إليه.
كاد يصرخ في وجهه أنه عاجز عن فهم أي شيء.. وأن من على شاكلته يرقدون الآن في المتاحف ملفوفين بكتان أبيض.



إلا أنه تماسك متابعًا:
- أنت تعرف أن الثمرات تشكل...

- تقصد المصروفات غير الضرورية.. فنحن لا نتحدث عن الأوراق والأقلام.. هذه ملايين تضيع بلا داع.

- هذه المصروفات ضرورية يا ريس.. ضرورة من أجل ازدهار الأعمال.

- ألا تزدهر الأعمال من دون الحفلات والرشاوى يا محمود؟!

زفر محمود في ضيق لم يخفه، وقال بصوت خافت:

- هذه شركة ضيافة وخدمات يا سيدي.. وهي لا تعمل إلا بتحسين العلاقات مع العملاء.

- وتحسين العلاقات لا يتم إلا بالحفلات المليئة بالمضيقات شبه العاريات وسفريات تايلند وسنغافورة؟!

ابتسم محمود ابتسامة ساخرة باهتة.. وهو يتصور رد فعل مديره المترهل الشريف عندما يعرف ما تفعله كاترينا حداد بالشيك الدسم الذي يحرره لها كل شهر.. على حساب مصروفات ترفيحية لرئيس مجلس الإدارة.

تنحنح محمود.. وراحت عيناه تجوبان حوائط الغرفة الواسعة وهو يقول:

- أنت تعرف العالم الذي أصبحنا نحيا فيه يا ريس.. وهذا العالم له قواعده وصفاته التي لا بد لنا أن نتماشى معها.

- أتماشى مع الفساد والمجون والخلاعة.. وأبتلع هذه الخسائر والاستهتار في التعامل مع أموال المساهمين؟! هل نسيت أن الشركة أصبحت شركة مساهمة منذ عام؟!

ضم محمود ياقة قميصه من جديد، وصار أكثر توترًا وأكثر رغبة في تحطيم رأس ذلك المترهل الذي أكل عليه الدهر وشرب.

أي مساهمين أيها العجوز المتهدل؟! إن مجلس الإدارة بالكامل كان ضيفًا في إحدى حفلات فندق الأصيل بلازا منذ يومين.. بل قد أمضى معظمهم ليلته في الفندق نفسه بعد أن...

- طيب.. لديّ حل آخر يا ريس.. استمع له أولًا قبل أن تذهب إلى المستر.. لربما غير وجهة نظرك.

- أي حل؟ هات ما عندك بسرعة.

مد محمود التهامي يده إلى الطاولة الصغيرة أمامه، وتناول ملفًا آخر به ثلاث ورقات على هيئة جداول مطبوعة ببرنامج الإكسيل، ثم مد يده به إلى نعمان قائلاً:

- هذه كشوف مرتبات فريق إدارة الخدمات.. وهي تشكل مبلغًا محترمًا يوازي ما يُصَرَّف من نفريات.. وهذه الإدارة، من واقع السجلات المحاسبية، تنفق مبالغ طائلة بلا عائد حقيقي حتى الآن.

- أتريد مني أن أفصل الموظفين وأقطع أرزاقهم.. كي أعوض خسارة الحفلات وفيديوهات أغاني المطربة اللعوب؟!

احمرت وجنتا نعمان البيضاءوان، وراح اللعاب يتطاير من فيه مغرقًا الأوراق أمامه.

- يبدو أنك مجننت يا محمود.. أو أنك أصبحت منافقًا بالسليقة.. حتى غلبك نفاقك فأصبحت بالفعل ترى الباطل حقًا والحق باطلاً.

- ولماذا الغلط يا ريس؟

- لأنك غبي.. غبي.

ثم وضع النظارة فوق عينيه من جديد، ونظر إلى محمود نظرة لن ينساها طوال عمره متابعًا:

- هذا القسم هو نواة لشركة رائدة.. ستصنع عملاً حقيقيًا وتأتي بمال حقيقي لهذه المجموعة.. مال نظيف بلا شوائب.. مال سوف يجعلنا في مصاف الشركات الكبيرة.. فقط هم يحتاجون إلى بعض الوقت وأن يتركوا إلى حال سبيلهم.

- لكنهم يكلفون الشركة منذ ستة أشهر أضعاف تلك المصروفات التي تعترض عليها وبلا أي عوائد.

- هذا ليس من شأنك يا محمود.. هذا القسم أنشأه أبو عدنان منذ ستة أشهر قبل أن يتوفاه الله إلى رحمته.. ولا أحد سيلمسه أو يقترب من موظفيه ما دمت بقيت في منصبي هذا.

إذن فقد اختار السيد نعمان الحل الوحيد لكل هذه المعضلات.

ما دمت بقيت في منصبي هذا.

وأصبح محمود يعرف أن اللحظة التي كان يخطط لها أصبحت قريبة جدًا، وأن عليه أن يتحرك قبل أن يكتشف الأخ نعمان كل شيء.

قبل أن يكتشف الأموال التي تُدفع لمن هم هنا وهناك.. كي تزدهر الأعمال وئباع أسرار المناقصات.

قبل أن يكتشف الأصول التي بيعت بلا أن تدخل أموالها إلى خزائن الشركة.

قبل أن يكتشف التجارة التي تديرها كاترينا حداد لصالح المستر الكبير.

قبل أن ينهار كل شيء فوق رأسه.

وساعتها فقط.. نهض محمود وقال ببساطة:

- تمام يا ريس.. كما تحب.. أنت المدير في النهاية.

وعندما أفاق من غفوة خواتره، وهو يحدق في الباب الذي صفقه

عبد الجواد خلفه منذ لحظات.

حسم أمره كما فعل يومها.

- حسنا يا سمارة.. أنت من اختار.. فلتتحمل نتيجة اختيارك.

ثم أمسك بالهاتف المحمول، وطلب رقما على قمة قائمة الاتصال السريع

ليجيبه الصوت الحاد الناعم الشبيه بصوت ببغاء هائج:

- ماذا تريد يا محمود في ساعة مثل هذه؟!

- أريد أن أقابل الرئيس..

- قلت لك إن اسمه مستر بسام.

- ليس هذا وقت المسميات يا كاترينا.. أريد أن أقابله لأمر هام.. أمر هام للغاية.

(6)

قبل الجريمة بسنة وشهرين

عواصف الخسائر تتوالى على رأس بسام الأصيل.

والعواصف المتتالية تتحول إلى أعاصير.. ثم إلى كوارث تبشر بتسونامي سيجرف كل ما صنعه في السنوات العشرين التي قضاها في الخليج.

كل شيء..

وفي مثل تلك الأوقات.. يظهر الأبطال المنقذون من عينة محمود التهامي.

أبطال المرحلة.

وإذا كان محمود التهامي محدود الإمكانيات، ولا يجيد إلا النفاق والرياء والتجارة بمصائر البشر من أجل مصير سيده وولي نعمته وصاحب جنته المنتظرة، فإنه كان ذكيًا بما يكفي ليعرف أن طريقه إلى الجنة سيمهده ما سوف يفعله خلال تلك الفترة.

خصوصًا عندما أحاطت التكهنات والإشاعات والتسريبات بأعمال مؤسسة الأصيل، وأصبح أعضاء مجلس الإدارة الكرتوني والمساهمون الغافلون أكثر عدوانية وتحفزًا، وتضاعفت مهماتهم الصامتة لتصبح صيحات، ثم تضاعدت أكثر لتصبح صرخات.

خصوصًا بعد أن اشترى أبو جاسم حصة كبيرة من أموال المساهمين، وصار أكثر تأثيرًا في مجلس إدارة المؤسسة النشطة.

وأبو جاسم هو مثال لرجل أعمال خليجي معاصر، رجل يرتدي الغترة والعقال والثوب فقط من أجل المظهر الشعبي العام والقرب من الأصالة، لكنه ذكي وطموح ومتعلم ويملك الكثير والكثير من الأفكار الثورية التي تقدر على نسف هذه المؤسسة وإعادة بنائها من جديد.

صقر جديد أكثر شبابًا وحيوية.. سيفارع الصقر العجوز على عرينه ومنطقة نفوذه.

وهنا لعب محمود التهامي دورًا لم ينسَه بسام الأصيل وجعله يقرب محمود إلى دائرته المقربة، ويصطفيه من ضمن إخلائه وحدائه الأثيرة.

حداة طويلة الأجنحة واسعة الحيلة.

كم من تقارير مالية غُيِّث بها لثُظهِر جدوى مشروعات خاسرة! وكم من تقارير أخرى غُيِّث بها لثُظهِر العكس، حتى يظهر أبو جاسم مجرد مستثمر خليجي لا يملك من مقومات الإدارة سوى المال الوفير والصلات الوثيقة بمراكز اتخاذ القرار.

حتى يُشاع أن وزير التجارة نفسه هو ابن عمه وزوج أخته الوحيدة حصة.

إشاعة كان مصدرها -ويا للعجب!- هو محمود التهامي نفسه!

وعندما باح بهذه المعلومة الخطيرة لكاترينا في إحدى السهرات التي تتراشق فيها الكئوس وتنام فيها العقول في غفلة، اتسعت عيناها العسليتان وقالت بصوت خامل:

- أنت صاحب الإشاعة التي هزت مجلس الإدارة.. وجعلته يقترب أكثر من أبو جاسم؟

- هذا فخر أدعيه.

- ولكن لماذا؟ هذه الإشاعة أسهمت في إضعاف مركز مستر بسام في مجلس الإدارة.. وجعلت أغلب أعضائه يميلون ناحية أبو جاسم.. ويتوددون له كالمراهقين في حضرة مطربهم المفضل.. حتى إنني سمعت أن أحدهم اشترى له ساعة بعشرة آلاف دولار.

ابتسم محمود التهامي وهو يصب لها في كأسها بعضًا من النبيذ، ثم أغلق الزجاجاة من دون أن يقربها؛ لأنه لا يقرب الخمر لحرمانيتها!

- هذه الإشاعة سيكون لها مفعول السحر بعد شهور من الآن.

- كيف؟! هذه الإشاعة قد تدمر سيطرة بسام الأصيل على مجلس الإدارة.

- هذه الإشاعة يا عزيزتي سوف تجعلنا نتخلص من أبو جاسم بضربة قاضية.. وستزيحه من موقع السيطرة القوي إلى موقع المرتعد الخائف.. لأنها ببساطة سوف تجعله يبدو في صورة البطل المنقذ لخسائرنا المتتالية.. وستجعلهم يعتمدون عليه بشكل كلي في جلب العقود الجديدة التي ستصدرها وزارة التجارة.. لأن الوزير نسيبه وابن قبيلته.. وعندما لا تأتي العقود.. ماذا سيحدث؟

هزت رأسها ببطء شديد وهي تجرع من كأسها كأنها تطلب منه أن يكمل فكرته.

- ستتوجه الأنظار نحوه.. وستبدأ الأسئلة في التصاعد.. لماذا يا أبا

جاسم، يا عزيزي، تتهم بسام الأصيل بأنه يضيع أموال المساهمين في المشروعات الصغيرة التي لا تأتي سوى بالفتات؟ لماذا واجهته في الاجتماع الأخير الذي عقدته في مجلسك الفخم، وطلبت منه أن يفسر للمساهمين وممثلهم قراراته الأخيرة بضرورة الاعتماد على صغار الموظفين في الحكومة وفي المؤسسات، كي يجلبوا لك عقودًا محدودة تديرها جميعًا بفريق صغير من الموظفين؟

- تقصد فريقًا صغيرًا من العبيد.

قالتها وهي تضحك ضحكة مبالغ فيها من أثر اهتزاز رأسها الجميل، ثم جرعت آخر جرعة من الكأس وهي تشير له بأصابعها المصبوغة بعناية فائقة.

- وعندها.. سيصبح أبو جاسم مطالبًا بفعل شيء معاكس.. وسيركض يمينًا ويسارًا باحثًا عن عكس ما يفعله الرئيس كي يعبت وجهة نظره وادعاءاته الباطلة في حق الأصيل.. وعندما يأتي بذلك العقد الكبير ويحمل على الأعناق.. سنكون نحن في طائفة خاصة جميلة.. وأموالنا وأموال سيدنا قد أخرجت من البلاد..

ثم ضرب كفيه ببعضهما كأنه يحيي نفسه بعد أدائه مشهدًا تمثيليًا بارعًا.

- خطة إلهاء وتشويش.. ستجعل الأنظار تتجه بعيدًا عنا.. بينما نبيع الأصول ونسيل الذهب والصكوك المتراكمة.. ونبيع الأسهم بأسعارها وليس بأسعار السقوط المدوي في عهد أبو جاسم.. ثم نرحل محلقين بدون أن ينتبه أبو جاسم ورجاله لما نفعله.

مصممت شفيتها وهي تحاول استساغة الفكرة، ثم جرعت من كأسها من جديد قائلة:

- أشك أنك تقدر على إقناع مستر بسام أن يُخرج فلسًا واحدًا من هنا.. ثم سيُخرجه إلى أين؟ إلى أوروبا مثلًا؟ مَنْ على شاكلة بسام الأصيل لا يصلحون للعمل في بيئة نظيفة.. بسام الأصيل يا عزيزي يتغذى على الفساد والمفسدين.. إنهم مصدر قوته.

نهض محمود التهامي من فوق المقعد العالي، وراح يجوب الحجرة الصغيرة في شقة كاترينا، و التي تخفي فيها مشروباتها عن أعين المتطفلين، ثم وقف أمام النافذة المطلّة على الأبراج العالية المضيئة. وبصوت خافت بالكاد سمعته، وبريق عينيه ينافس بريق أضواء المدينة الساطعة

راح يحكي لها خطته التي يعمل عليها منذ سنوات.

حكى لها كيف أن بسام الأصيل أصبح لا يعق في أيّ من المحيطين به سوى دائرته المقربة.. محاسبه المخلص الذي يكشف له السرقات التي يرتكبها مساعدوه ومديروه.. ويستعرض معه كل أسبوع كيف أن الحداء المحيطة بعربنه تخطف أفراخه الصغيرة وتلتهمها وتلقي ببقاياها في سلال المهملات.. وأصبح يكتشف كل أسبوع كيف أنه كان غافلًا منومًا.. وأن أمواله تنزف من أوردّة حساباته البنكية لأنه وضع ثقته في مجموعة من اللصوص..

وسكرتيرته وكاتمة أسرارهِ وراعية تجارتِهِ الموازية في الرقيق الأبيض.. التي تعرف جيدًا كيف تُميل رأسه المتصلب.. وتعرف جيدًا

كيف تزرع الفكرة فيه بعد أن يروي رغباته المريضة في أحضان
إحداهن كل ليلة.

وكيف أنها ساعدته كي يمضي في خطته التي احتاجت إلى عامين
كاملين كي تؤتي ثمارها.

- أنا ساعدتك؟! كيف ساعدتك؟!

- بأن كشفت لي نقاط الضعف في حصون الرئيس المنيعة.. وعندما
عرفتها.. اخترقت أسواره وزرعت في عقله فكرتي.. وصرت أرويهما
بانتظام كل أسبوع.. حتى كبرت وبدأت تثمر.

- نقاط ضعفه معروفة للجميع.. كل مَنْ يعملون حوله يعرفون
أنه يحب الخادومات.. ويحب معاشرتهم.. بل يحب أن ينهل منهم
بلا توقف.. ويستمتع بتوسلاتهم وبكائهم فوق سجاده الإيرانية
السميكة.. ثم يلقي بهم إلى الشارع بلا تفكير..

- لكني لم أكن أعرف السن المناسبة.. والجنسية المناسبة.. إلا
عندما طلبت مني تلك الفتاة الفلبينية ذات الضفيرة.. ساعتها عرفت..
كما...

ثم التفت لها وغمز بعينه الضيقة:

- كما عرفت مزاجك أنت أيضًا يا كاتري.

زمجرت غاضبة وهي تلقي بالكأس الفارغة فوق سجادتها العصرية
المستديرة.

- قلت لك ألا تناديني بهذا الاسم أبدًا.. وإلا شججت رأسك نصفين.

رفع يديه أمامه ملوحًا، ثم اقترب منها في هدوء وهو يمسك
بكتفيها العاريتين.

- خلاص خلاص.. قلبك أبيض يا كاتي.

- كلماتك السخيفة ذهبت بمفعول نصف الزجاجة..

ثم حررت كتفيها وأشعلت سيجارة رفيعة طويلة بيضاء الفلتر،
وقالت بفم ممتلئ بالدخان:

- وإلى أين تريده أن يُخرج أمواله بعد أن يصفى الأعمال هنا؟

- إلى بلد الفرص الضائعة.. إلى التربة الخصبة التي إن زرعت فيها
أعواد المعكرونة فستنبت أضعافها.

- المعكرونة لا تُزرع يا ألمعي!

- هذا تعبير مجازي يا كاتي.

نفثت دخان سيجارتها وهي تتفحص وجهه عريض الجبين ضيق
العينين متبلد المشاعر، ثم سأله وهي تنفث الدخان في ذات الوجه:

- تعني مصر بالطبع؟

- يعجبني ذكاؤك يا كاتي.

- أنت شيطان يا محمود.. لكنك شيطان لذيذ.. وأنا أحب الشياطين
مهلك.

ثم دفنت سيجارتها في قلب المنفضة شبه الممتلئة، وصبت كأسًا
جديدة وهي تسأله:

- وماذا تريد مني أن أفعل؟

- بعدما تأتيه بمختارة الليلة.. وعندما ينهي فورانه.. وعندما يستشيرك فيما اقترحته عليه.. عليك أن تجعله يقتنع تمامًا بهذه الفكرة.. بل عليك أن تجعله يصدق أنها فكرته هو.. وأن ما فعلناه هو مجرد أننا فهمنا عقله الراجح وأفكاره التي لا تُقدّر بمال.. وأن تؤيدي تلك التغييرات وتزكيها تمامًا..

- هذه لعبة سهلة صرت أجيدها..

ابتسم ابتسامة ساخرة لم تلاحظها من أثر غمامة الخمر التي بدأت تسود رأسها.

قوادة تفتخر أنها قوادة.

وهو لا يختلف عنها كثيرًا.

لكنه لا يأتيه بالفتيات كي يعاشرهن، ولا يختار له مختارات لياليه فوق البساط السميك.

هو فقط ينتقي الخادמות من مكتب جلب العمالة، ويشحنهن بصحبة الأخ فراس إلى المنزل.

ما يفعله بعدها بخدمه ليس من شأنه ولا يورق رأسه الخاوي.

- وكل التغييرات التي سنقترحها على الرئيس ستنفذ من فورها.. فهو المدير التنفيذي للشركة.. وعندما يلتفت السيد أبو جاسم إلى شركات الأصيل.. سيجدها قد تحولت إلى خرائب خاوية على عروشها.. وسيغرق في خسائرها الفادحة والديون التي توشك أن

تقصف عمرها.. سنكون نحن في مصر نغرق في النعيم.. وسيكون السيد بسام الأصيل قد نجا من معركة الصقور.. هناك فقط أمر أخير.
- وما هو؟

أخرج علبة سجائر أجنبية شهيرة، كان من ضمن أحلامه عندما جاء إلى الخليج أن يكون قادرًا على شرائها، وأخرج منها سيجارة أشعلها بقداحة كاترينا المعدنية الفاخرة، ثم تابع وهو يتفحص القداحة في إعجاب:

- سمارة الإثيوبية..

- أيبا.. ما لها؟

- هي تعرف أنك... يعني... أنك... أنت تفهمين مقصدي.

- وماذا في ذلك؟ بسام الأصيل نفسه يعرف ذلك.

- وهل تعرف أن الفتاة التي خرجت من غرفتك منذ ساعتين.. ومن على شاكلتها.. يأتون من طرفي.

- وماذا في ذلك؟

نظر نحوها مندهشًا، ونفت دخان السيجارة من فمه الواسع من دون أن يمر الدخان على صدره:

- ألا تخافين أن تخبر الرئيس بما يحدث بيننا؟

- أيبا ذكية ونبيهة ومخلصة.. وتريد الأموال لأجل أهلها في بلادها ولأجل سداد الدين الذي أتى بها إلى الخليج.. وهي تعرف جيدًا متى تتكلم ومتى تصمت كالتمثال..

ثم اقتربت منه وهي تضع كف يدها على وجهه الأملس الحليق.
وعيناها تقولان كل شيء.

- أين هديتي؟

نظر في ساعة يده السويسرية التي اشتراها من أموال سيده
المنهوبة، ثم رفع عينيه نحوها وهو يربت على يديها النائمة فوق
خده:

- على وصول يا كاتي.. الهدية على وشك الوصول.

(7)

مساء اليوم الثاني بعد الجريمة

صمت محمود الاتهامي، ثم رشف رشفة جديدة من كوب الشاي زائد السكر.

كوب الشاي السابع منذ الصباح وحتى الآن. هذا الرجل هو إسفنجة شاي بالمعنى الحرفي للتعبير.

ثم نظر نحوي راسقًا على وجهه علامات البلاهة المصطنعة كأنني أستجوب ممثلًا في فيلم كوميدي رخيص.

- لماذا توقفت عن الكلام؟

- تعبت من كثرة الكلام يا سيدي.. وحضرتك يعني لا تؤاخذني.. لا تبدي أي رد فعل.

ممثل في مسرحية تجارية رخيصة.. لاعب في سيرك جوال يحتاج إلى أن يصفق له المشاهدون.

- عن أي رد فعل تبحث يا سيد محمود؟

هز كتفيه في غباء وهو يرشف بصوت مسموع من كوب الشاي.

- أي شيء يا سيدي.

- هناك الكثير من الأشياء في الواقع.. لكنك لن تحب سماعها.

- جرّبني إذن.

ثم ابتسم في بلاهة.

أعتقد أن التعبير الشعبي المبدع «كلاحة»، والذي تستخدمه عائشة زوجتي كثيرًا، هو أصدق تعبير يُعبّر عن هذا الوجه الجالس أمامي على الناحية الأخرى من المكتب الخشبي.

- أنت يا سيد محمود رجل مكافح.. كافحت كثيرًا بكل الطرق غير المشروعة حتى تصل إلى مبتغاك.. سرقت وزورت وكذبت وزيفت الحقائق وتلاعبت بمصائر كل من استأمنوك عليها.. حتى تحولت إلى شيء لا أعرف له توصيفًا دقيقًا.. ربما هو مزيج من النصاب والألعاب والمهرج والقواد.

- قواد؟! ولماذا السباب يا سيدي؟!

ابتسمت ابتسامة ساخرة واسعة، تحولت إلى ضحكة متصاعدة راح جسدي يهتز معها كتاكسي أرياف قديم.

- كل هذه الصفات لم تُر حفيظتك.. وأثارته لفظة قواد؟!

ثم صمت ورميته بنظرة جمدت الدم في عروقه، إذا كان هناك دم بها.

- ما حكيته لي الآن يا سيد محمود لا يُفسّر إلا بذلك.. من يأتي بالفتيات المغتربات اللاتي اقترضن بالدين كي يسافرن إلى دول النفط من أجل بضعة أموال وأمل في حياة نظيفة.. ويُسهّل لولي نعمته انتهاكهن وهن صامتات خشية انقطاع أرزاقهن.. لا أعرف له مسمًى آخر..

ثم رحت أشخبط بقلمي الحبر فوق الورقة الخاوية أمامي في عصبية كعادتي مؤخرًا وأنا أتابع:

- يبدو أن أبيبا صدقت في كل ما قالته.

كأنما قرعت جرسًا معينًا في عقله المريض، رفع عينيه نحوي منتبهًا، وقال:

- سمارة.. ماذا قالت لك سمارة؟

- اسمها أبيبا لو لاحظت ذلك.. ويبدو أنها العنصر الوحيد النظيف في هذه القضية.

- أبيبا هي العنصر النظيف؟!

قالها وهو على وشك إطلاق ضحكة ساخرة، لم يقوَ على كتمها كثيرًا، فراحت تتسرب من بين شفثيه وهو يحاول جاهدًا أن يكتمها، ليُفاجأ بقبضتي تضرب المكتب بلا داعٍ.

- اصمت يا هذا واحترم ذاتك.. ما الذي يضحك في كلامي؟!

- ما قلته حاليًا لا علاقة له بالواقع يا سيدي.. وهذا هو سبب ضحكي.. سامحني.

ثم ضاقت عيناه وتجدد جبينه والتقى حاجباه في سخط.

- سمارة كانت تعرف كل شيء وتعرف حب الرئيس للخادومات.. ولذلك لم تتوقف عن استغلال ذلك للحظة.. خاصةً وأنها.. أنها...

ثم صمت وانكسرت عيناه في ورع مصطنع متابعًا:

- ربنا يستر على ولاياك يا سيدي.

- بمعنى؟

رفع عينيه نحوي، ورأيت فيهما بريق عيني الضبع الذي تقاطعت
ساقاه أمام أسد غاضب.

- أبيبا لم تكن عذراء.. وهذا ما سهل لها الأمر كثيرًا.. حتى إن
الريس كان يطلبها في حجرته كثيرًا.. خصوصًا عندما رجعنا إلى
مصر.. وأصبح الأمر أصعب.. فأنت تعرف أن الفتيات هنا قليلًا ما...

- اصمت.. اصمت أيها القواد، لا أريد المزيد من كلماتك.

ثم انتفضت ناهضًا في غضب وأنا ألوح بيدي في وجهه الشبيه
بوجه الشمبانزي.

- أقسم بالله العظيم إن لم تتوقف عن قيء كلماتك هذه أمامي..
لأجعلك تبتلعها وتبتلع لسانك خلفها.

- رفقًا بي معاليك.. فما أقوله ليس بلا دليل.. ويمكن للطبيب
الشرعي أن يتأكد من أنها لم تكن عذراء.. بل أزيدك من الشعر بيثًا..
لم تكن مجرد ملاك في جنة بسام الأصيل.. بل إنها كانت أكثر
المستفيدين من وفاته.

كنت على وشك تحطيم رأسه فوق خشب المكتب.

لكن عقلي المتشكك طلب من أطرافي أن تهدأ.

حتى وإن كانت الفتاة رقيقة هادئة صادقة، أو تبدو أنها كذلك يا
كمال.

فهل هذه أول مرة ترى فيها مجرمًا عتيد الإجرام، يبدو كحمل
وديع وهو يحكي مأساته اللعينة، وهو يخبئ وراء وجهه وجه ذلك

الشيطان الذي لا يتورع عن فعل كل الموبقات.

بل ربما كان محمود التهامي هو أكثرهم صدقًا، لأنه ببساطة واضح لا يخفي شيئًا.

بل يعترف بكل شيء بمنتهى البجاجة.

لذا التففت حول المكتب في هدوء، وجلست أواجهه، ثم رفعت ورقة من فوق مكتبي لوحت بها في وجهه.

- إذا كان هناك مستفيد رئيسي يا سيد محمود.. فهو بالتأكيد ليس أبيبا ولا كاترينا حداد.. بل أنت.

- ماذا تعني يا سيدي؟

- هذه الورقة.. ومثيلاتها.. هي عقود بيع لشركات وأصول مملوكة لبسام الأصيل.. أتعرف لمن باع بسام الأصيل هذه الأصول منذ شهرين يا سيد محمود؟

رسم تعبیر البلاهة المعتاد منه على وجهه البيضاوي، ثم تناول الورقة وراح ينظر لها مضيّقًا عينيه، ثم عادت ابتسامته البلهاء إلى وجهه.

- هذا عقد ابتدائي ببيع فيلا الساحل.. وهذا عقد بيع شركة الإنتاج السينمائي.. أما هذا فهو عقد...

- لو لاحظت.. فأنا أعرف جيدًا كيف أقرأ.. لذا أخبرني.. ما الذي يدعو بسام الأصيل لبيع شيء لخادمه الأمين.. ثم يحتفظ بالعقود داخل خزانته المصفحة؟ بالنسختين الكاملتين من العقود.. حتى إنه

لم يسجلها قَط.. رجالنا تأكدوا أن هذه هي النسخ الوحيدة منها.. أي أنه لإثبات البيعة.. لا بد من وجود إحدى هذه النسخ مع المشتري الوهمي.. قل لي إذن يا سيد محمود.. لماذا باعك بسام الأصيل فيلته العملاقة في الساحل.. وشركة إنتاجه السينمائي التي تُنتج خمسة أفلام في السنة؟

- كان هذا اقتراحي.

أشرت له بطرف إصبعي كي يسرد أكثر، وأنا أريح ظهري على المقعد وأمد ساقَي المتييسة من كخرة ثنيها تحت المكتب.

الريس كان يعمل في الخليج بلا ضرائب وبلا أي مصروفات حكومية سوى ما يلزمه لتجديد سجلاته التجارية فقط.. وعندما جاء إلى مصر.. فوجئ بذلك الكم من الضرائب والمصروفات الرسمية.. ولأن الريس لا يحب الرسمية.. فاقترحت عليه أن يبيع بعض شركاته وأصوله بشكل صوري.. حتى يحصل على بعض الإعفاءات.

- لكنك تعرف أن هذا لن يمنحه أي إعفاءات.. تعرف هذا جيدًا لأنك خازن بيت المال.

- لكنه لا يعرف ذلك.. وعندما يسجل العقود وتتم البيعة بشكل رسمي.. كنت سا..

قاطعته بإشارة من يدي وقلت ساخرًا:

- كنت ستعتبرها مكافأة نهاية الخدمة.. وكنت تظن أنك ستفلت بالصيد الثمين بلا عواقب.. لكنك عرفت أن سيدك ثعلب عجوز..

يعرف جيدًا كيف يجد طريقه وسط الأفخاخ الرسمية هنا.. وعرف ليلة مقتله أو ربما قبلها بليلة أو ليلتين أنك تخدعه.. لذا فقد استدعاك إلى جنته.. وكال لك ما تيسر له من كلمات بذیئة من خلفيته في حواری بغداد.. ثم طردك من جنته غیر مأسوف علیك.. وعندها.. قررت أن تنهي الأمر بطریقتك.. وبعدها تفتح الخزانة بالرقم السري الذي عرفته بطريقة لا تصعب على قواد مملك..

ثم ملت بجسدي نحوه متابعًا في هدوء وأنا ألهث من فرط أدائي الهولمزي التصاعدي:

- لكن الفتاة المسكينة دخلت الغرفة.. وكادت تكتشف جريمتك.. وعندما استدعت كاتمة أسرارہ.. كنت تنتظر مكالمتها.. وكنت مستعدًا لإخفاء سلاح جريمتك.. عندما طردت الفتاة من الغرفة.. وقبل أن تصل الشرطة.. أخفيت سلاح الجريمة.. لكي تبتعد التهمة عنك.

نظر نحوي في هلع حيواني، كأنه ابن عرس وقع في فخ صياد ماهر، وراح جسده يرتج وهو يقول بصوت متلكئ متردد:

- أي سلاح جريمة وأي... أنا لم أكن في الفيلا.. كنت جالسًا مع أحد الأصدقاء في أحد المقاهي في أكتوبر.. وعندما كلمتني كاترينا.. هُرعت من فوري إلى الفيلا.. ووجدت الرئيس واقفًا على وجهه غارقًا في دمائه.. والسكين الطويلة إلى جواره فوق السجادة.. فطردنا الفتاة من الغرفة كي تتوقف عن الصراخ والعيول فوق جسد الرئيس.. وطلبنا الشرطة فورًا.

- أي سكين أيها القواد؟! عندما جاءت الشرطة لم تجد أي سكين.. وكان جسد سيدك ممددًا على السجادة وبقعة الدم إلى جواره..

وليست تحته.. بمعنى أن جسده تحرك من مكانه..

- أقسم بالله إن جسده كان نائمًا ممددًا على وجهه.. والسكين واقعة إلى جواره وبقعة الدم أسفل.. ولم نحركه أنا وكاترينا من مكانه.. بل خرجت أنا من الغرفة فورًا بعد أن اتصلنا بالشرطة.. حتى إنني صورت جسده الواقع على الأرض.. فشتمتني كاترينا وطردتني من الغرفة ناعته إياي بالمريض السيكوباتي.. وبقيت هي معه في الغرفة حتى قبل أن تصل قوة الشرطة بلحظات.

- وأين هذه الصورة؟

أخرج هاتفه المحمول من جيبه وراح يعث على شاشته، حتى وصل إلى صورة ما، فأدار الهاتف نحوي.

وبلا أن ألمس الهاتف، رحت أطلع إلى الصورة وحاجباي يصطدمان ببعضهما من فرط التركيز.

صورة جسد بسام الأصيل الممدد على السجادة، وبجواره سكين طويلة مخضبة بدمائه النجسة، بينما بقعة الدم تنتشر تحت جسده الضئيل.

نهضت مسرعًا، واختطفت ملف القضية المليء بصور مطبوعة فوق ورق لامع، ورحت أقارن وضعية الجسد بين هذه الصورة، وبين صورة لجثمانه التقطها رجال المعمل الجنائي.

هذا الوغد وتلك الفتاة الإثيوبية التي تبدو مسكينة كانا محقين تمامًا.

الجسد تحرك من موضعه، وبقعة الدم التي كانت أسفل جسده

صارت إلى جواره، واختفت السكين من جوار الجسد، وبالطبع غطى
الدم على إثرها فوق السجادة.

اللعنة عليكم جميعًا!

هذه القضية لن تُحل بتحليل أحداث هولمزي يا كمال، فلسنا في
مسلسل تبثه إحدى المنصات.

اللعنة عليكم!

رفعت سماعة الهاتف واتصلت برقم من ثلاثة أرقام أحفظه عن
ظهر قلب.

- ناصر.. تعال إلى مكتبي.. وأحضر معك جنديين وكيس أدلة
بلاستيكيًا..

ثم وضعت السماعة في عنف قبل أن يجيب، ورحت أنظر إلى ذلك
التهامي بعينين فاحصتين.

هذا الوغد القواد اللعين.. ربما كان قوادًا وفاسدًا وأشبه بضبع
ينهش في جثة عفنة.

إلا أن تعابير وجهه تقول إنه صادق.

صادق للغاية.

جلست خلف مكتبي وأنا لا أنزل عيني من وجهه، بينما راح جسده
يرتعش وهو يضم ياقة قميصه إلى رقبته في عصبية.

عقدت كفي فوق المكتب وأنا أقول في هدوء:

- قلت لي منذ لحظات أن أبيبا هي أكثر المستفيدين من موت بسام الأصيل.. لكنك لم تخبرني لماذا؟

- لم تعطني الفرصة لأوضح معاليك.

- إذن أخبرني.. ماذا كنت تريد أن تقول؟

ضم ياقة قميصه من جديد، ثم مد يده في جيب بنطاله الضيق، وأخرج مظلوفًا أبيض مكرمشًا، وضعه أمامي على المكتب.

- ما هذا؟

- هذا الدليل على كلامي يا سيدي.. أو نسخة من الدليل.. وهذا هو الدليل على أن أبيبا هي المستفيدة الرئيسية.

فضضت الورقة من داخل المظلوف، وجابتها عينا في سرعة.
عقد زواج عرفي.

طرفا الزواج.. بسام الأصيل.. عراقي الجنسية يقيم في فيلا الأصيل بمدينة أكتوبر الجديدة.. ويحمل جواز سفر رقمه إلخ إلخ.

والزوجة كانت...

أبيبا جيميريه.. إثيوبية الجنسية.. تقيم في فيلا الأصيل وتحمل...

اللعنة عليك أنت يا كمال!

هذا ما قد يقلب القضية كلها رأسًا على عقب.

رحت أقلب العقد في يدي مع صور جوازات سفر الأصيل وأبيبا..

وما إن رفعت عيني من الورقة، حتى صدمتني نظرة الانتصار في عيني محمود التهامي.

- صدقتني الآن معاليك.

صوت قرع مذهب على الباب، فصدر أمر الدخول من بين شفتي خافتًا سمعته بالكاد.

فُتح الباب ودخل ناصر ومعه جنديا خدمة هزيلين، فأدى تحية مرتجلة سريعة، وناولني كيس الأدلة البلاستيكي، فأشرت لمحمود التهامي بيدي، ليفاجئني بنظرة بلهاء حقيقية هذه المرة.

- هاتفك المحمول.

- لماذا معاليك؟ لماذا؟

- لأنه أصبح دليلًا الآن على العبث بالجثة والعبث بمسرح الجريمة.

ثم رفعت صوتي صائحًا:

- هاتفك المحمول لو سمحت.. ولا تنس إزالة كلمة السر منه.

أمسك هاتفه وراح يعبث بأصابعه فوق شاشته، ثم ناولني إياه بيد مرتعشة، ففتحت الكيس البلاستيكي ليسقطه داخله، ثم أغلقته في هدوء وناولته لناصر قائلاً:

- خذ هذا إلى المعمل الجنائي من ضمن أحرار القضية.. واطلب منهم أن ينضم تقرير تفرغ محتوياته إلى التقارير التي سئسلم للنيابة صباح الغد.. ولا تنس أن تضع السيد محمود التهامي في زنزانة تليق به في تخشيبه القسم.. لأنه سيُعرض على النيابة بعد غد

عندما تكتمل التحقيقات.

ثم منحت محمود التهامي ابتسامة سمجة باردة، فتقدم جندي الخدمة منه، وأمسكه من ذراعه ليرغمه على النهوض، فنهض بلا كلمة واحدة.

وغادر معهم الحجرة بلا أن تتغير تعابير وجهه البلاء.

بينما وقف ناصر أمامي منتعشًا واسع العينين حليق الذقن.

- يبدو أنك لم تنم من جديد يا كمال باشا.

- منذ أن بليت بهذه القضية وأنا أنام في السيارة فوق المقود أو أغفو فوق مكتبي هنا.

- هذا أفضل من لا شيء.

تذكرت كلمات عائشة زوجتي في فورات غضبها المتعددة.

كيف كانت تتهمني دائمًا بالانحياز النفسي إلى تقمص شخصية الضابط المخلص المجتهد، الذي لا ينام ولا يأكل ولا يشرب ولا يرتاح حتى يحقق عدالته المزعومة.

وإن العالم ليس عادلًا أبدًا، حتى أظن أنني ذلك الفارس المغوار الذي سيحل العدالة فيه.

حكيمه هي عائشة. حكيمه لدرجة لم أعهدا في امرأة مثلها.

- سأحضر عشاء من مطعم الفول الجديد في الحصري.. هل تتعشى

معي؟!

نظرت له شاردًا وعقلي يسترجع أوامر عائشة لي صباح اليوم أن
أكل شيئًا على سبيل الإفطار.

وأنا لا أحب أن أغضب عائشة.

لذا سأكل شيئًا على سبيل العشاء.

- فول بالزيت الحار.. وفول بالبيض من دون سلطة.

- هذا هو الكلام المفيد إذن.. أوامرك يا باشا.. آه.. ومن دون بصل..
أعرف التعليمات.

ثم أدى تحية كوميدية وضم سترته فوق جسده الممشوق، وهم
بمغادرة الغرفة لولا أن أوقفته صيحتي الخافتة المكتومة.

- ناصر.. انتظر.

- أوامر معاليك.

- لا تنس أن تضع أبيبا في الحجز النسائي.. واجعل بشير يخبر
عطيات أنها تبغي.. وأني أريدها سليمة حتى عرضها على النيابة.

- وما الذي غير رأيك بسرعة في أمر حجزها؟

رفعت يدي بصورة عقد الزواج نحوه، فتناولها في حرص وراح
يمرر عليها عينيه اللتين تتسعان في دهشة.

- الخادمة.. يا بنت المرأة الش...
...

- ناصر.. لا داعي لهذه الكلمات هنا.. نَقْذ الأوامر بلا كلام كثير لا
طائل منه.

أعاد الورقة لي وتنحنح ناصبًا قامته قائلاً في رسمية:
- أوامرك كمال باشا.

ثم استدار مغادرًا الغرفة، إلا أنني تابعت بصوت مرتفع:

- وأرسل قوة من القسم للبحث في تلك الفيلا من جديد.. أريد أن أعرف أين ذهبت هذه السكين اللعينة، فالقاتل بغير شك لم يستطع أن يتخلص منه بعيدًا في الوقت الذي يفصل بين اكتشاف الجثة وبين وصول شرطة النجدة إلى الفيلا.

- ماذا تعني؟ لا أفهمك!

- نَقُذ الأوامر أولًا.. واثنتنا بالعشاء ثانيًا.. ثم سأخبرك بكل شيء..

أوما برأسه طائعا، ثم استدار للمرة الثالثة، وغادر الغرفة مغلقا الباب خلفه.

تاركا عقلي يدور من جديد.

أين ذهب سلاح الجريمة؟!

أين؟!

الفصل الثالث

كاترينا حداد

(1)

صباح اليوم الرابع بعد الجريمة

جلس ناصر أمامي يلتهم شطيرة جبن بالطماطم، مؤثراً سلامة معدته الرقيقة التي تليق بمراهقة في الثانوية، وذلك بعد أن كاد يُصاب بالتسمم من وجبة الفول بالبيض التي التهمناها مساء أول أمس.

وجبة جعلته يقضي ليلته في طوارئ مستشفى الشرطة، بينما قضيتها أنا في حمام بيتنا في المنيل، أستمع لتقريع عائشة ولومها لي على ما أسمته «المرمة» بينما معدتي تطرد ما فيها بلا توقّف.

وبينما كان ناصر نائماً في بيته يرتاح، وقوة الشرطة تفتش الفيلا وحديقتها الغناء طوال اليوم.

كنت أنا جالساً إلى مكتبي بذقني النابتة وعينيّ اللتين خاصمهما النوم بسبب الإسهال وتقريع عائشة، تقرأن كل ما ورد من تقارير وتحريات.

ويدي تضرب الحروف فوق شاشة هاتفي المحمول محاولة الوصول إلى وسيلة تحضر بها الآتسة كاترينا حداد التحقيقات، من دون أن نصطدم بسفارة جواز سفرها الكندي القوي، والذي يحميها من الوقوع تحت طائلة سلطتي الشرطية المحدودة.

وبعد أن أقسمت للسيد رئيس المباحث بأغلظ الأقسام والأيمان، وأقسم هو لمساعد الوزير، وأقسم مساعد الوزير للوزير، وأقسم الوزير لمندوب السفارة أن الآتسة حداد سوف تُعامل معاملة كريمة

وسيحقق معها في أجواء ودية تليق بإحدى رعايا جلالة الملكة وحكومتها، وافقت السفارة على حضور الأنسة كاترينا حداد للتحقيقات صباح اليوم.

وهي الآن تنتظر معززة مكرمة في غرفة مكيفة بجوار غرفة مكتبي.

وبفهم مليء بالجبن والطماطم، راح ناصر يقرأ من التقارير أمامه.

- الخلاصة أن القوة لم تعثر على السكين في حديقة الفيلا.

- ولا حتى أي أثر لأي شيء آخر.. ولا حتى أصل عقد الزواج العرفي الأصلي.

- وتقرير.. إحم.. فحص العذرية.

قالها وهو يبتلع الطعام كله ليحتقن وجهه الوسيم، مبتلعًا معه كلماته عن ذلك الفحص المقرز الذي اضطررنا لتطبيقه على أبيبا بعد كلمات التهامي.

اللعنة عليهم!

- الطبيب الشرعي أكد معلومة ذلك الملعون.. بل إنها.. حامل في الشهر الأول.

- أوبا.. هذه مفاجأة جديدة.

ثم تناول كوب ماء من فوق الصينية المعدنية، جرف به بقايا شطيرة الجبن المتوقفة في حلقه.

بينما رحت أشرب بقايا كوب القهوة الثقيلة، ولعقت بلساني بقايا

البن العالق على طرف شفتي.

بينما عيناى تراقبان وجه كاترينا حداد الحاد، وعينيها العسليتين،
وأنفها الشبيه بتمثيل البطالمة، في تلك الصورة التي أمسكها بيدي.

- جميلة وجذابة.. أليس كذلك؟

قالها ناصر وهو يشير بطرف إصبعه نحو الصورة الكبيرة،
فقطقت بشفتي ممتعًا

- لا تبدو جذابة في نظري.. هي جميلة ذلك الجمال الحاد القاسي..
وأنا لا أحب هذا.

أجبتة وأنا أقارن جمالها القاسي الشرير بوجه عائشة المستدير
المكتنز الصبوح.

- وكيف تنوي أن تدير التحقيق معها؟

- بالطريقة المعتادة.. أسأل وهي تجيب.. مثلها مثل غيرها.

- سامحني.. هذا ما لن تستطيع فعله.. خصوصًا في حضور مندوب
السفارة الشبيه بالكلب البولودج.. سيضيّق الخناق عليك مثل
المحاميين في مسلسلات الجريمة البريطانية.

رحت أخبط كفي ببعضهما، وأنا أزفر متأفّفًا من تلك التعقيدات
التي لا أفهمها!

- مشتبّه بها في جريمة قتل.. ماذا ينتظرون مني أن أفعل؟! أطلق
لها المدافع تحية لها؟!

- لا.. لكن لا بد من التعامل مع هذا الأمر ببعض الحيلة.. ما علينا..

اترك هذا الأمر لي.. سوف أتصرف.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

نهض من فوق المقعد وهو ينفذ ثيابه من أثر الخبز البلدي المليء بالنخالة، ثم أغلق أزرار سترته الخفيفة متابعًا:

- اترك هذا الأمر لي.. فقط جهّز نفسك لها.. ستكون بمفردها في مكتبك بعد عشر دقائق.

- من دون إحراج لي أو لرئيس المباحث يا ناصر.. أرجوك..

- كن واثقًا في قليلًا يا باشا..

ثم التفت وغادر الغرفة بلا كلمة أخرى.

وبينما أجلس منتظرًا دخول سيدة القصر عليّ بمفردها كما وعدني ناصر، فضضت المظروف البني الصغير الذي يحوي صورة تقرير الطبيب الشرعي، والتي وردتني بطريقة ودية من خلف رأس السيد وكيل النيابة.

وبينما تمر الدقائق، رحت أمرار عينيّ فوق السطور، وهما تتسعان وتضيقان من غرابة ما أقرؤه.

الطبيب الشرعي وجد علامات تشير إلى وجود مادة غريبة في جسد الفتوفى.. دخلت إلى جسده عن طريق الفم.. ربما تكون سمًا أو مادة ما أدت إلى وجود علامات في إلخ إلخ إلخ.

ثم يرى الطبيب الشرعي أن تحليل السموم ضروري، وكذلك تحليل عينات من إلخ إلخ.

ماذا يعني هذا الكلام؟

الطبيب الشرعي ما زال غير مستقر على سبب الوفاة؛ إنه توقّف
الدورة الدموية نتيجة نزف حاد تسببت فيه طعنة نافذة بسكين
مزدوجة النصل طولها حوالي عشرين سنتيمترًا.

لماذا ما زال الطبيب الشرعي حائرًا في سبب الوفاة.
الأمر واضح وضوح الشمس.

ألقيت بالتقرير فوق المكتب، وعقدت كفيّ تحت ذقني وأنا أزفر
في ملل.

حتى الطبيب الشرعي لا يريد للقضية أن تنتهي.

يا ترى ماذا ستقول عائشة في أمر مثل هذا؟

رفعت هاتفي إلى أذنيّ لأستمع للرنين المتقطع، ثم صوت عائشة
نصف النائم.

- صباح الخير.. كيف حال معدتك أيها «المرمام»؟

- أنا بخير.. أفطرت جبّنًا بالطماطم.. وأنت كيف حالك؟ إجازة؟

- المدارس في عطلة لو كنت لم تلاحظ ذلك.. لكنني لم أعد أندهش
عمومًا.. فلو كنت جمّة ترقد أمامك مغطاة بالجرائد بجوار سور
إحدى الفلل الفاخرة.. لاحظت حتى لون طلاء أظافري.

كدت أخبرها بأني أحفظ اللون ودرجته ورقمه في قائمة الألوان،
إلا أنني آثرت الصمت تاركًا لها ذلك الثقب الذي تنفّس به عن ضيقها.

- هل انتهيت؟

- ما زال لديّ الكثير.. فالأمر أصبح مثيرًا لل... لل...

ثم صمتت تبحث عن كلمة مفيدة، لكنني لم أبحث كثيرًا.

- أيّا كان.. أنتِ تعرفين أنني لا أحفظ مواعيد العطلات في المدارس.. فليس لدينا أحد يذهب للمدارس كي أحفظ مواعيد المدا...

- أنت رجل معدوم القلب.

صرخت بها في الهاتف مقاطعة كلماتي الشبيهة بحد السكين.

يا لي من رجل معدوم القلب بالفعل!

أم ربما هو أثر قلة النوم وألم المعدة الذي لم يختف بعد.

- لا أقصد... كنت فقط...

- نهايته.. تقصد أم لا تقصد.. هذه هي الحقيقة.

ثم تنهدت تنهيدة كادت تحرق خطوط الهاتف المحمول كلها متابعة:

- هل حققت مع الحرباء اللبنانية؟

- كندية يا عزيزتي.. هي كندية للأسف.

- أبواها لبنانيان.. وإن كنت لا أتوقع أن تكون القاتلة.. فالسيدات في لبنان لا يقتلن.

ثم ضحكت محاولة أن تداري نبرة التهيج في صوتها.

- لبنانية.. أيًا كانت جنسيتها.. فهي متهمة في جريمة قتل.

- إن كانت كندية.. فأرجو أن تترفق بها في التحقيق.. حرصًا على سلامة وظيفتك.. فلن أطيق زوجًا قاسي القلب عديم المفهومية وعاطلاً عن العمل.

- أكرم الله أصلك.

ضحكت الآن بملء فمها، ثم تمت لي يومًا كوجهي، وأغلقت الخط. وبينما أنظر لصورتها الرابضة على سطح الهاتف المحمول، وإلى ضحكتها المشرقة، قُرع الباب قرعة رسمية مهذبة.

- ادخل يا ناصر.

صحت بها رافعًا عقيرتي الخشنة، ثم تنحنحت مع فتح الباب ودخول مَنْ خلفه.

كان ناصر بقامته الممشوقة الخالية من الكرش، وخلفه امرأة حسناء ترتدي ثيابًا شبه رسمية سوداء واسعة، وتخفي نصف وجهها خلف نظارة شمسية عملاقة من طراز جوتشي، بينما تزوم بشفتيها غير المصبوغتين من أسفل أنفها الحاد.

كاترينا حداد.. المرأة التي عرفت كل شيء.

- الآنسة كاترينا حداد يا كمال باشا.

أشرت لها أن تجلس على المقعد أمامي، ثم سألت ناصر بصوت حاولت جعله رسميًا بما فيه الكفاية:

- هل يمكنني أن أبدأ التحقيق.. أم سنتنظر حضور السيد مندوب السفارة؟

- في الواقع يا كمال باشا.. السيد مندوب السفارة اضطر للمغادرة لأن ونش المرور سحب السيارة من أمام القسم.

- من أمام القسم.. يبدو أن إخواننا في المرور لديهم تعليمات مشددة هذه الأيام،

ثم نظرت إلى وجه كاترينا المغطى بالنظارة الشمسية التي تعادل مرتبي في شهرين، وسألتها بهدوء مستفز:

- هل تسمح الآنسة حداد لنا بأن نباشر التحقيق.. أم تفضل انتظار السيد مندوب السفارة؟

- أي شيء.. لا فارق.

- أظن أفضل أن نباشر حتى لا أضيع وقتك.

ثم أشارت لناصر بطرف خفي أن يخرج من المكتب، فأوماً برأسه ثم انحنى مقابلاً وجه كاترينا الجالسة أمامي، وعيناه تضربان صدرها نصف البارز من أسفل السترة شبه الرسمية.

- شاي أم قهوة يا آنسة حداد؟

- قهوة سوداء.. من دون سكر.

تنحنحت بصوت مرتفع لأنهي هذا المشهد المبتذل، ورفعت عقيرتي صائحا:

- أوص لنا بالقهوة يا سيادة النقيب.. ومن فضلك احرص على

ترتيب المحاضر والإفادات حتى نرسل كل شيء إلى النيابة صباح الغد.. آه.. وأريد منك خدمة أخرى.

ثم نهضت من فوق مكثي، وسحبت ناصر من يده ناحية الباب متابعًا في همس بالكاد سمعه:

- أريدك أن تزور الطبيب الشرعي.. أريد أن تفهم منه لماذا طلب تحليل السموم والمواد المخدرة في جسد بسام الأصيل..

- وكيف عرفت أنه فعل ذلك؟

- لأنه أرسل لي نسخة من التقرير..

- وكيف أرسلها لك قبل أن يرسلها للنياحة؟!

- لأنه صديق قديم.. وكف عن تساؤلاتك عديمة الفائدة واذهب وافعل شيئًا مفيدًا بدلًا من التحديق في صدر المشتبه بها..

ابتسم ابتسامة ساخرة يداري بها إحراجها، ثم رفع يده أمام وجهه كتحية، وخرج من المكتب.

وما إن أغلقت الباب خلفه، وسحبت ذلك الشهيقة العميق، حتى استدرت نحو كاترينا حداد، لأجدها قد خلعت نظارتها، وراحت تحقق شاردة في شاشة هاتفها المحمول.

على شاشة المحمول كانت صورة لها بثوب سهرة لا يغطي منها سوى الثلث الأوسط من جسدها الممشوق الشبيه بأجساد عارضات الأزياء، بينما ترتمي بين ذراعي بسام الأصيل، وعلى وجهيهما ابتسامة واسعة مختلطة باحمرار ملحوظ في بياض عينيهما، وتلك

النقطة الحمراء المميزة للكاميرات القديمة تحتل بؤبؤ عينيها.

صورة تبدو أنها قديمة من أيام الـ...

- هذه صورتك مع المرحوم؟

- نعم.. آه.. نعم.

خرجت من حالة الشرود وهي تنظر إلي، ثم أغلقت الشاشة ومسحت دمعة سريعة فرت من طرف عينيها العسليتين الواسعتين.

- نعم.. في فرنسا منذ ست سنوات.. ليلة رأس السنة.

يقضون ليلة رأس السنة في فرنسا.

وأنا أقضيها في القسم -غالبًا- أو متدثرًا في بيجاما صوفية ثقيلة وعائشة بجواري تقزقز اللب وتشاهد مسرحية سخيفة.

- هل كنت على علاقة وثيقة بالمجني عليه.. السيد بسام الأصيل؟

- كنت سكرتيرته الخاصة.. وكاتمة أسرارته.. و...

قاطعتها متنحنًا في قلة ذوق واضحة، ثم ملت بنصف جسدي على المكتب قائلاً:

- مس حداد.. أنا اعرف أكثر مما تتصورين.. لذا فرأيي أن ندخل إلى صلب الموضوع.. وأن نتحدث بصورة مفتوحة مع بعضنا بعضًا.. توفيرًا لوقتك ولكي نصل إلى الحقيقة في أسرع وقت.

- وبعدها تصل إلى الحقيقة يا حضرة الضابط؟

- سنصل إلى قاتل بسام الأصيل.. وعندها نتحقق العدالة يا

سيدتي.

ابتسمت ابتسامة ساخرة واسعة، ثم أخرجت من حقيبة يدها علبة سجائر طويلة رفيعة، وفوقها قداحة معدنية أنيقة.

أشارت لي بهما، فأشرت لها ألا مانع أن تدخن.

وبعدما أشعلت سيجارتها ونفخت دخانها في سماء الغرفة، قالت متسائلة في هدوء:

- لا يوجد شيء في هذا العالم يُدعى العدالة يا مسيو كمال.

- بالعكس.. هذا العالم قائم على العدالة يا مس حداد.. كل شيء في هذا العالم موزع بميزان محسوب.. حتى وإن بدا لنا غير ذلك..

هزت رأسها يمنة ويسرة مبدية عدم اقتناعها.. وهي تزوم بشفتيها المنتفختين من أثر حقن التجميل.. ثم وضعت ساقًا فوق ساق وهي تهز قدمها النائمة في حذاء رياضي وردي اللون.. باهظ العنن.. ولوحت بيدها الممسكة بالسيجارة قائلة:

- ماذا تريد أن تعرف يا مسيو كمال؟

- كل شيء.. بمنتهى الصراحة.. وبمنتهى الوضوح.. حتى نصل إلى الحقيقة.

هزت رأسها وهي تمتص السيجارة وتُخرج الأنفاس المتلاحقة من أنفها وفمها.

- أتوقع أنك استمعت إلى قصة أبيبا العجفاء زوجته السرية.. وإلى قصة ذلك القرد اللعين المدعو محمود التهامي.

- بكل تفاصيلها.

- إذن انس كل ما سمعته يا حضرة المحقق.. لأن الحقيقة عندي أنا فقط.. فأنا حاملة مفاتيح جنة بسام الأصيل.

ثم أطفأت السيجارة في المنفضة الزجاجية فوق مكتبي، وتنحنحت وهي تضم طرفي سترتها السوداء فوق صدرها نصف العاري متابعة:

- من أين تحب أن أبدأ؟

- من البداية.. من البداية يا آنسة حداد.

وبدأت كاترينا تحكي.

من البداية.

(2)

قبل الجريمة بعشر سنوات

تحت سطوة الشمس الخليجية اللاهبة.. نزلت كاترينا حداد من الطائرة بخطوات متعاقلة. ثَقَّدَم خطوة وثَوَّخَر الأخرى كأنها تحاول الرجوع إلى الطائرة من جديد.

كأنها في حافلة تتهاذى بين الضياع المجاورة لضيعتها، وإذا قررت أنها لا تريد النزول إلى هذه الضيعة وعادت إلى الحافلة، فبإمكانها العودة من جديد إلى ضيعتها.

فقط ستكون أضاعت قليلاً من عمرها ليس إلا.

السماء فوق رأسها تصطبغ بلون أزرق شاحب يوحي بالسكون، والشمس تحرق كل ما تصل إليه حتى روحها.

لكن في أعماقها كانت الرياح العاصفة لا تهدأ، وطموحها يحرق روحها من الطرفين كالشمعة.

تسللت نسمات ساخنة لثذكرها بأنها تركت وراءها حياة مألوفة، وألقت بنفسها في قلب المجهول.. لكنها لم تكن تملك خياراً آخر.

أب سكير يعمل يوماً وينام عشرة.. وزوجة أب مغلوبة على أمرها لا تجيد سوى صنع التبولة وهرس الثوم شبه المجفف.. وإخوة صغار لا يعرفون من الحياة سوى قليلها ونادرها.. وأم كندية الأصل فتنها الرجل اللبناني الوسيم.. فتزوجته في ليلة صيف ساخنة.. وأتت له بفتاة وحيدة.. ثم تركتها وهي بعد رضيعة في أحضان الرجل وهربت

إلى كندا من جديد مع صديق أبيض مثلها.

وتركت له كاترينا الصغيرة.. بلامحها القاسية التي ورثتها من أمها ذات الأصول اليونانية.. وعيَّي أبيها العسليتين الواسعتين..

وغرق الأب التعس في عمله اليدوي البسيط حتى يُطعم فم الفتاة الصغيرة، حتى تزوج ابنة معلمه وصاحب محل حرفته، ثم ورث تجارته البائرة وديونه.

وعندما قرر أن ينهض من جديد.. هبت رياح الحرب على لبنان بأكمله.. فقتلت آخر أمل له أن يكون شيئًا.

تتذكر تلك الأيام عندما كانت فتاة في الخامسة من عمرها، وكيف كانت زوجة أبيها تركض خلفها ببطن منتفخة وهي تنهرها لأنها خرجت من باب المنزل.

خرجت لأنها تريد أن تلعب قليلاً مع الطيور الآمنة في سفح الجبل الأخضر.

كل ما كانت تريده كاترينا هي أن تلعب مثل أي طفلة في عمرها، لكن حتى اللعب وقتها كان ترفاً لا يصح لمن هم مثلها.

وعندما كبرت وأصبح الوقت مناسباً كي تذهب إلى الجامعة، راح شبح أمها وديون أبيها المتراكمة تطاردها وتتعلق في ذيلها.. حتى إنها عندما أتمت دراستها الجامعية المضطربة بعد سبع سنوات من المحاولة والاستدانة والعمل في وظائف حقيرة في مطاعم ومقاهي بيروت في فترة الصيف المزدحمة.. لم تجد ما تفعله سوى ما كانت تفعله.

ومن جديد، عادت إلى العمل في نفس الوظائف.. وألقت بشهادة إدارة الأعمال في درج الخزانة أسفل ملابسها الداخلية الرخيصة. حتى جاءت لها الفرصة يومًا ما.

صديقتها العزيزة جوزفين، والتي ودعتها يومًا على بوابة مطار رفيق الحريري مسافرة إلى المجهول، أرسلت لها بورقة صغيرة تحمل اسمها ورقم جواز سفرها وهي تضحك عبر شاشة السكايب.

- ما هذا؟ هذه تأشيرة سفر.. أليس كذلك؟

- بلى يا صغيرتي.. هذه تأشيرة سفر إلى نفس الدولة الخليجية التي أعمل بها.. كلفتني خمسين دولارًا فقط.

خمسون دولارًا هو مبلغ فادح وقتها.. مبلغ يكفيها شهرًا من المصروفات ويطعم أفواه أخويها وينفق على علاج أبيها الذي تليفت كبده من كثرة تعاطيه للخمر الرخيصة.

- لكن يا جوزي.. أنا..

- لا عليك يا فتاة.. اعتبريه قرصًا صغيرًا من صديقتك.. وعندما تحصلين على عمل.. ستردين لي المبلغ.. مصحوبًا بعزيمة كبيرة في المطعم الذي أعمل به.

ثم ابتسمت وهي ترسل لها بقبلة على الهواء، فبدت لها كأنها تُقبّلها قبلة الحياة.

لذا، فقد حسمت أمرها من دون أن تنظر خلفها.

تجاوزت بكاء زوجة أبيها المكلومة التي أنهكها الفقر والحمل

وضيق الحال.

وقبّلت أخويها التوءمين المتعلقين في طرف ثوبها الوحيد.

وألقت بنظرة مطولة على أبيها المريض الجالس في شرفة المنزل
الريفي يراقب الشمس التي تشرق من خلف الجبل.

وركبت حافلة الأجرة المتراقصة فوق الطريق نحو المطار.

وها هي الآن تهبط من الطائرة نحو الحافلة المكيفة التي ستنقلها
إلى المطار.

لم يكن الخليج بالنسبة لها مجرد مكان سوف تنتقل إليه هاربة
باحثة عن فرصة، بل كان فكرة تحيا في ذاكرتها منذ الطفولة.

مكائًا تصفه الحكايات بالأرض الذهبية، حيث تُصقل الأحلام أو
تُدفن تحت رمال الصحراء. ولكنها، وهي تنظر إلى الوجوه المزدحمة
في المطار حولها، وإلى اللغات المختلفة التي تسمعها والروائح
المختلفة التي تشمها، وإلى العيون الجائعة التي تلتهم جسدها
الممشوق الذي هو هبتها الوحيدة التي قررت ألا تفرط فيها، أدركت
أن هذا الحلم لم يكن قُط مجرد حلم وردي جميل.

في داخلها، كان هناك شعور بالانفصال. عن نفسها، عن ماضيها،
وحتى عن جسدها الذي بدا وكأنه يتحرك بآلية وسط الجموع
المتزاحمة على طابور الجوازات، وعن يدها التي تناولت جواز السفر
من يد الضابط بعد أن ختمه بختم دخول الجنة.

وبينما تقف منتظرة حقيبتها الوحيدة التي حصلت عليها مقابل
قبلة فرنسية طويلة على شفّتي زميلها في العمل.. داخل ذلك المقهى

في أشهر شوارع بيروت، وبينما عقلها يغوص في أفكار مبعثرة عما ينتظرها، نظرت حولها، إلى العيون التي ترصدها ببرود أو فضول صامت، وإلى الشفاه التي تشتاق إلى شفيتها المكتنزتين وإلى الأيادي التي تحاول الوصول لها، وشعرت بأن طريقها هنا لن يكون صعباً كطريقها بين الضيقة وبيروت.

وحين خرجت من مبنى المطار باحثة عن سيارة أجرة تقلها إلى شقة جوزفينا الضيقة التي ستصبح مسكنها المؤقت، صدمها الهواء الساخن وكأنه يصفعها على وجهها.

هنا، حيث لا شيء يتحرك إلا لماماً، شعرت كاترينا وكأنها تطارد ظلاً يتغير مع كل خطوة، ومن نافذة السيارة التي تنفذ لها حرارة الشمس على الرغم من تكييف السيارة القوي، بدت المدينة مثل لوحة مشوهة، مزيج من الأبراج الزجاجية المتلألئة والأحياء القديمة التي تئن تحت وطأة الحداثة المزعومة.

كانت ذكريات رحلتها تتداخل مع صوت ثرثرة سائق السيارة الهندي في الهاتف المحمول الرخيص، راحت تردد كلمات قالتها لنفسها بصوت مرتجف وهي تحزم أغراضها داخل الحقيبة الصلبة.

- لن تكون الأمور أسوأ مما تركته ورائي.. لا شيء أسوأ من هذا يا كاتي.

لكنها الآن، وهي تقف تحت ظلال نخلة ناحلة على جانب الطريق، منتظرة أن تنزل جوزفينا من البناية.

بدأت تشكك في تلك الكلمات.

نظرت على طول البصر نحو السور الحجري الذي يفصل الشارع
والرصيف الساخن عن البحر الخليجي الراكد بلا حراك.

في تلك اللحظة، مرت بوجهها نسمة رقيقة غير مألوفة، حملت
معها عبق البحر المالح، فاستنشقتها بعمق، مُحاولَة تهدئة نفسها.
ذكرتها الرائحة بشواطئ المتوسط الهائج العائر كروحها، والتي كانت
قد زارتها في طفولتها، حين كانت تظن أن العالم صغير وآمن.. لكن
الآن.. والآن خصوصًا.. بدا العالم كبيرًا وموحشًا.

- الحمد لله على سلامتك يا صغيرة.

صوت جوزفينا الحاد الصاخب أخرجها من بحر مشاعرها العائر،
فالتفت نحوها وارتمت في أحضانها الواسعة، ثم نظرت إلى وجهها
المتعرق المحتقن.

- صرت أكثر امتلاءً.. وجهك مختلف عن محادثات الفيديو..

- وأنت صرت عجفاء كتلك النخلة.. لم يغد بك سوى...

ثم أشارت في خبث إلى صدرها البارز أسفل القميص الخفيف،
فقرصتها كاترينا من ذراعها بأصابعها الرفيعة.

- هيا تعالي يا قطتي الشرسة.. تعالي.

صعدت معها درجات السلم العشرين نحو الشقة الصغيرة المكونة
من غرفة واحدة وحجرة جلوس صغيرة بها كرسيان استحال لونهما
من الأزرق إلى لون عجزت كاترينا عن تمييزه، ثم قادتها عبر الأمتار
الثلاثة إلى حجرة نوم ضيقة بها فراش متوسط الحجم يكسوه
شرشف رمادي قطني.

ومكيف صغير يُصدر أصواتًا جديرة بمحراث زراعي قديم.

- هذه حجرة النوم الوحيدة كما يظهر لك.. لذا سوف أتركك تنامين بمفردك هنا في ليلتك الأولى لأن لديّ عملاً في المساء ولن أعود قبل الفجر.. ومن غد سوف ننام معًا فوق هذا الفراش حتى تعثري على عمل وتجدي مكانًا يناسبك.

هزت رأسها موافقة بلا خيار للرفض، ثم رفعت حقيبتها ووضعتها فوق الفراش، والتفت ناحية جوزفينا التي قبلت خدها، وراحت تجمع ثيابها من فوق السرير ومن الشماعات المعلقة في الخزانة المعدنية الصغيرة.

- سوف أجمع ثيابي وأرتديها في الحمام حتى أمنحك بعض الوقت للراحة.. وإذا قرس الجوع معدتك.. فستجدين بعض الخبز واللحوم في الملاحة الصغيرة.. وهناك قهوة سريعة في الخزانة الصغيرة.. إلى اللقاء يا صغيرتي.

ثم قبلتها على شفتيها قبلة خاطفة اعتادتها منها.. منذ أن كانتا في المدرسة الثانوية تحلمان بفتى الأحلام، وتقلدان القبلات كما في الأفلام.

يومها لم تُلَقِ بالآ لضغط جوزفينا القوي على شفتيها برغم أنها كانت قبلة خاطفة سريعة.

فتحت الحقيبة لشخرج منها مجموعة ثياب مما رتبته بعناية في مجموعات صغيرة،

ثياب منزل مرتبة معًا وثياب للخروج مرتبة معًا.

جلست على السرير وهي تنظر إلى حقيبتها المفتوحة.. وإلى تلك
الغياص المرتبة بعناية.. والتي بدت وكأنها تحكي قصة فتاة نظمت
حياتها لتواجهها بكل حزم وترتيب.

لكنها كانت تعلم أن النظام وحده لا يكفي.. فداخلها كانت تعيش
في فوضى عارمة.

أغمضت عينيها وحاولت استرجاع السبب الذي دفعها إلى هذا
المكان.

الهروب من واقع قائم؟ البحث عن فرصة جديدة؟ أم مجرد رغبة
في الابتعاد عن كل ما عرفته يومًا؟

دخلت إلى الحمام الضيق، وأغرقت نفسها بالمياه الساخنة التي
تأتي من الصنبور البارد!

وبعد معاناة مع المياه وتجفيفها وارتداء ثيابها من دون أن تغرقها
بالماء، خرجت إلى الغرفة وألقت بجسدها المرهق فوق الفراش
الإسفنجي الصلب.

وفي الغرفة المعتمدة بفعل غياب الشمس والستائر الثقيلة، سمعت
صوت أنفاسها المتسارعة كإيقاع طبول في معركة.

كانت هناك حرب تدور بداخلها، حرب بين الخوف والأمل.. لكنها
أدركت شيئًا واحدًا: مهما كانت النهاية، فقد بدأت رحلتها الآن.

ولا مجال للعودة إلى الوراء.

وبعد دقائق معدودة.. كانت أنفاسها تتصاعد وهي تغط في نوم

عميق.

وكان هذا آخر عهدا بالنوم العميق.

(3)

قبل الجريمة بثمانى سنوات

كاترينا حداد، التي كانت تحلم يومًا بالجنان الموعودة، وجدت نفسها الآن في مواجهة حقيقية مع هذا العالم، ومع نفسها.

كانت كل يوم تهمس لنفسها بصوت واثق:

- ستصنعين جنتك الخاصة هنا.. إن هي إلا مسألة وقت فقط.

عامين كاملين.. راح الصوت فيهما يتردد داخلها بصوت خافت.

وبتقة أقل وأقل وأقل.. راح الصوت يخفت ويخفت..

حتى اختفى الصوت تمامًا..

عامين تعمل في وظائف حقيرة لا ترضي طموحها، ولا تدر عليها إلا الفتات الذي بالكاد يكفي الطعام والعياب التي تشتريها من متاجر العياب الرخيصة المنتشرة في المولات المكيفة العملاقة.

ويكفي نصيبها في مشاركة الغرفة مع صديقة طفولتها وشبابها.

جوزفين.. التي قادت من يدها وأدخلتها عالمًا مختلفًا.. عالم بلا رجال.. وبلا أياد حادة جافة تقبض على صدرها ومؤخرتها.. وشفاه غليظة تمتص شفتيها وهي تجرح وجهها بشوارب غير منمقة.. ورائحة الدخان والعرق تحيط بكل شيء..

عالم ممتلئ بالأيدي الناعمة والشفاه الرقيقة والعياب الحريرية والروائح العطرة.

لكن قلة العمل وقلة المال وقلة الاحترام لم يتركا الفتاتين تعيشان أحلامهما الخاصة وتُشبعان رغباتهما المريضة.

نادلة في مطعم يتحرش بها أغلب الزبائن.. عارضة في كشك عطور تحاول إقناع السيدات المحليات أن هذا العطر هو ما سيجعلن جميلات جذابات مثيرات ممشوقات القوام مثلها.

سكرتيرة في شركة استثمار عقاري.. تتحمل سخافات المستأجرين والزبائن.. وسخافات ونظرات ولمسات مديرها المصري غزير العرق كربه الرائحة قبيح الخلقة.

حتى جاء اليوم الذي ظلت تنتظره طوال أربع سنوات من الشقاء.. تنتظره وهي ترسل الخطابات والرسائل النصية إلى زوجة أبيها فلا تجيبها سوى الدموع وكلمات النذب والحزن المتراكم.. وإلى أخويها الصبيين فيردان بلا مبالاة وكأنهما نسيا وجودها من الأساس.. وإلى أبيها المريض الذي لا يسألها عن شيء سوى عن المال.

في ذلك اليوم، ذهبت إلى عملها المسائي في شركة العقارات، لتفاجئ بحركة غير عادية في المكتب الحقيير الكائن ببناية قديمة في حي مزدحم بالأسيويين والمصريين بالمدينة الخليجية الغنية.

دخلت كاترينا المكتب الحقيير ذلك المساء، وقد لاحظت عينيها الذكيتين المدققتين في التفاصيل أن هناك حركة غير اعتيادية في المكان.

الزملاء الذين اعتادت رؤيتهم متعاقلين في مقاعدهم باتوا منهمكين في ترتيب الأوراق وإعداد ملفات بيضاء جميلة المظهر،

وإعادة تنظيم المكاتب البالية التي أكل العفن قوائمها، حتى مديرها المصري، الذي غالبًا ما كان يستلقي على كرسيه الجلدي الممزق ويتحسس علبة السجائر وهو يراقب مؤخرتها وهي ترتب الأوراق فوق مكتبها، بدا اليوم متيقظًا أنيقًا مهندمًا.

- كاترينا.. لدينا زائر مهم جدًا اليوم.

كادت ترد عليه أن أهم زائر يمكن أن يدخل هذا المكتب هو مندوب مكتب العمل، الذي يأتي بمحاضر المخالفات ويخرج بقسائم تخفيضات على الإقامة في فنادق الكفيل صاحب الشركة.

لكنها أجابت بكياسة وأناقة كعادتها:

- ومَن الضيف المهم الذي يتعطر المكتب كله من أجله؟

- مستر بسام الأصيل شخصيًا.. وهو قادم ليطلع على مشروعنا الجديد.. يبدو أن الحظ ابتسم لي.. لنا.. ابتسم لنا أخيرًا.

هذا الاسم «بسام الأصيل»، كان يتردد في كل مكان كمثل لرجل الأعمال اللامع الذي جاء من العراق وهو بعد عامل في فندق حقيير، حتى تحول إلى صاحب واحدة من أكبر شركات الضيافة والخدمات، وأربعة فنادق، ومطعمين من أفخم مطاعم البلاد.

إنه الرجل الذي يملك القدرة على تحويل الرمال إلى ذهب.

وبعد ساعة بالتمام والكمال، عبر الممر أمامها رجل قصير القامة دقيق الملامح، يرتدي نظارة ذات إطار ذهبي، وتلمع بشرته تحت الإضاءة الصفراء المنعكسة فوق الأرضية الرخامية.

وبعد أن دخل الضيف مباشرةً إلى مكتب مديرها، وبعد الضيافة والشاي والقهوة، رن جرس الاستدعاء الصغير فوق مكتبها، فعرفت أن المدير يريد أن يدير رأس الضيف بجمال سكرتيرته الحسنة، كما تعود مؤخرًا.

لذا فقد شدت الحزام فوق جسدها المتناسق، حتى تقلص حجم وسطها القليل، وتبرز تضاريس جسدها الممشوق، ثم حملت في يدها دفترها الصغير الذي تدون فيه ملاحظات مديرها التافهة، وراحت تضرب الأرضية الرخامية بكعب حذاءها نحو المكتب.

دقت الباب في هدوء، ثم أزاحت الباب ودخلت إلى حجرة المكتب التي تعودت رائحة العطن والدخان بها.

الآن تمتلئ برائحة عطر فرنسي قوي، لا يتعطر به إلا رجل يعرف ما يفعله جيدًا.

وقد كان الرجل هناك.. فوق مقعد الضيوف الجلدي الوثير.

جلس بسام الأصيل على المقعد الجلدي الفاخر الذي نُظف له بعناية، بينما مديرها يجلس أمامه غارقًا في عرقه الغزير محاولًا أن يستعرض له أرباح الشركة واتساع نشاطها.

ولأنها ذكية ونبيهة وتعرف جيدًا كيف تلتقط الإشارات؛ فهمت أن بسام الأصيل ليس هنا من أجل مشروع واحد.

إنه هنا من أجل الشركة نفسها. والآن مديرها الغارق في عرقه يحاول أن يجعلها بيعة رابحة، وأن يستفيد من أموال الأصيل الغزيرة في تحسين وضعه المزري ومحاولة التخلص من هذا العبء

المسمى شركة.

ابتلع المدير ريقه وأخذ يقدم تقريرًا عن سير العمل وحجم المشروعات وحجم الأعمال والأرباح، لكن حديته كان خافتًا ومتلعثمًا، وكأن صوت بسام الصامت أقوى من كلماته المرتجفة.

وسط كل هذا، كانت كاترينا تقف في الخلف، تمسك دفترا صغيرًا لتدوين الملاحظات، لكنها كانت تستمع بتركيز لم تشهده من قبل.

عينها تنتقلان بين الأوراق التي طُبعت عليها مجموعة من المنحنيات والخرائط الملونة، وبين وجه بسام الأصيل الحازم دقيق الملامح مخيف العينين، الذي بدا وكأنه يلاحظ كل تفصيلة صغيرة في الأوراق وفي كلام مديرها المتعلم الطامع في إتمام صفقة عمره، بل بدا وكأنه يمتلك أربع عيون في جوانب رأسه، ثمكُّنه أن يراقب كل همسة وكل حركة صغيرة تصدر عنها أو عن مديرها.

وفجأة، قاطع بسام المدير بصوت جاف أجش:

- ومن هذه الآتسة الجميلة؟

تجمدت الكلمات في حنجرة مديرها قبل أن يقول متلعثمًا:

- هذه كاترينا... سكرتيرتي يا سيدي.

غمغم بسام الأصيل بصوت خافت:

- كاترينا.. اسم جميل لوجه جميل.

لماذا لم تشعر بالتقزز عندما رأت تلك النظرة المقتحمة في عينيه وهو يتفحصها كجهاز كشف المعادن؟!

لماذا لم تشعر بالتقزز عندما شمت رائحة الغزل في حروف كلماته
القليلة؟!

لا تعرف لهذا الأمر تفسيرًا حتى الآن!

رفع بسام حاجبًا وسألها وهو ينظر إلى عينيها العسليتين
الواسعتين:

- هل تعملين هنا منذ فترة طويلة؟

- نعم مستر بسام.. منذ سنة تقريبًا.

كان ردها قصيرًا، لكن نبرة صوتها الراقية أثارت اهتمامه، وهي
تعرف جيدًا كيف تثير الاهتمام.

نظر إلى الدفتر الصغير بين يديها وسأل بفضول:

- وهل تتابعين العمل أم مجرد تسجيلين الملاحظات ومحاضر
الاجتماعات لمديرك المحظوظ؟

ابتسم مديرها كاشفًا عن صف أسنانه النخر، وكاد يجيب عنها،
إلا أنها خنقت الكلمات في حلقه، وابتسمت ابتسامة خفيفة ساحرة
وهي تجيب:

- أنا سكرتيرة تنفيذية يا سيدي.. لذا أتابع التفاصيل دائمًا، لأن ذلك
يجعلني أكثر استعدادًا لجميع متطلبات العمل.

قرأ الأصيل في طريقتهما لثطق جملة متطلبات العمل رسالة خفية
أثارت إعجابه، واتسعت ابتسامته على وجهه الدقيق.

- أعجبني ردك.. لديك ذكاء وسرعة بديهة. هذا ما يحتاج إليه أي

مدير ناجح في سكرتيرته التنفيذية.

قرأت رده على رسالتها، وبدأ هذا يعير هرموناتها الأنثوية نحوه كرجل للمرة الأولى منذ أن شاركت صديقتها فراش تلك الشقة.

بينما رمقها مديرها بنظرة جانبية مليئة بالقلق، لكنه لم يجرؤ على الرد أو التدخل في مسار هذه المحادثة المشفرة.

أما كاترينا، فقد شعرت بأنها وجدت طرف الخيط نحو فرصة لطالما حلمت بها.

لكنها لم تكن لتلقي بنفسها بين أحضان الفرصة، بل علّمتها طبيعتها الواثقة -التي لم تهتز مثلما اهتز إيمانها بحلمها- أن تترك طرف الخيط معلقًا به الطعم، حتى يتبعها الصيد ويلقي بنفسه بين يديها.

لذا فقد منحته ابتسامة ساحرة، ونظرت لمديرها نظرة فهمها جيدًا، فتنحنح وقال بصوت مرتعش خفيض:

- شكرًا يا كاترينا.. يمكنك أن تعودي إلى مكتبك..

انحنت نصف انحناءة، ثم غادرت حجرة المكتب وكعباها يدقان الأرض بإيقاع منتظم بدأ يضرب مع الأرض رأس بسام الأصيل.

وبعد ساعة كاملة، خرج بسام الأصيل مسرعًا من مكتب مديرها.

إلا أنه توقف أمام مكتبها الملقى بإهمال في طرف الاستقبال، ومنحها ابتسامة هادئة واثقة، ثم رفع يده محييًا إياها، وخرج راحلاً من مكتب الشركة المتواضعة.

وبينما كانت تستعد للرحيل وبدأ رحلة عذابها اليومية مع سائقي

التاكسي الهنود برائحة عرقهم المختلطة بالتوابل.

وبينما تقف أمام باب البناية في الشارع الذي هدأت حركة المارة فيه.

مرت سيارة مرسيدس سوداء تلتمع في ضوء مصابيح الشارع، ثم توقفت أمامها مباشرة.

نظرت إلى السيارة في ضيق، عندما ظنت أنها سوف تتعرض لجرعة جديدة من المضايقات ودعوات المبيت ومشاركة السهرة والفراش.

إلا أن النافذة المظلمة انخفضت كاشفة عن آخر وجه كانت تتوقع أن تراه خلف الزجاج..
وجه بسام الأصيل..

وصوته الأَجَشْ بلهجته العراقية المفخمة:

- هل الآتسة ذاهبة إلى منزلها.. يمكننا أن نوصلها بالتأكيد.. أليس كذلك يا رضوان؟

نزل السائق الهندي من السيارة مسرعًا، وفتح لها باب السيارة الخلفي بجوار سنده، ثم انحنى نصف انحناءة داعيًا إياها للدخول.
وكانه يدعوها إلى دخول الجنة.

قديمًا سمعت شيخًا مسلماً يصيح من مكبر الصوت المعلق فوق
مئذنة مسجد الضيعة، أن حارس الجنة ملاك يُدعى رضوان.

يبدو أنها اقتربت، وأن الصيد التقط الطعم، وأصبحت فقط تحتاج

إلى أن تقبض عليه يدها لتسحبه بكل نعومة.

دخلت السيارة، وجلست ضامة ساقها الطويلتين إلى جوار بعضهما بعضًا.. وهي تبتسم ابتسامة حاولت جعلها أكثر سحرًا وإغواءً.. بينما يقفز رضوان إلى مقعد السائق.. وينطلق بالسيارة سائلًا بعربية ضعيفة.

- إلى أين يا سيدي؟

- الأنسة هي مَن ستحدد.

أملته العنوان من الذاكرة، فهز الهندي ذكي الرائحة رأسه يمنة ويسرة، وواصل القيادة،

وبعد لحظة صمت قصيرة قال بسام:

- كاترينا، أعتقد أنك أضعت وقتك في مكان مثل هذا.. وأنت تمتلكين عقلًا ذكيًا راجحًا قلماً وجدته في عالم النساء الناعم.

- أشكرك يا سيدي.. لكني أحب عملي جدًا.

زامت شفتاه في اشمزاز من ردها النمطي المتعمد، وقال من جديد وهو ينظر إلى وجهها الجميل القاسي:

- سأكون مباشرًا وصريحًا كعادتي.. ما رأيك في أن تأتي للعمل معي سكرتيرة شخصية؟

صعقتها الكلمات للحظات، لكنها تماسكت بسرعة وردت بتهذيب:

- هذا شرف لي يا سيدي.. شرف لأي فتاة متواضعة مثلي.. ولكن، هل أنت متأكد أنني الأنسب لهذا المنصب مع رجل أعمال كبير مثلك؟

إنها تمارس عاداتها وهوايتها في الصيد الآن على أكمل وجه.

ثُلّقي بالطّعم إلى الماء من جديد حاملاً تلك السمكة الصغيرة.

ابتسم بسام تلك الابتسامة التي لا تُقرأ بسهولة، وأدار وجهه إلى الطريق اللامع النظيف المجاور لساحل البحر، وقال من دون أن تهتز فيه شعرة:

- أنا لا أتخذ قرارات إلا عندما أكون متأكدًا..

- قرارات.. هذا عرض عمل حسب ما فهمت.. ولي حرية القبول أو الرفض.

انطلقت ضحكة بسام الأصيل عاليًا مجلجلة في السيارة، ثم نظر نحوها من جديد وهو يقول في هدوء:

- تعلّمي يا عزيزتي ألا تتركي لأي أحد فرصة للرفض.. أنت تريدين صيدًا ثمينًا.. وأنا سأمنحك إياه.. وظيفة ذات راتب ضخم.. راتب سيجعلك تحقّقين كل أحلامك.. وأنت ستمنّحينني سكرتيرة وكاتمة أسرار.. وشريكة عمل ذكية.. وأنا يا عزيزتي ضعيف أمام الذكاء.. لن أبالغ لو قلت إنني أعبد الذكاء عبادة.. والمرأة الذكية بالنسبة لي ترتفع إلى مصاف الأنبياء.

- وكيف عرفت أنني تلك الذكية التي ستكون على قدر هذه المسؤولية؟

اتسعت ابتسامته الواثقة، ووضع كف يده المعروقة فوق يدها طويلة الأصابع.

ولدهشتها، لم تشعر بشيء غريب في كل هذا.

هذا الرجل لا يريد جسدها ولا شفيتها.

هذا الرجل يريد عقلها فقط.

- والآن.. متى ستبدئين العمل؟

نظرت له هذه المرة وهي تحمل في عينيها نظرة امتنان لن يراها من جديد.

نظرة حملت له تقديرًا وشكرًا قرأه في عينيها، وعرف أنها ستكون هي التي كان يبحث عنها منذ زمن.

وكانت تلك اللحظة نقطة تحوّل في حياة كاترينا.

لحظة رأت فيها النور الذي يسطع من بين يدي بسام الأصيل.

وعندما خطت في اليوم التالي من باب الفيلا الخشبي، ورائحة الصندل تحيط بها وتكاد تسكرها.

عرفت أنها خطت أول خطواتها داخل الجنة.

وأنها لن تخرج منها ثانية.

(4)

قبل الجريمة بستة أعوام ونصف

كانت كاترينا تعتقد أنها دخلت الجنة عندما قُبِلَت العمل مع بسام الأصيل.

الراتب الضخم المبالغ فيه لوظيفة سكرتيرة.. حتى لو كانت لواحد من أهم رجال الأعمال العرب حاليًا.. والأبهة والفخخة المبالغ فيهما في التعامل مع كل شيء.

وكان بسام الأصيل قد استولى على مغارة علي بابا.. وألقى بالأربعين لُصًا في السجن مدى الحياة.

لكنها سرعان ما اكتشفت أن تلك الجنة لم تكن سوى واجهة خادعة.. مثلها مثل ذلك الباب الخشبي العملاق في مدخل فيلا الأصيل.

باب الجنة.

وفي إحدى الليالي الهادئة، وبينما هي جالسة ترتب مواعيد الأسبوع القادم لسيدها العزيز، دخل فراس حجرة مكتبها بلا استئذان، حاملاً أسفل إبطه صندوقاً ورقياً صغيراً.

- هناك باب للمكتب لو لاحظت ذلك!

أشارت نحو الباب الخشبي الأنيق، فنظر للباب نظرة تفوح غباء، ثم عاد ينظر لها بغباء أكثر وهو يرد بتلقائية تحسده عليها:

- نعم.. أعرف أن هناك بابًا.. ثم؟

وقف ينظر لها، فأشاحت بيدها بلا مبالاة وعادت تدون في مفكرتها الصغيرة.

وضع فراس الصندوق أمامها فوق المكتب بلا كلمة أخرى، ثم صاح بصوت مزعج:

- هذه الأوراق مرسلة للمعلم شخصيًا.. أرسلها له ذلك الفلبيني خوان ماريا.. بالإذن.

ثم استدار وغادر الحجرة بلا كلمة إضافية.

رفعت كاترينا عينيها نحو الباب.. وهي توشك أن تبصق على المكان الذي كان يحتله ذلك الجلف عديم الذوق.

إلا أن عينيها ضدمتا بذلك الصندوق الراقد أمامها في براءة على مكتبها العصري الأنيق.

صندوق بريء للغاية، يشبه صناديق الأوراق التي تراها في المسلسلات الأجنبية.

الصندوق الذي يحمله «جاك» وهو يغادر العمل للمرة الأخيرة.. ويضع فيه متعلقاته وأوراقه وصورة زوجته «جوان».

أو أيًا كان اسمهم.

طردت الخواطر المتفرقة من رأسها، وراحت تراجع دفتر الأوراق التي تحتاج إلى توقيعات السيد رئيس مجلس الإدارة.

رب عملها وسيد جنتها.

لكن عينيها صارت لا إرادياً تختلس نظرات ناحية الصندوق بين
الحين والآخر.

كان يناديها أن تفتحه وتأخذ فكرة عابرة عما يحتويه.

كانه الباب المئة في قصر ذي اللحية الزرقاء.

راحت تلوم نفسها على تلك الأفكار، وتردد بصوت مرتفع أنها لن
تخون ثقة الرجل الذي منحها الفرصة.. لن تكون مثل حواء وتأكل
التفاحة فثُطرِد من الجنة.. لن تكون مثل زوجة ذي اللحية الزرقاء.

وفي النهاية.. سحبت الصندوق إليها.. وفتحت الغطاء.. وهي تبرر
لنفسها فعلتها الحمقاء.

- أنا سكرتيرته الشخصية ومديرة مكتبه.. وأي أوراق تدخل له لا بد
أن أنسقها قبل أن يتطلع عليها.. هذه تعليماته.

ابتسمت بعد أن اطمأن قلبها إلى تلك الحجة الواهية.. وتناولت
أول الملفات لتقرأها.

ويا ليتها ما فعلت!

لو تذكرت شيئاً أو شيئين ندمت عليهما طوال حياتها -وهي تعودت
ألا تندم أبداً- لكانت هذه الفعلة الحمقاء هي أولهما.

يا ليتها ما فعلت ذلك.. وظلت غافلة كما كانت!

الملف الأول يحمل أسماء لشخصيات مهمة.. شديدة الأهمية..
وأمامها أرقام تدل على موقع ملفاتها بين الفواصل البلاستيكية.

انتقت اسماً وانتقلت إلى أحد الفواصل، وضمت مما قرأته في

الأوراق.

صفقات بريئة في منظرها، لكنها لا تبدو بريئة. سواء في قيمتها أو في مسمياتها.

وكشوفات محاسبية لصادق فقط بلا وارد.

هل هذه عملية غسل أموال؟ وسيدها المهيب هو المغسلة الكهربائية المتخصصة في ذلك؟

انتقلت إلى ملف ثانٍ وثالث ورابع.

وكلما غاصت كاترينا في عالم الأوراق المظلم.. كانت تشعر أن روحها تسقط في هاوية لا نهاية لها.

هذا الملف مثلاً يحمل بيانات تخص فتيات من جنسيات مختلفة.. أغلبهن لاجئات من دول سابقة في الكتلة السوفيتية السابقة.. وسوريات وعراقيات وليبيات.. غيّن في شركات الأصيل في وظائف تبدو وظائف شرعية لا غبار عليها.. لكنها تعرف جيداً أن هذه الوظائف لا وجود لها.

بل إن الشركة التي غيّن فيها الفتيات.. لم تعمل بعد.. ولم تحصل بعد على عقد ضيافة واحد.

هذه الأوراق تعني أن تجارة سيدها الرئيسية ليست في الخدمات ولا الضيافة ولا في الطعام والشراب.

وشعرت وكأن العالم ينهار من حولها.

كانت الأوراق بين يديها ثقيلة، ثقيلة بما يكفي لأن تشعر كأنها

تصفع وجهها مع كل صفحة تقلبها.

خرجت من شرودها على صوت الهاتف الداخلي، فانتفضت كالملسوعة، وراحت تحقق في الهاتف الذي يرن بلا انقطاع.

وببطء رفعت السماعاة لتسمع صوته الأجش الفخم:

- كاتي.. انهضي وأحضري مؤخرتك إلى هنا.

قالها بمرحه المعتاد معها، وبالإنجليزية كما تعود أن يقولها:

- Bring your Ass here.

حاولت أن تسيطر على مشاعرها، وشربت زجاجة ماء صغيرة بأكملها، ثم مسحت فمها بمنديل ورقي، ونهضت بسرعة، ودقت الباب الذي يفصل مكتبها أمام بسام، تحاول أن تبدو ثابتة الجنان، وقفت أمام مكتب سيدها المبتسم.

لكن قلبها كان يخفق بجنون، ويدها ترتجف.

لم تكن الجنة التي وعدها بها سوى فخ من الكذب والفساد.. لكنه فخ ضنع من الذهب، ورژين بالعطر ووعود السلطة والمال.

- هل أنهيت ترتيب المواعيد؟

- نعم يا مستر بسام..

- جيد.. ضعي المفكرة هنا واجلسي.

تقدمت من المكتب، ووضعت مفكرة المواعيد أمامه، ثم جلست على المقعد الجلدي الوثير.

المقعد الذي تحول إلى كرسي إعدام مليء بالمسامير.

وبسام الأصيل يقول بلا مبالاة وهو يقلب صفحات المفكرة:

- أتعلمين يا كاتي؟ الذكاء الذي تتمتعين به لا يُقدَّر بمن.. ويستحق كل فلس أدفعه لك هنا.

- أشكرك على ثقتك يا سيدي.

أو على خداعك.. لا فارق!

- أحتاج إليك في أمر حساس جدًا.. أمر يتطلب أكثر من مجرد سكرتيرة تنفيذية ماهرة.. بل يتطلب امرأة ذكية.

نظرت إليه كاترينا بترقب.

ولم تكن تعلم أن تلك الكلمات ستأخذ حياتها إلى مسار لا رجعة منه.

سحب بسام مظروفًا بنيًا في حجم ورقة من درج مكتبه، وألقاه على المكتب أمامها.

- في هذا الظرف قائمة أسماء لأهم عملائنا.. قائمة خاصة جدًا أعددتها بنفسي

ثم رفع عينيه النافذتين نحوها، وتابع:

- أحتاج إليك أن تتابعي ترتيبات حفلتنا الخاصة القادمة التي سيُدعى لها جميع من في هذه القائمة.. وأن تحرصي على حضورهم إليها.. غير مسموح بتغيب أيٍّ منهم.

أخرجت الورقة من الظرف، وراحت تمرر عينيها بسرعة فوق الأسماء.

ولأنها فوتوغرافية الذاكرة، فقد ميزت الأسماء التي قرأتها منذ لحظات في قائمة الملفات.

بينما يتابع بسام الأصيل وصوته يأتي من مغارة عميقة:

- أريدك أن ترتبي كل شيء بنفسك.. كل شيء.. المأكولات والمشروبات وكل مستلزمات هذا الحفل الخاص.. وخصوصًا المستلزمات الخاصة جدًا.. مفهوم؟

نظرت له وعلى وجهها ألف تساؤل وتساؤل، لكن سؤالًا واحدًا انتقل من رأسها إلى شفتيها:

- ماذا تعني المستلزمات الخاصة جدًا يا مستر بسام؟

- اتصلي بخوان باولو.. هو يعرف كل شيء.

- تقصد خدمات الضيافة؟

- لا.. أقصد المضيفات أيتها الألمعية الذكية.

شعرت كاترينا بحقل المظروف في يدها، وكأنها تحمل فيه وزر العالم كله، فتمتمت بصوت خافت:

- مستر بسام... هل كل هذا ضروري؟

رفع حاجبيه مستنكرًا، ثم سحب سيجارًا رقيقًا صغيرًا من العلبة التي أمامه، وبعد أن أشعله بهدوء وراح ينفث من دخانه، ابتسم قائلاً بصوته العميق وكأنه على وشك تنويمها مغناطيسيًا:

- كاتي.. دعيني أخبرك شيئًا. هذا العالم يا صغيرتي مليء بالذئاب..
وأنتِ إما أن تكوني الذئب وإما الفريسة.

ثم أطفأ سيجارته في منتصفها، وتابع:

- وهنا.. أنا أعطيك الفرصة لتكوني الذئب.. فلا تفوتيها.

كان يعرف أنها ذكية، وأنها ستلتقط ما بين سطور كلماته.

نهض من خلف مكتبه، ومشى بخطوات هادئة واثقة، ووضع يده
على كتفها قائلاً:

- كاتي.. أنتِ جزء من عائلتي الآن.. أنتِ شريكتي في كل شيء..
وكل شيء هنا ملكك.. وستكونين معي دائمًا.. الجنة التي كنتِ
تحلمين بها؟ أنا من سيمنحك إياها.

صوته شيطاني عميق ينتشر في جسدها محمولًا على كرات دمها
الحمراء.

- لكن يا مستر بسام.. هذه ليست سوى تجارة.

- رقيق أبيض.. أعرف ما تريدين قوله.

فاجأتها صراحته ونبرته الواثقة.

وما إن حاولت أن تخرج الكلمات من بين شفتيها المكتنزتين،
عاجلها بآخر كلماته التي أنهت كل شيء.

- هذا عمل يا صغيرتي.. عمل ضخّم ومربح.. وأنا أثق بك لتكوني
ذراعي اليمنى فيه..

- لكن أنا...

- لن تعارضيني.. ولن ترفضني.. لأنك تعرفين جيدًا.

ثم رفع كفيه من فوق كتفها، ومشى بخطواته الشبيهة بخطوات
ذئب أشهب يتقدم عشيرته في خيلاء.

ووقف أمام النافذة الزجاجية الكبيرة قائلاً وهو يلتفت نحوها،
لترى بريق عينيه الذي هز كل خلية في جسدها الجميل:

- في هذا العالم الموحش.. أنا الوحيد القادر على حمايتك..
والوحيد القادر على منحك الجنة التي تحلمين بها..

خرجت من مكتبه وعقلها يترنح كالسكر بخر فاخرة، وظلت
كلماته تتردد في أذنها طوال الطريق.

ورغم كل هذا.. فقد كان جزء من كاترينا يرفض الاستسلام لخرم
كلمات سيدها ونبرته الواثقة.

كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن هذا مجرد فصل من حياتها، فصل
لن يتعدى مدة بقائها في الخليج، وأنها ستخرج منه يومًا ما، يوم أن
تلحق بأمها إلى كندا، وتحصل على جواز السفر الذي يحميها.

لكن وعد بسام حاضر وقوي أمام عينيها العسليتين.

وعد بوظيفة أفضل وحقق وعده.. وعدها بحياة رغيدة وحقق.

كانت تشعر بأنها تنزلق أكثر في شبابه كلما فكر عقلها أكثر في
كلماته.

عندما لمس كتفها وأخبرها ألا مفر لها، شعرت بالرعب والخوف،

لكن جزءًا صغيرًا منها كان يعرف أنه على حق.

أين يمكنها أن تذهب؟ مَنْ سيصدقها إذا تكلمت وفضحت أمره؟ مَنْ سيمنحها ملجأً منه إذا طاردها حداؤه المفترسة وأنشبت مخالبتها فيها.

كانت عالقة، كفراشة أسيرة في شبكة عنكبوت، تراقب نفسها وهي تسقط في الظلام أكر فأكر.

وفي كل لحظة منذ ذلك اليوم وحتى امتص العنكبوت رحيقها، كان السؤال ذاته يتردد في رأسها.

- هل سأجد طريقي للخروج؟ أم أن هذه هي نهايتي؟

في تلك الليلة، جلست وحيدة في غرفة نومها العصرية الواسعة في تلك الشقة التي تدفع أقساطها من أموال بسام الأصيل.

جلست تراقب انعكاسها في المرآة.

صورة جميلة لامرأة فاتنة زارها الغنى فتنةً وجمالاً.

لكن وجهها كان شاحبًا.. هرب منه الدم، وعيناها العسليتان تتسعان ويرتعش جفناها.. وسدود روحها تنهار واحدًا تلو الآخر.

ثم بكت.

بكت وهي تنهه.

بكت حتى تورمت عيناها من البكاء، وهي تراقب صورتها في المرآة كأنها تراقب امرأة أخرى على الجانب الآخر.

وفي لحظات خفوت نوبة البكاء الهستيري تمتمت لنفسها:

- كيف وصلت إلى هنا؟ كيف أصبحت شاهدة على هذا الكم من الظلام؟

لكن المرأة المطلة عليها من المرأة قد عرفت الجواب.

كانت قد باعت روحها تدريجيًا، لحظة تلو الأخرى، مقابل وهم الجنة.

وانتهى أمرها في تلك الليلة.

في البداية، حاولت كاترينا أن تبرر لنفسها ما كانت تفعله.

كانت تقول لنفسها وهي تنظر إلى وجهها في المرأة بلا تردد:

- أنا مجرد موظفة.. أنفذ الأوامر فقط.. لست شريكة في شيء.. وإذا لم أؤدي هذا العمل، فإن هناك غيري سيؤديه. لماذا أراجع الآن؟

لكنها كانت تعرف، في أعماقها المظلمة، أن هذا لم يكن صحيحًا.

مع كل فتاة تختارها للحفلات المشبوهة، وكل ملف توقع عليه يتضمن صفقات سيدها المشبوهة، كانت تشعر أن جزءًا من إنسانيتها يُسلب منها.

كاترينا التي جاءت تحمل حقيبتها الوحيدة في صباح صيفي حار، لم تغد موجودة تحت جلدها.

لقد رحلت بلا رجعة.

وكانت أيامها الأولى بعد أن عرفت كل شيء هي الأصعب، كأنها

مدمن كوكايين يعاني أعراض الانسحاب.

كانت تنام بصعوبة. عيناها تحدقان في السقف بينما تتردد في ذهنها صرخات خافتة، وكأن ضحايا مولاها الأصيل يأتون إليها من الظلام، يلومونها، يطالبونها بالرحمة.

تغلق عينيها فترى وجوههم المسحوقة فوق وسائل وثيرة، وسيقانهم التي تنهشها أياد جافة صلبة بلا رحمة.

تبكي بلا انقطاع، ثم تلطم وجهها، ثم تتذكر كلمات سيدها فتصمت كأنه يراقبها.

وطوال الليل ثرَّد السؤال الذي كاد يقتلها.

- هل أنا مثلهن؟ أم أنني أسوأ؟ هن مجبرات على ذلك.. هن واقعات تحت وطأة الفقر والجوع والقهر. لكني لست مثلهن.. لكني...

تقطع الكلمات ويتهجد صوتها وتنخرط في نوبة بكاء تنتهي بها ملقاة على الفراش بلا حراك.

كانت تسأل نفسها مرارًا، لكن الإجابة لم تكن تأتي.

وفي يوم من الأيام.. في ليلة من الليالي.

لم تبك.. ولم تسأل السؤال.

بل جرعت كأسًا كبيرة من الكونياك كاد يحرق حلقها وجوفها.

وابتسمت ابتسامة واسعة.

وفي تلك اللحظة، أدركت كاترينا أنها ليست شاهدة صامتة على

فساد هذا الرجل.

بل أصبحت شريكة فيه.

جنتها كانت كذبة كبيرة.

ووعوده كانت سلسلة من القيود الذهبية التي لا تستطيع كسرها.

إن.. فلتستمتع بها.

(5)

قبل الجريمة بستة أشهر

في تلك الليلة.. كانت تتذكر أن واحدة من أحلام حياتها التي وضعتها في قائمة مرتجلة بخط مراهقة حالمة.. هي زيارة مصر.

كانت كأغلب بنات جيلها عاشقة لفن مصر ولمطربي مصر وحتى للمطربين اللبنانيين الذين لمعوا في مصر وصنعوا مجدهم فيها.

وطوال سنوات عملها في الخليج.. سواء قبل دخولها جنة الأصيل أو بعد أن غرست قدمها في مستنقعه الآسن.. كانت تحلم بزيارة مصر في إحدى المرات.

ولم تكن تعرف أنها في أحد الأيام أيضًا.. وبفضل تخطيط ذلك اللعين المسمى بالتهامي.. وبسبب أحلام سيدها وطموحاته الواسعة.. سوف تستقر في مصر.

وستصبح موطنًا لها.

لكنها ليست مصر التي أرادت أن تراها وتزورها، بل هي مصر أخرى، مصر مليئة بأمور لم ترها على شاشة التلفاز ولا في مقاطع الفيديو، بل مصر أخرى تشبه شجرة وارفة أصابها العفن وتغلغل في جذورها، حتى أوشك أن يُفسد ثمارها ويقضي على إنتاجها، فأصبحت تلقي بأوراقها على قارعة الطريق حتى يدوسها الحالمون العابرون فوق طرقاتها.

وفي وسط العفن.. ينشط سيدها ويتنفس وينمو ويترعرع.

تذكر الليلة التي بكت فيها أمام صورتها في المرأة حتى تورم وجهها، وكيف كانت على وشك قتل نفسها حتى تنجو من ذلك الجحيم الذي ظنته جنة أحلامها.

لكنها عندما تنظر الآن في المرأة، وسيجارتها الرفيعة متدلية من طرف شفتيها المتضخمتين من حقن النفخ، وإلى عينيها العسليتين القاسيتين، تعرف أنها أدمنت ما تفعله، وأنها صارت ممتلئة بالعفن. وأنها صارت أمة مطيعة لا يهمها سوى رضا سيدها صاحب الجنة. اللعنة على التعود الذي تحوّل إلى استمتاع ثم تحوّل إلى شغف وشبق.

صارت تبحث عن العفن، وتتركه ينمو ويتعرعرع، ثم تضعه طيبًا لذيذًا بين يدي سيدها.

صارت تأتيه بما تحتاج إليه تجارته، وتجتهد في انتقاء الفتيات من بين الآلاف من الفقراء واللاجئين ومن أذلهم العوز والحاجة، وثنت رقابهم أفعال الزمن بهم.

صارت تجتهد في الأفكار التي تلزمها لتوقع بهن وتضعهن في مهب الريح، حتى إذا تلقفتهم يداها الحنون، صرن ملك يدها وطوع يمين سيدها.

حتى محمود التهامي، الذي أصبح نديمها وخليلها ومورد رغباتها وشغفها الأول.. صارت تستمتع برفقته وبكلماته وحتى بأفكاره وطموحاته التي تعدت مقدرة قواد حقير.

كان خبيرًا بكل شيء في هذه البلاد وأدرى بشعابها المتشابكة، ولم

يتوان أو يتأخر على نقل خبرته لها، لكنها تركت له الجزء الأول من العمل وتولت هي الجزء الذي يحتاج إلى سحرها وفتنتها.

بل صارت تتعاون معه على إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ودفن الأدلة على تجارتهم الرائجة الخطرة وقتما ترتكب الغلطات.

تجارتهم وتجارة سيدهم تجارة خطيرة ومثيرة، وهذه الإثارة تمنحها ما لا تجده بين أحضان العملاء ولا في جلساتها الخاصة في ملحقتها الفاخر بفيلا الأصيل بأكتوبر.

حتى عندما حدث الخطأ، كان محمود التهامي هناك، كمنقذ لها ومخلص ومظهر.

كان كمنظف الجثث الذي تستأجره المافيا، كان قادرًا على التنظيف، وعلى محو أي أثر مادي أو معنوي.

كان كالساحر بلا عصا ولا قبعة.

حتى عندما تخطت رغبات سيدها المريضة كل الحدود، وكادت تتسبب في كارثة.

حدث ذلك في إحدى حفلات افتتاح واحد من مشروعات سيدها الوهمية، التي لا تتعدى قطعة أرض صحراوية جرداء حصل عليها ببخس الأموال، مستخدمًا مهاراتها وظرقها الفذة في إقناع الزبون لكي يؤشر على طلب التخصيص، وإقناع مجموعة من المستثمرين المغيبين كي يضخوا أموالًا بتلك المشروعات التي لن تتعدى لوحة كبيرة فوق عمود إعلانات على الطريق الدائري.

حفل هادئ، ليس من حفلات كاترينا المفضلة، لكن الشيء لزوم

الشيء.

حفل به سيدات مجتمع محترمات، ومسؤولون حكوميون ببذلات بنية وكحلية كلاسيكية، وأطفال وشباب جاءوا مع عائلاتهم ليستمتعوا بألعاب الأطفال وفقرات الساحر والمرأة الحسناء.

يومها أرسل سيدها في طلبها، فهبت من وسط معجبيها ومريديها الذين تستكشفها عيونهم الجائعة الوقحة، وهرولت ناحية طاولته المستقرة في موقع إستراتيجي، يسمح له بأن يقلب بصره في وجوه المدعوين.

جلست إلى جواره وحتت رأسها لتسمع همسه الأجش:

- من هذه؟

نظرت ناحية مجموعة من النساء المتحلقات حول طاولة مرتفعة، يجلس إليها أحد مسؤولي الحي المفضلين عند سيدها، وقالت بنفس علو الصوت الذي يخاطبها به سيدها:

- إذا كنت تقصد سلمى.. فهي مضييفة جديدة انضمت لفريقنا.. أما إيلانا فهي عضو قديم في...

قاطعها بقطعة من شفتيه وكرر سؤاله وهو يشير بطرف سيجاره غير المشتعل:

- من هذه يا كاتي، ذات الرداء الأبيض؟

التفت ناحية ما يشير إليه، وصدمتها إشارته.

طاولة مرتفعة أخرى، عليها بضع كئوس من العصير البرتقالي

والأخضر، ويجلس إليها سيدتان تبدوان وكأنهما قادمتان من مسلسل اجتماعي مصري، إحداهما قصيرة ترتدي حجابًا بسيطًا على وجه مستدير مكتنز، ورداء أبيض بسيط فوق ملابس سهرة محتشمة، والأخرى لها شعر قصير صففته بعناية، وعينان واسعتان هادئتان، وكلتاهما ترتديان ثيابًا بسيطة أنيقة، ويتبادلان أطراف حديث لن يخرج إطاره عن سعر كيلو صدور الدجاج وطريقة عمل الكيكة ذات القوام الإسفنجي.

مظهر مسالم محبب للنفس لم ترّه كاترينا منذ أن خرجت من بيتها ذلك اليوم من عشر سنوات.

كادت تجيبه أنهما «لا أحد» وأنهما لا تليقان بعيني بسام الأصيل، لولا أن تذكرت عشقه وميله للخادومات.

ولولا أنها تعرف قصة تحرّشه بالمسكينة أبيبا، وبما يفعله معها في ليالي البال الرائق، وتعرف قصة الورقة التي أودعها خزائنه منذ يومين.

تمالكت نفسها وأجابت:

- مدعوة عادية للحفل.. من ضمن المدعوين الذين أتى بهم فريق التسويق..

- أريد أن أعرف من هي.

نظرت له مستنكرة، وكادت تصرخ في وجهه كي يتمالك نفسه ويكبح جماح هرموناته التي تتقاذز حول الغث من النساء كذاب القبور.

لكنها ابتسمت وتابعت بنفس الهمس:

- أوامرك مستر بسام.

ربت على خدها مستحسناً كأنه عائل عائلة مافيا يمنح بركته لقاتله المحترف، فنهضت لتمارس مهامها المقدسة طلباً لرضا سيدها.

وبعد جولات متعددة، وأسئلة وتقليب في أوراق، واستعلامات قام بها محمود التهامي بطرقه المباشرة وغير المباشرة، عاد لها بعد ساعة ونصف يقول بفم مرتجف:

- قولي لسيدنا إنها زوجة شخصية مهمة.. وإن البعد عنها غنيمة.

- شخصية مهمة! على أي درجة من الأهمية؟!

- مهمة لدرجة أن رجالنا لا يقدرّون على كشف اسم زوجها.. مهمة للدرجة التي يمكنها أن تفتح عيوننا علينا لا نريد فتحها الآن.

انعقد حاجبا كاترينا المرسومتان بعناية فوق عينيها العسليتين:

- أنت تعرف أن هذه الإجابات لن تقنعه.

- إذن أقنعه أنت.. فأنا لست على استعداد للتدخل في هذا الأمر.. هذه زوجة مسئول حكومي عليك وعليه اللعنة.. وآخر ما نحتاج إليه الآن هو استفزاز الحكومة.

نظرت له مستنكرة من ارتعاده وخوفه المبالغ فيهما.

هي تعرف أنه جبان رعديد، وأنه لا يحب أي شيء يجعله يحتك بالسلطات المحلية الباطشة في بلاده، لكن منذ متى كان يخاف الحكومة بهذه الطريقة؟!

- إذن ائتني بالمعلومات التي طلبتها.. ودع الأمر لي.

- تفضلي.. واتركيني وشأني.

أرسل لها بضع كلمات وجمل وأسماء على تطبيق تيليجرام، ثم أغلق شاشة هاتفه، وأشاح بيده في وجهها واختفى وسط الجموع.

راحت تتصفح رسائله على القناة التي أمنها لهم أحد أباطرة الاختراق الذي أتت بهم من الديب ويب، وهي تحفظ كل حرف ورد فيها، لأن سيدها العزيز لا يحب مَنْ يقرأ له من ورقة أو هاتف محمول، بل يحب أن يسمع المعلومات كما تفهمها هي.

اقتربت منه ورسمت على وجهها ابتسامة اجتماعية مزيفة وهي تهمس:

- مُدرّسة في إحدى المدارس الدولية.. زوجها موظف حكومي من الجهات التي لا تحب العبث معها.. غير معروف اسمه ولا مهنته.. امرأة عادية تعيش في شقة من غرفتين في المنيل.

- المنيل؟! -

- منطقة نصف شعبية نصف عريقة.. من طراز المناطق التي لا تعرف تصنيفًا لساكنيها.

راح يغمغم ويدمدم كعادته كلما فكر وقلّب الكلمات في رأسه، ثم أشار لها أن أكمل.

- لديها صفحة عادية على إنستجرام بها صور لها مع صديقاتها وزميلاتها.. ولها صفحة على فيسبوك تنشر عليها قصصًا تسميها من

واقع الحياة.

ثم أشارت بيدها لإحدى المضيفات توجهها للتحرك إلى بقعة ما في الحفل وهي تتابع:

- قصص اجتماعية سخيصة تصلح لمسلسلات المنصات الطويلة المملة.. عن الخيانة والفراق والحياة الزوجية المضطربة.

طقق بشفتيه في طريقة ساخرة وهمس من بين أسنانه القابضة على السيجار غير المشتعل:

- يا حرام!

ثم التفت إلى كاترينا بنظرة تعرفها جيدًا، وتابع:

- أمامك أسبوعان.

- لو سمحت لي يا مستر بسام.. أرى أن تصرف النظر هذه المرة.

ارتسم تعبير استنكار غاضب على وجهه دقيق الملامح، وارتعش جفن عينيه مع بريق الذئب الذي يضرب عينيه كلما غضب:

- منذ متى وأنت تناقشيني في أوامري يا كاترينا؟!

- هذه المرة لا بد أن أناقشك يا سيدي.

ثم اقتربت منه ومالت على وجهه حتى شمت رائحة أنفاسه الكريهة من أثر الكونياك:

- هذه السيدة زوجة لموظف حكومي في جهة إنفاذ قانون.. ونحن اتفقنا منذ أن أصبحنا شركاء كما تقول دائمًا.. أننا لن نقرب جهات

القانون يا مستر بسام.. لا شرطة.. لا نيابة.. لا قضاء.. هذه هي اللاءات الثلاثة التي اتفقنا عليها.

- أراك تنسين نفسك وتحدثين بصيغة الجمع يا مس حداد!

- لا بد أن أتحدث بصيغة الجمع يا مستر أصيل إذا كان الأمر يمسنا جميعًا.

ثم سحبت سيجارة من علبتها المزينة بشرائط ذهبية وهي تشعلها بقداحتها متابعة في عصبية:

- نحن ندير تجارة خطيرة في بلد كبير.. بلد تنتشر فيه الشائعات من دون انتظار التأكيدات.. وتسمع فيه الهمسات قبل أن تصبح كلمات.. وإذا انتشرت شائعة واحدة تمس أعمالنا.. فسوف نصبح تحت أنظار الجميع.. وعندها لن ينفعنا المال ولا الصفقات ولا الرشاوى الجنسية.. وسنصبح كامرأة انتهكها جند السلطان في سوق مزدحمة..

أشاح بوجهه متضايقًا من رائحة دخان سيجارتها، والتي صار يكرهها بعد أن أجبره الأطباء عن الإقلاع عن التدخين بسبب أمراض صدره المزمنة، فدفتها في المنفضة العملاقة أمامه وتابعت:

- لذا.. فأنا أرى أن تصرف النظر هذه المرة.. وأعدك بأن أعوض خيبة أملك في بتعويض مناسب يرضيك.

صمت قليلًا وهو يقلب السيجار القصير بين أصابع يده، وعيناه الجائعتان تتابعان السيدة المحجبة التي تتبادل النكات مع صديقتها وتضحك.

ولو هلة، ظنت كاترينا أنه بالفعل اقتنع.

إلا أن كلماته التي خرجت حاسمة من بين شفثيه جعلتها توشك على إخراج سلاحها الناري الصغير من حقيبتها وقتله.

كلمات أنهت الأمر بالنسبة لها:

- قلت لي إنها تنشر قصصًا اجتماعية.

- ها.. نعم.. على صفحتها على فيسبوك.

- قصص تصلح لمسلسلات المنصات الطويلة المملة.

لم تُجبه، وإنما راحت تحقق في وجهه وعينيه اللتين لا تفارقان وجه تلك السيدة.

بينما تابع هو في هدوء:

- أعتقد أن شركة الإنتاج تحتاج إلى أن تطرق باب المنصات..
تطرقه بقصص مختلفة.. قصص اجتماعية من قلب الواقع والحياة..
فهذا عمل رائع هذه الأيام

ثم التفت لها وعلى وجهه نظرة الثعلب العجوز التي تحفظها جيدًا:

- رتبي لنا موعدًا معها في شركة الإنتاج.. حتى نرى ما يمكن أن
تقدمه لنا من قصص تصلح للعمل الجديد.

- لكن يا مستر بسام...

- الموعد غدًا.. في الرابعة مساءً.

ثم رفع صوته الأَجَشَّ العميق وهو يقول في حسم:

- مفهوم يا مس حداد؟

ولم يكن أمامها إلا أن تهز رأسها طائعة صاغرة لأمر سيدها.
ويا ليتها ما فعلت!

(6)

مساء اليوم الرابع بعد الجريمة

انطلقت ضحكتي العالية المجلجلة في قلب حجرة المكتب، بينما نظرت لي كاترينا بوجه عابس مندهش:

- ما الذي يضحك هكذا يا مسيو كمال؟!

- كل ما حكيته لي.. كل شيء تفوهت به شفتاك المتفتختان الغارقتان في بحار البوتوكس..

- هل لي أن أعرف لماذا؟

وضعت كفي فوق بعضهما فوق سطح المكتب، وعيناي لا تفارقان وجهها متابعًا:

- لأنك تحاولين منذ البداية أن تضعي نفسك موضع البريئة الطاهرة.. التي اضطررتها الحاجة والعوز وضيق الحال إلى أن تكون شريكة في أحقر وأقذر تجارة عرفتتها البشرية.. بينما أنت.. سامحيني فيما سأقوله.. لا تختلفين في شيء عن سيدك المقتول.

ثم عدت بظهري إلى الوراء وأنا أعبت بقلمي الجاف بين أصابع يديّ متابعًا:

- بل إنك بعد كل ما حكيته وحكاه لي قوادك التابع وتلك الشيطانة مدعية البراءة.. أصبحتم كلكم في نظري مجرد عصاة لا تقل جرمًا عن جرم سيدها.

- ربما كنا كذلك أيها الملاك القادم من علياء السماء.. لكننا لسنا قتلة.

ابتسمت ساخرًا معقبًا على كلماتها الخافتة:

- ربما لم يقتل أحدكم بسام الأصيل.. برغم صعوبة نفي ذلك..
لكنكم قتلتم الكثيرين من المساكين الذين جُرفوا في مجاري
قذارتكم البائسة..

وقبل أن أتم عبارتي، سمعت قرعًا رسميًا مهذبًا على الباب.

- ادخل يا ناصر.

فُتح الباب، ودخل ناصر وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وفي
يده مظروف رسمي عملاق، أوحى لي ابتسامته وبريق عينيه بأن
محتوى المظروف قد أتى بالحل أخيرًا.

- تقرير الطبيب الشرعي الخاص بتحليل السموم والمواد المخدرة..
ومعه ملخص صغير طلب وكيل النيابة أن يُعد خصيصًا لك.. فيه
تبسيط للمصطلحات العلمية.

- وماذا ورد فيه؟ أعطني ملخص الملخص.

نظر إلى مؤخرة رأس كاترينا بنظرة ذات معنى، ثم تابع وهو
يناولني المظروف:

- أفضل أن تقرأه بنفسك.

هززت رأسي في لا مبالاة، ثم فضضت المظروف لأخرج منه ورقة
صغيرة، رحت أقرؤها في هدوء.. غير عابئ بنظرات كاترينا، والتي
كادت تخترق الورقة من فرط فضولها لمعرفة محتواها.

وبهدوء، وبابتسامة عريضة.. وضعت الورقة مقلوبة فوق المكتب،

وعقدت كفي فوقها.

- أكملني.. وماذا فعلتم عندما افترض أمركم.. ورفضت السيدة الشريفة أن تقع في شباك العنكبوت العجوز معتل الصدر..

- وكيف عرفت أنها لم تقع ولم ترضخ؟!

- ببساطة.. لو كان الأمر عابراً عادياً.. وكانت هذه السيدة الشريفة قد انضمت لجيش محظياته.. لما حكيت لي عنه..

ثم اختفت ابتسامتي وأنا أنظر في عينيها المرتعشتين مباشرة:

- جامع القمامة لن يتذكر البقايا عفنة الرائحة.. لكنه سيتذكر جيداً زجاجة العطر المغلقة التي وجدها وسط قمامته.

ثم عدت بظهري على المقعد وأدبرته نصف دورة وأنا أنظر إلى الحائط الحكومي نصف المتشقق.

- والآن أكملني.. ماذا حدث بعدها وكيف تخلصتم من هذه المشكلة؟
وحكت كاترينا.

حكّت من دون أن تخفي شيئاً.

(7)

قبل الجريمة بشهر وأسبوع

كان يومًا ربيعًا غربيًا.

الربيع في مصر ليس كربيع الخليج أو ربيع لبنان أو حتى ربيع أوروبا التي جربته في رحلاتها السابقة.

ربيع عاصف.. ممتلئ بالرياح التي تثير الأتربة وتغيم السماء.. وطقس يتقلب كل لحظة وكل ساعة.. كمزاج سيدها مؤخرًا.

سيدها الذي فشلت كل محاولاته في استمالة المرأة ذات الوجه المستدير المكتنز، وفشلت كل خطته المحكمة في إيقاعها داخل شباكه السمكية.

وعندما وصل إلى نقطة النهاية، فتح دفاتره وكشف كل أوراقه في مقامرة أخيرة، وفتح لها خزائن أمواله.

كل هذا وهي تراقب في صمت مستنكر، ومحمود التهامي يحاول أن يعنيه عن ذلك، فلا يتلقى سوى لومه وتقريعه.

ثم سكت محمود التهامي في يوم ما، وبدا وكأنه نسي الأمر، فعرفت أن سيده قد منحه ما يسكته، أو أنه نجح في إتمام خطته وأن العقود التي جاء بها المحامي منذ أيام قد أنهت على مقاومته وأسكتت اعتراضاته.

لكنها كانت تعرف أن لحظة الانهيار وشيكة.

المرأة لا تبدو مثل كل من طلبهن سيدها فنالهن، فهي ليست

خادمة بائسة أضناها الفقر وضيق الحال، فاشتراها بعقد زواج عرفي ينتهي بتمزيقه في وجهها، وليست فتاة شرق أوروبية بائسة ستبيع نفسها مع أول حزمة دولارات تسقط في حجرها، وليست امرأة لعبوب تحب المال والسلطة وارتداء أفخم الثياب والمجوهرات.

إنها امرأة عادية.. شريفة.. نزيهة ومخلصة لزوجها ولنفسها.

كلمات كادت كاترينا تنساها وسط مستنقع الوحل الذي عاشت فيه عشر سنوات ظلًا منها أنها الجنة التي حلمت بها.

حتى بعد أن عاد اتصالها الذي انقطع بأمها، وحتى بعدما أنهت إجراءات الجنسية الطويلة المملة، وحصلت على زواج السفر القوي الذي سيحمي ظهرها عندما تجيء لحظة الفرار.

المرأة الشريفة رفضت المال، ورفضت الفساد، ورفضت أن تُجر إلى مستنقع الوحل، بل إنها هددت الأصيل بفضح أمره وشركة إنتاجه التي لا تُعد إلا ستارًا جديدًا لتجارته الناعمة.

وهنا، أرسل السيد العجوز في طلبها.

خطت بخطوات مرتجفة إلى حجرة مكتبه، وهي تشعر بنار غضبه المستعرة تخرج من جسده لتلفح وجهها.

على الرغم من أنها لا تعرف سببًا لهذا الغضب.

ربما كان غضبه من نفسه ومن هزيمته للمرة الأولى، أو غضبه من انسحاق سلطته ورغباته تحت قدمي تلك المرأة.

أحدهم كفر به وبجنته ورفض أن يدخلها!

- أوامرك مستر بسام؟

- كاتي.. نحن أمام حالة حرجة.. ولا بد من جراح ماهر كي تنتهي..

ابتسمت ابتسامة ساخرة لم يَرها.. بعدما شمت رائحة انهزامه
وانسحاقه.

- وما الحالة الحرجة؟

- أنت تعرفين جيدًا.. فأنت تتنصتين على كل اتصالاتي ومقابلاتي..
فلا تتذكري علي..

ثم التفت لها، فرأت تلك النظرة التي أشعرتها للمرة الأولى بأن
سيدها الجبار أصبح يرتجي عونها وكأنه...

وكانه طفل كسر مزهرية ثمينة، ويحتاج إلى مساعدة كي يخفي
أثر عبثه.

- هناك أكثر من حل وأكثر من وسيلة للتدخل.

- التهديد لن يصلح.. لو كان لدينا ما نهددها به لما وصلنا لهذه
الحال.. والخوف لن يصلح.. فلو كان لدينا ما نخيفها به.. لكان الأمر
قد قُضي.

يتحدث بصيغة الجمع الآن.

الوغد.

اقتربت منه وهي تضع يديها على كتفيه، ثم انحنت وهمست في
أذنه:

- أعتقد أنك تعرف الحل جيدًا.. لكن شفتيك لا تقدران على نُطقه.
- أتقصدين الإجبار؟ لا.. لا، هذه المرأة لن تُخدع وتدخل عشًا من
أعشاشنا برغبتها الحرة.. ثم نجبرها ونصورها.. هذه زوجة موظف
حكومي نافذ.. ويمكنها أن تفتح عش دبابير في وجهها.

أليس هذا ما قالت له وحذرتة منه؟!

أليس هذا ما كادت تصرخ به يومها؟!

- لم يتبقَّ إذن سوى حل واحد.

- هو ذلك...

ثم تابع قائلاً في هدوء:

- الاستئصال.

قالها بهدوء وكأنه يشرب كوبًا من الماء.

كانه يبدل ساقيه فوق بساطه السميك.

قالها فارتعدت فرائصها ورفعت يدها من فوق كتفيه كالمصعوقة
بتيار كهربائي.

لقد تخطى جبروته وجنونه كل الحدود.

حتى أي حدود توقعتها، وهي التي شاركته في كل جرائمه واسود
أفكاره وخططه.

بيد مرتعشة راحت تردد:

- أنا لا.. لا، أنا لن أشارك في هذا أبدًا.

- كاترينا.. هل جُنتِ؟!

- هذا جنون.. جنون.. نحن لسنا قتلة.. أنا لست قاتلة.

ضحكته المججلة العالية أخرجتها من حالة ارتجافها وخوفها إلى حالة من الاستنكار.

- نحن لسنا قتلة..

راح يكررها ساخرًا وضحكاته تتحول إلى سعال متكرر من فرط ضيق رئته المتهتكة.

ثم صمتت ضحكته وسعاله.

ونفض من مقعده الجلدي الوثير، ليلتفت ناحيتها وهو يمسك بيديها بأصابعه الشبيهة بمخالب غراب.

- اسمعيني جيدًا يا كاترينا.. نحن الآن في مفترق طرق.. وإذا لم نتصرف.. فقد يضيع كل ما بنيناه في آخر عشر سنوات.. وما تركنا من أجله حياتنا المرفهة الممتعة.. وجئنا إلى هذا المستنقع الحكومي الآسن.

- لا أستطيع.. لا أستطيع.

ثم أفلتت من قبضتيه وتراجعت بظهرها نحو الباب وعيناها تكادان تغادران محجريهما

لم تتصور أن الأمر قد يصل إلى قتل إنسان لأنه قال لا.. لأنه لم يوافق أن يدخل إلى جنته المزيفة وأن يرتدي قيوده الذهبية.

لكنه اقترب منها من جديد، وهو يمشي بقدمين غائصتين في السجادة السميقة، حتى بدا لها كأنه يزحف كعбан.

- اسمعي يا امرأة.. أنا لن أسمح لجبنك أنت وذلك القرد الذي صنعت منه رجلًا أن يطيح بي من فوق عليائي.. لن أسمح لكم أن تقفوا في طريقي.. لا أنتم ولا تلك الساقطة مدعية الشرف.

ثم وقف واضعًا كفيه في جيب بنطاله الكتاني متابعًا في هدوء:
- لذا.. سوف أنهي الأمر بطريقتي الخاصة.

ثم استدار بجسده ماضيًا نحو مكتبه الخشبي الفاخر متابعًا:
- والآن اخرجي من هنا.. اخرجي ولا تعودي إلا عندما أطلبك.. هيا.
رفع صوته عاليًا صارخًا، فارتعش جسدها خوفًا، وتراجعت عبر الباب نصف المفتوح، وخرجت هاربة.

بينما سمعته وسط عاصفة هلعها يصرخ في هاتفه المحمول:
- ائتني بالونش.. نعم يا محمود.. حمودة الونش.. لا شأن لك.. نَقْذ ما أقوله فقط.

خرجت من الغرفة وسط صرخاته، وعبرت البهو الواسع بخطوات متعثرة مضطربة، ثم عبرت الباب الخشبي العملاق.
وعلى عشب الحديقة.. ألقت بنفسها أرضًا.
وراحت تبكي..

تبكي أيامها.. وأحلامها.. وآثامها..

تبكي عجزها وقلة حيلتها.
تبكي بلا انقطاع..

(8)

مساء اليوم الرابع بعد الجريمة

رحت أحرق في وجهها وعينيها المتورمتين من البكاء..

وشفتيها المنتفختين المزمومتين..

وإلى أنفها الأحمر الذي راحت تمخطه في عنف..

وإلى يديها المرتعشتين الممسكتين بحقيبتها الصغيرة وهاتفها المحمول.

كانت تبكي بكاءً حقيقياً بلا انقطاع.

تبكي كأنما تحاول أن تغسل عينيها وجسدها من آثامها.

حتى وإن كانت محاولة فاشلة.

نهضت من خلف مكثبي، وصببت لها بعض الماء في الكوب الزجاجي، ثم درت حول مقعدها، وجلست أمامها مناوئاً إياها كوب الماء.

كم بدت لي الآن كتلك الفتاة التي حكت عنها!

الفتاة التي هاجرت من بلدها السعيد إلى صحراء الخليج الغنية ذات الأمواج الهادئة، وجرفتها أمواج الأصيل العنيفة حتى سقطت في قاع بحره الأسود.

كم شعرت وقتها ببعض من الشفقة عليها!

شفقة استنكرها عقلي وطردها من رأسي بلا عودة.

هذه قوادة منحطة.. امرأة باعت نفسها للشيطان حتى استباحها
وأنجب منها سيئاته وشروره.

قوادة ومنحطة.. وقاتلة أيضًا.

- لهذا نويت قتله بالسم.. وزيفت مقتله بسكين سخيقة.. طعنته بها
بعد أن كان قد أسلم الروح.

فاجأها تصرّحي الواثق الهادئ، فكادت تبصق الماء الذي تشربه
في وجهي وفوق سترتي الوحيدة.

- ماذا؟! ماذا تعني؟!

أشرت بطرف إصبعي للورقة النائمة مقلوبة فوق مكتبي قائلاً في
هدوء اندهشت أنا منه:

- تقرير الطبيب الشرعي أثبت أن المجني عليه.. بسام الأصيل.. قد
مات إثر التسمم بسم بذور الخروع.. الرئيسين.. ويبدو أنه كان يتناوله
طوال خمسة لستة أيام قبل الوفاة بجرعات منخفضة جدًا.. ربما في
قهوته أو ربما في مشروباته الروحية.

ثم اقتربت منها بوجهي مركزًا على عينيها الحمراوين المنتفختين
من آثار بكائها الغزير، وهمست بصوت تعمدت جعله مرعبًا:

- عندما حدث ما حدث.. وشعرت بأنه على وشك طردك من جنته..
ظلمت تسهرين الليل تفكرين في كيفية الانتقام منه وإنهاء كل شيء..
ثم بعدها تلتفتين للخادمة عديمة الحيلة.. ربما أجبرتها على أن
تتنازل لك عن جزء من ميراثها الذي ستعرف كيف تجد مَنْ يساعدها

في الاستحواذ عليه.. ولربما أخفيتها بأنها المتهمة الأولى لأنها من تصنع له قهوته كل يوم..

راحت عيناها تتسعان وتجفان وصوت بكائها الصامت يتحول إلى زمجرة مكتومة بينما أتابع مستعرضًا اكتشاف العظیم:

- أما ذلك القواد المعتوه.. فربما صنعت له فخًا من أفخاخك النسائية.. ثم ساومته على عقود الشركات السورية.. التي كان سيحولها إلى عقود موثقة تمنحه ملكية ثلث إمبراطورية بسام الأصيل الملوثة.. ويخرج الجميع منتصرًا رابحًا..

ثم وضعت ساقًا فوق ساق وأنا أعقد كفي فوق ركبتي، وابتسم ابتسامة انتصار واسعة متابعًا:

- أتيت بالسّم الذي تعرفين أنه لن يمتص في جسده بسهولة كما قال الطبيب الشرعي.. بل ربما نمرته في الهواء حوله.. فاستنشاقه يجعله يعمل أسرع من ابتلاعه.. ربما وضعت القليل منه في معطر الهواء.. وعندما تأتي اللحظة.. ستدخل أبيبا الغرفة لتجد الجسد ممددًا على الأرض وأسفله بقعة دماء وبجواره سكين ملوثة بالدم.. ومن ككرة الهلع لن تعرف الفارق بين الدم الذي قاءه اللعين من معدته.. أو إن كان نزفه من بطنه.. فتخرج هلعة ملتاعة لتتصل بك أنت وقوادك اللعين..

هل لان وجهها قليلًا.. وبدا شبح ابتسامة ساخرة ينبت على شفتيها؟

أم أن هذه تهيؤات النوم فوق المقود أو فوق خشب المكتب.

نهضت واقفًا كأني سأبدأ مشهدًا تمثيليًا كلاسيكيًا، وعقدت كفي
خلف ظهري وأنا أجوب الغرفة أمام عينيها.

ومن بين شفتيها همست بصوت لم أكّد أسمعته:

- توقف قليلًا واستمع لي.. فأنت لا تعرف ما تتحدث عنه.

لكني لم أتوقف.. ولم أستمع.. ورحت أتابع سرد اكتشافي العبقري:

- وعندما يشهد الجميع أن سيدكم العجوز كان ميتًا بطعنة سكين..
ستطردن الجميع من الغرفة.. وتفتحين الخزانة بأرقامها السرية
التي بالتأكيد تعرفينها جيدًا.. ثم تحملين السكين وتغرسينها في
بطنه ليسيل دمه فوق السجادة السمكية مغرقًا ما حوله، ثم تخفينها
في ثيابك الواسعة.. وتخرجين باكية مترحمة على سيدك العزيز..
والنتيجة.. جريمة سرقة أدت إلى قتل صاحب القصر.. وربما كان
حمودة الونش مشتبهًا فيه ماثليًا.. ولربما دبّرت شاهدًا أو شاهدين
على زيارات الونش المتكررة لسيدك.

ثم توقفت عن الكلام، وأنفاسي المتلاحقة تهبط وتعلو بصدري.

وعندما التفت لها، كانت تصفق بيديها في هدوء أبهرني، وعلى
شفتيها ابتسامة ساخرة مكتملة:

- أنت ضابط رائع ومحقق ذكي.. لكنك تشبه محققي السينما.. حتى
ظننت أنني سأستمع لموسيقى درامية تأتي من مكان ما.

- ربما تودين لو تُسمعينني اعترافك وموافقتك على ما سمعته..
هذا إن كنت لا تفضلين سماع صوت صرخاتك في تخشيبه الحريم..
وعواطف تفعل بك ما لا يرضيك.

ثم ملت بوجهي ناحيتها ساخرًا:

- أم أنه سيرضيك..

- لا شأن لك بما يرضيني وما لا يرضيني.

علت ابتسامة ساخرة تعابير وجهي المرهق، ثم مشيت بخطوات سينمائية هادئة أجوب الغرفة يمينًا ويسارًا.

- أتعرفين يا كاترينا؟ هناك مبنى قديم يُعد ملحقًا بالقسم.. أغلقته لجنة من الوزارة منذ ستة أشهر لأنه غير آدمي ولا يطابق معايير حقو... إلخ إلخ من هذا الهراء.. داخل هذا المبنى خشبية صغيرة.. أكلت الرطوبة حوائطها.. وتفشى العطن فيها.. وأصبحت معزولة عن العالم.. كأنها قلعة من قلاع القرون الوسطى.

ثم وقفت أنظر للحائط وأنا أضم أصابعي خلف ذقني كأنني فيلسوف إغريقي.

- يمكنني أن أصحبك في زيارة إلى هناك.. إلى التخشبية تحديدًا.. وسأتركك هناك لمدة أسبوع فقط.. وسأدعي ببراءة أنني أطلقت سراحك متقيًا غضب سفارتك القوية.. بينما أنت هناك تتعفنين وتأكلين غائطك من فرط الجوع.. وساعتها ستعترفين بأي شيء أريده.. حتى لو كان مقتل الحريري بنفسه.

ثم ملت بوجهي ناحيتها من جديد هامسًا:

- ما رأيك في هذا يا كاتي؟

- أنت لا تقدر على فعل شيء من هذا.

قالتها بنبرة مترددة وشففتها السفلى ترتجف من فرط بشاعة تخيلها
لجسدها الجميل وهو يغرق في غائطها.

بينما أنا أجيب وهي تشم أنفاسي المتحمسة:

- جرييني.

رفعت عينيها نحوي، وهي تنظر في عيني وكأنها تزن قوتي كأني
حيوان بري يختبر منافسه في معركة بقاء، ثم انكسرت عيناها نحو
أصابعها المتشابكة في يديها المرتعشتين.

- ماذا تريد؟

- أريد اعترافًا كاملاً.. كل شيء حدث بالتفصيل يا مس حداد..
وأعدك إلا أخبر أحداً بكل تلك الأسرار الجميلة التي أخبرتني بها منذ
ساعات.. بل تخيلي.. ستبقين في الحجرة المجاورة معززة مكرمة..

ثم نصبت قامتي الهزيلة، وعقدت كفي خلف ظهري كجنرال
عسكري منتصر:

- لا فائدة يا كاترينا من هذا العناد.. فوكيل النيابة الذي سيتولى
القضية رجل ذكي جداً.. وعندما يضغط على أبيبا ستبكي صارخة
بأنك أنت من حرضها على ذلك.. وساعتها سيعتصرك حتى القطرة
الأخيرة.. حتى تخبريه بكل شيء.. لكني هنا أمنحك فرصة لتعترفي..
وتسهلي على نفسك الأمور قليلاً.

- ستحصل على ما تريده بغض النظر عن كل هذا الهراء.. فأنا لم
أعد أحتمل.

ثم أشاحت بوجهها وهي تتابع:

- أنت تريد اعترافًا.. وأنا سأمنحك إياه.. ثم ستركني أخرج من هنا مع مندوب السفارة.. وسأبقى في فندقتي معززة مكرمة حتى موعد عرضي على النيابة.. ما رأيك في هذا؟

ثم عادت بوجهها ناحيتي.. ونهضت من مكانها قائلة في هدوء ونظرة لعب تعبلي عينيها بينما تقول في نعومة امرأة لعب مسيطرة أثارت دهشتي قبل سخطي:

- أهذا يرضيك يا حضرة المحقق؟

- اجلسي يا امرأة واحترمي نفسك.. فأنا لست زبونا من زبائن سيدك.

- سأجلس يا حضرة الضابط.. وستكون ذكيًا كفاية كي تسمعني.. مثل ذلك الطبيب الشرعي الذكي الذي شك في التسمم بالريسين.

ثم جلست وهي تضع ساقًا فوق ساق، وتشعل سيجارتها الرفيعة قائلة في لا مبالاة:

- في الحقيقة هو ذكي جدًا.. ذكي لدرجة مثيرة.. ولولا أنني زهدت الرجال.. لبحث عنه ومنحته ليلة لن ينساها.

ثم نظرت لي من خلف دخان سيجارتها قائلة في جدل:

- والآن اجلس يا حضرة الضابط.. ولا مانع أن تأتي بتابعك الوسيم حتى يلقي نظرة أخيرة على صدري.. وأن يشاركنا لحظة الاعتراف الجميلة هذه.

بالفعل كنت أنوي طلب حضور ناصر إلى حجرة مكتبي، وهو ما فعلته من فوري.

- آه.. ولا تنس حضور أبيبا والتهامي.. حتى تحصل على اعتراف جماعي جميل.. اعتراف ثلاثي.

قالتها بلهجة ماجنة مبطنة بالإيحاءات اللعينة، وهي تضحك ضحكة ماجنة غنجة.

- وهل تظنين أنهم سيعترفون بسرعة وهدوء.. أم أحتاج إلى إرسالهم إلى الملحق القديم؟

- سيعترفون بكل شيء فور أن أقول أنا ذلك.. فهؤلاء التابعون لا يمتلكون حرية الاختيار.

وما إن أتمت جملتها، حتى قرع الباب، ودخل ناصر المكتب.

وبعد أن جلس ناصر أمام المرأة التي تماسكت واستعادت وجهها القاسي وراحت تنفث دخان سيجارتها في هدوء.

وبعد أن كف عن التحديق في مفاتها.

وبعد أن أتى الجنود بالتهامي الذي لا يتوقف عن الصراخ، وأبيبا التي أرهقها الحبس وقلة النوم.. وراحا ينكران ويتملصان..

وبعد أن عرفا بأمر الملحق المغلق والزنازة العطنة..

وبعد أن لانت رءوسهما وانحننت..

راحت تملي عليّ اعترافها الذي لم يعترض عليه أحد..

على الإطلاق.

(9)

قبل الجريمة بأسبوع

داخل شقة كاترينا الصغيرة، التي لجأت إليها بعد أن طردت من جنة سيدها مؤقتًا، زفر محمود التهامي في غضب، وراح يهز ساقيه في توتر.

بينما ضمت أبيبا ساقيهما النحيلتين في ثياب المنزل الواسعة.

ووضعت كاترينا ساقًا فوق ساق لينحسر ثوبها القصير عن فخذهما اللامع المتناسق، وهي تقول في هدوء:

- أعتقد أن ثلاثتنا يعرف أن الأمور لم تغد كما كانت مؤخرًا.. أليس كذلك؟

هزت أبيبا رأسها فتحركت ضفيريتهما المعقوفة خلفه كأنها حصان مطيع، بينما جاهد محمود التهامي لوضع ساقه القصيرة المكتنزة فوق ركبته قائلاً:

- لا أفهم ما تعنيه يا كاتي!

ثم التفت ناحية أبيبا صائحا:

- وأنت لماذا تهزين رأسك يا سمارة؟ أتفهمين معنى ما تقوله؟

منحته أبيبا نظرة مشمئزة، ثم قالت:

- اسمي أبيبا.. وأجل أفهم جيدًا ما تقوله ميس حداد..

- وماذا تفهمين يا عود القرفة؟

صرخت كاترينا غاضبة:

- توقفنا عن لعبة القط والفأر هذه واستمعنا إليّ جيدًا.

صمت الاثنان ونظرا إليها، فزفرت في ملل وقالت:

- بعد حادثة التخلص من تلك السيدة.. ومحاولته تشويه سمعتها وإخفاء مسؤوليته عن قتلها.. أصبحنا جميعًا في مهب الريح.. وأصبح افتضاح أمره وأمرنا قريبًا جدًا.. لذا.. وحفاظًا على مصالحنا.. فلا بد أن نتحرك.

نظر لها محمود مندهشًا، ثم أنزل ساقه وتساءل بوجه عابس:

- مصالحنا محمية بعقود رسمية.. أنت تعرفين أنه باعني شركتين من شركاته مقابل عقود رسمية.. وإذا افتضح أمره.. فسوف أخرج على الملأ وأقول إنه باعني شركاته بعقود رسمية.. وإنه لا غبار عليّ ولا على شركاتي.

- وأين توجد تلك العقود يا محمود؟

كاد يجيبها بغبائه وسطحيته المعتادة.

إلا أنه وقبل أن تخرج الكلمات من فمه.. أدرك ما ترمي إليه كاترينا.

العقود في خزانة السيد بسام الأصيل الخاصة.

بلا تسجيل.. بلا نسخ أخرى مع طرف البيعة الثاني..

بلا أي قيمة تذكر.

بينما قالت أبيبا بصوت خافت:

- وماذا تقترحين يا مس حداد؟

- صفقة.

- أي نوع من الصفقات؟

تساؤل بسيط، لكنه بدا كجريمة نكراء في عيون محمود التهامي.

لذا فقد صرخ عاليًا في وجه الفتاة المسكينة.

- ماذا تقترح ماذا؟ أجننت يا سمارة؟ أم أنك تخفين أسفل هذا الوجه وجه سفاحة معتادة الإجرام؟ لم أكن أعلم أنك تمتلكين كل هذه الشجاعة والجرأة!

- بل أنا التي لم تكن تعلم أنك تمتلك كل هذا القدر من الجبن والخوف.. تبدو لي كأرنب موشك على الذبح.

نهض منتصبًا من مكانه، وهم برفع يده القصيرة المكتنزة ليضرب بها وجه الفتاة، التي لم تحرك شعرة واحدة من جسدها.

فقط لتجمده صرخة كاترينا:

- محمود يا تهامي..

نظر نحوها ويده متجمدة في الهواء، بينما تابعت مزمجرة في غضب:

- إذا لم يعجبك كلامي ولا كلام أبيبا.. فيمكنك أن تخرج من هنا بلا عودة.. وأنا أعرف جيدًا أنك لن تفتح فمك الضيق الكريه.. لأنك لو فتحت فستعرف كيف أجعلك تغلقه.

ثم عادت جالسة على مقعدها الليزي بوي الوثير، وفردت المقعد لتمدد ساقها عليه وحذاؤها الجوتشي يواجه وجهه المستدير العابس.

- لم تجيبي عن سؤالى يا مس حداد.

- انتظري قليلاً يا أبيباً.. فأنا لا أريد أن أتكلم أمام مَنْ لن يكونوا جزءاً من الخطة.

ثم نظرت إلى محمود التهامي بنظرة مستفهمة واثقة، وهي تراقص قدمها في الحذاء الجوتشي فوق امتداد المقعد الوثير.

لكن محمود التهامي لم يرحل ولم يبارح مكانه.

بل جلس متهاوياً على المقعد وهو يضم ياقة قميصه الحريري إلى رقبته.

وهنا علت الابتسامة الساخرة الواثقة على وجه كاترينا.

- من أين أتتك تلك الجرأة يا... يا أبيباً؟

- وماذا لديّ لأخسره يا مستر تهامي؟

- أأست زوجته قانوناً يا امرأة؟

- ليس بعد أن مزق عقد الزواج العرفي في وجهي أمس.. لأنني.. لأنني رفضت أن...

ثم أشاحت بوجهها تاركة محمود التهامي يخمن ما كان يريد السيد المحترم من زوجته الحالية وخادمتة العجفاء.

- لذا.. فأني مكسب من تلك الصفقة.. لهو مكسب لي قبل أن يكون لكما.. فأنا مجرد خادمة.. لن تخرج من هنا إلا على المطار ثم يلقون بي في السجن.. لأنني لم أسدد دين الرجل الذي أتااني بالتأشيرة.. ولأن إخوتي وأهلي سيجلسون على النواصي يستجدون المال من المارة.. أو سيحملون السكاكين ويأخذونه بغير رضاهم..

ثم مسحت دمعة صغيرة كادت تفر من عينيها مكملة:

- ولأنني لا أريد أن أكون مثل فتياتكم اللاتي يبعن أجسادهن بالمال.

هزت كاترينا رأسها مستحسنة كلامها، بينما نظر لها محمود التهامي نظرة متفحصة وقال:

- لنفترض أنني وافقتك.. ماذا سأستفيد من ذلك؟

- ستحصل على عقودك الأصلية.. فأنا أعرف كلمة سر خزانته الشخصية وأحفظها جيدًا.. وأحصل أنا على نصيبي في هذه البيعة منك أنت.. وتحصل أبيبا على تعويض مناسب بقدر السنين التي انتهكها فيها بسام الأصيل.

ثم عقدت ساعديها أمام صدرها وابتسامة مثيرة تعلو شففتيها المنتفختين.

بينما سرحت عينا محمود التهامي في الفراغ.

كل ما سمعه الآن هو صفقة تقسيم لما بعد بسام الأصيل.

لكنه لم يسمع الإجابة عن سؤال هام جدًا.

كيف سيأتي ما بعد بسام الأصيل؟

وكانما قرأت كاترينا السؤال في عقله أو على عينيه الشاردتين الغبيتين.

مدت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت قنينة صغيرة لها غطاء معدني، تمتلئ بمسحوق شبيه بالكمون في لونه وشكله.

- ما هذا يا كاتري؟! كمون؟! ستقتلينه بالكمون؟!

قالها محمود التهامي وهو يبتسم في سخرية، لكن كاترينا أجابته في برود:

- هذا ريسين.. الجرام الواحد منه إذا حُقن في الدم فيأكله القضاء على المحقون به في خلال ساعات.. لكن امتصاصه بطيء عن طريق المعدة.. من خمسة أيام إلى أسبوع.. لذا.. وعندما يتناوله بالتدريج.. سوف...

ثم صمت قليلاً وهي تهز القنينة بيدها في جذل، فقالت أبيبا مستفسرة في جدية:

- وهل له طعم أو رائحة مميزة؟

- ليس إذا وُضع في وسط القهوة بكميات محسوبة.

هزت أبيبا رأسها، وللمرة الأولى ترى كاترين تلك الابتسامة على وجهها.

منذ أول يوم قادتها بتيابها البالية وحذائها الذي ذاب نعله عبر الباب الخشبي العملاق.

باب الجنة الموعودة.

وعرفت ساعتها أن أبيبا ستكون في صفها قلبًا وقالبا.

لكنها عندما التفتت إلى وجه محمود التهامي المقطب العابس.. لم تستطع قراءته للمرة الأولى في حياتها.

- تهامي.. لم أسمع كلمتك بعد.

أفاق من شروده العابس، ونظر لها بعينين تائهتين.

- وعندما تكتشف الشرطة ما فعلناه؟

- قبل أن تكتشف الشرطة أي شيء.. ستكون آثار السم قد اختفت.. فاكشاف آثار الرئيس في الجسم شبه مستحيل.. إلا لو كان الطبيب الشرعي عبقرًا له عينا شيرلوك هولمز وهيركيول بوارو معًا.. وساعتها ستكون الوفاة بأزمة قلبية حادة نتيجة قصور في التنفس.. فالجميع يعرف أن بسام الأصيل يعاني أمراضًا متعددة في رئتيه.. كما أنه قارب على منتصف الستينيات.. أي أن احتمالات إصابته بالأمراض القلبية واردة بشدة.

هز محمود التهامي رأسه استحسانًا، ثم عاد بظهره إلى الوراء وهو يعقد كفيه خلف رأسه:

- أفهم من هذه النظرة أنك معنا؟

هز رأسه من جديد موافقًا كلماتها، ثم قال في هدوء من دون أن ينظر لها:

- وما دوري في هذه الخطة يا آل كابوني؟

ضحكة ماجنة جذلة خرجت من بين شفتي كاترينا، ثم أشعلت
سيجارتها الرفيعة وامتصت دخانها في جوع:

- الإلهاء.. ستستهلك الوقت مع ضابط المباحث.. ستجعله يفتش
خلفي وخلف أبيبا.. ويطرق أبوابًا لن يجد خلفها شيئًا.. بينما يزول
أثر الرئيسين من دم الأصيل.. ويصبح اكتشافه مستحيلًا.

ثم نفخت دخان السيجارة في الهواء وهي تراقبه شاردة:

- بل إنك ستخبره بكل شيء.. بالقصة كاملة..

- أي قصة يا كاترينا؟

- قصتك كلها يا محمود.. قصة الحسابات.. والإفلاس المتعمد..
والتجارة المحرمة.. والحفلات الماجنة.. كل شيء..

- هل جئنت يا كاترينا؟! تريدين أن أخبره أنني كنت قوادًا حقيزًا..
وكنت لصًا مزورًا؟!

ابتسمت كاترينا ساخرة، بينما همست أبيبا بصوت مسموع اخترق
أذنه:

- على الأقل لن تكذب عليه.

- اصمتي يا امرأة.. لم يوجه لك أحد الكلام.

أشاحت أبيبا بوجهها ناحية كاترينا، بينما نظر محمود التهامي إلى
كاترينا وأمارات الغباء على وجهه.

- كل ما ستقوله يا عزيزي لن يتعدى بعض العرثرة أمام ضابط
المباحث. الفضولي.. ستمنحه الكثير من الكلام الفارغ.. والكثير من

الكلام الذي سيدين القاتل أكثر ما يدينك أنت.. فالراعي يا عزيزي دائماً ما يتحمل مسؤولية شرود الخراف.

ثم نظرت نحو أبيبا وقالت بلهجة آمرة كاسحة:

- وأنت كذلك.. ستقولين كل شيء.. لكنك لن تخبريه بعقد الزواج ولا بتسليمك نفسك له طواعية.. بل ستجعلينه يراك طاهرة بريئة.. مجرد شاهدة على جريمة لم ترتكبيها.

أومات أبيبا برأسها طائعة، ونظرات إعجاب متزايدة ترسم على عينيها اللامعتين.

بينما كاترينا تغوص المقعد الوثير من جديد، وتقف ناصبة قامتها المتناسقة الرشيقة، وتعديل من وضع ثوبها القصير، ثم تمتص النفس الأخير من سيجارتها المحتضرة.

خطتها التي رسمتها منذ شهر كامل، وراحت تدرسها وتحيط علماً بكل جوانبها، أوشكت على الانتهاء.

سيرحل بسام الأصيل إلى حيث يلاقي جزاء ما فعله، وتغلق جنته التي لم تكن سوى مستنقع موحل من الحمم في قلب جحيم مستعر. ستحصل أبيبا على مال يكفي سداد دينها ويكفي كي يجعلها امرأة ذات شأن في حيها الفقير المعدم في ضواحي أديس أبابا، وسيصبح محمود التهامي رجل أعمال يملك شركتين تربحان ملاً وفيراً.

وستضع هي نفسها في أول طائرة إلى الكاريبي، بعد أن تحول أموالها بالكامل إلى حساب مدخراتها في جزر الكايمان، وهناك ستعيش حياتها كما تحب وكما تريد.

الكل فائز.. الكل راضٍ.. الكل حر طليق.

ستتشوه سمعتهم.. وماذا في ذلك؟

وهل يضير الشاة سلخها وامتصاص دمها بعدما أريق هذا الدم من
قبل فوق البساط السميك؟!

وعندها فقط أطفال سيجارتها، ورسمت ابتسامة واسعة ساحرة
على وجهها.

وعيناها تلمعان ببريق الحرية التي طال انتظارها.

(10)

مساء اليوم الرابع بعد الجريمة

صمتت كاترينا.. والدموع تحتشد في عينيها.

ومثلها صمتت أبيبا.. وراح محمود التهامي يهز ساقيه في توتر وهو يضم ياقة قميصه المتسخ من نومة التخشيبية إلى رقبته التي لم تعرف الاستحمام منذ ثلاث ليالٍ.

صمتوا بعد أن أقرّوا بكل شيء.

لكن ناصر الذي استمع جيدًا وحفظ كل شيء سأل سؤالاً لم ينتظره أحد سواي:

- والسكين التي طعن بها؟

- لا نعرف عنها شيئاً.

طقطقت بشفتي معترضاً:

- لا.. لا، كانت هناك سكين بجوار الجثة يا سيد محمود.. أبيبا رأتها.. وبسبب ذلك لم تتصل بالشرطة مباشرةً كما اتفقتم.. بل اتصلت بكم لأن ما حدث لم يكن في الخطة.. وعندما حضرتم إلى الفيلا.. رحت تصرخ على كاترينا لأنها لم تلتزم بالاتفاق..

هز رأسه مؤمناً على كلماتي، ثم تجمد فجأة وكأنه كان منوماً في غير وعيه، وأشاح بوجهه نحو الحائط الذي أوشك طلاؤه على السقوط تحت ضربات الرطوبة.

بينما قالت كاترينا في هدوء:

- عندما وصلنا إلى الفيلا مسرعين.. لم نفهم شيئًا.. وراح ذلك المعتوه يصرخ في وجهي متهمًا إياي بتغيير الاتفاق.. وأن القتل بالسم ليس كالقتل بالسكاكين والأسلحة البيضاء.. وبعد أن انتهى من نوبة صراخه.

تعلم الكلام على شفتيها وراحت تسعل بصوت متحشرج من فرط التدخين منذ أن وطئت قدماها مكتبتي، فنظرت ناحية محمود التهامي متسائلًا:

- وبعد أن شرحت لي أن ما حدث هذا ليس ضمن الخطة.. وأن أحدهم سبقنا إلى الأصيل.. طلبت مني أن أخرج من المكتب.. وأن أحاول تهدئة أبيبا التي تصرخ كسارينة الإسعاف في الخارج.

- لكن أبيبا لم تتمالك نفسها.. وراحت تصرخ وتصرخ.. ثم ركضت إلى الهاتف واتصلت بالشرطة.

نظرت نحو أبيبا بعد أن أتممت جملتي لتثرثر بصوت متهدج:

- لم أتمالك نفسي.. وخفت كثيرًا عندما رأيت سيدي على وجهه والسكين بجواره.. مس حداد قالت إنه سيقيء بعض الدم ثم يسقط ميتًا.. لكنني وجدت سكينًا.. وبقع دم كثيرة.. ولم أعرف ماذا أفعل!

ابتسمت كاترينا وهي تفرك عينيها المجهدتين من فرط البكاء ودخان السجائر، وقالت ساخرة:

- لو تمالكت نفسك يا حمقاء.. كانت العقود الآن ستكون بين يدينا.. لكنك حمقاء.. لا تصلحين إلا لغسيل الثياب وغسل الصحون.. حتى

إنني لم أجد الوقت بعد أن فتحت الخزانة كي آخذ الأوراق منها..

ثم تنهدت في ملل، ورفعت عينيها نحوي:

- والآن.. ألن ننتهي من هذا الوضع الممل؟! لديك جريمة وجثة وثلاثة فاعلين اشتركوا في تنفيذها وأقروا بذلك.. فماذا إذن؟

ثم رفعت كفيها في الهواء وكأنها تطلب الخلاص، فضمت شفتي وأنا أهز رأسي في هدوء.

- والسكين التي طعن بها واختفت؟

كانت هذه من ناصر.

لكنها جاءت ضعيفة، خافتة، كأنها قادمة من نفق بعيد.

لكن كلمات كاترينا ترن في أذني بلا توقف.

ماذا أريد أكثر من ذلك؟

القضية حُلّت، ولديّ اعتراف سيُوَقَّع بخط اليد من ثلاثة اشتركوا في الجريمة، وملف مكتنز بكل شيء عن بسام الأصيل وفساده وتجارته المشبوهة، يكفي فقط أن أسربه للصحافة أو لأحد صانعي محتوى مواقع التواصل، ليعرف العالم كله مدى حقارة وقذارة هذا الوغد.

ماذا أريد أكثر من ذلك؟

- خذ المتهمين إلى حجرة مكتبك واجعلهم يوقعون على اعترافاتهم خطيًا.

- لكن يا كمال باشا.. السكين التي طعن بها...

- نَفَّذ الأمر يا حضرة النقيب.

نظر نحوي مندهشًا، وعيناه تحملان ألف سؤال وسؤال.

عيناه تسألان عن كمال الفوال الذي عرفه طوال مدة خدمته.

كمال الفوال الذي لن يترك أمرًا خطيرًا مثل هذا يمر مرور الكرام.

أين السكين؟ ولماذا طعن؟ ومن طعنه؟

لكن كمال الفوال قد مل يا ناصر.

كمال الفوال توقف عن صنع الأحاجي ومحاولة إعادة تركيبها.

قضية جاهزة لا غبار عليها.

إذن فلتذهب السكين وصاحبها والمطعون بها إلى الجحيم.

لذا عندما أخذ ناصر المتهمين الثلاثة، أمسكت بهاتفى ورحت

أحكي لعائشة، وعندما انتهيت، سمعت صوت ضحكتها المرححة التي تنير وجهها.

ثم قالت في هدوء:

- الآن يمكنني أن أنام مطمئنة يا كمال.. فسوف تعود إليّ أخيرًا.

- نعم يا عزيزتي.. نامي وارتاحي..

ثم سمعت القرع الحكومي المتزن على الباب، فتابعته:

- إن هي إلا بعض الإجراءات.. ثم أعود إلى المنزل مسرعًا..

ثم وضعت الهاتف إلى جوارى وأنا أتمتم:
- أراك قريبًا يا صغيرتي.
وعندما دخل ناصر الغرفة.
كنت قد انتهيت تمامًا من كل شيء.
وأغلقت هذه القضية بلا رجعة.

الفصل الرابع

كمال الفوال

(1)

ظهر اليوم السابع بعد الجريمة

لَمَن لا يعرفون مروان أبو المجد.. يمكن أن ألخص لهم مَن هو في جملة واحدة.

وكيل نيابة مجتهد.

أما مَن يحبون القصص والحكايات المليئة بالاستطراد والإسهاب، فسأقول لهم إن مروان أبو المجد رجل قانون صارم، حاد الملامح، أنيق كنجوم السينما، ابن قاض سابق عُرف عنه الجدية والالتزام، فنقل كل شيء لابنه كما نقل له كروموسوماته وفصيلة دمه.

والاهم من كل ذلك، إنه حاد الذكاء وسريع البديهة.

وهذا هو الصنف الذي أحب أن أتعامل معه من البشر.

في الواقع، كان مروان أبو المجد زميل دراسة قديمًا في المرحلة الثانوية، وكان يحلم أن يكون ضابط شرطة، لكن سيادة المستشار رئيس المحكمة أصدر حكمه بدخول كلية الحقوق، ثم دخول النيابة والتعيين فيها، ثم الخدمة في الصعيد قبل القاهرة حتى يشتد عود الصبي، ثم أخيرًا العودة إلى الجيزة حيث بدأ كل شيء.

لذا عندما أخبرني ناصر بوجه ملتوٍ وبلهجة مقتضبة أن السيد وكيل النائب العام، المستشار مروان أبو المجد قادم لمقابلتي بشكل شخصي، أجبته وأنا أتشاغل بقراءة محضر تحريات ما:

- أدخله مباشرة.. وافرد سحتك قليلًا.. فهذه ليست إلا قضية

وراحت لحالها.

- لم ترح لحالها يا كمال باشا.. هناك سكين مفقودة.. وهناك مَنْ طعن الجثة بعد موتها.. وأنت تتعامل مع الأمر كأنها دمية فقدتها طفلة في الخامسة.

نظرت له في برود:

- لولا أنني أرى فيك نفسي وأنا في سنك.. لكان لي تصرف آخر معك.. فلا تجعل تعاملي المتساهل معك يضيف إليك جرأة لن تحب عواقبها.

- لكن يا كمال باشا...

- انتهى يا حضرة النقيب.. انتهى هذا الكلام..

ثم عدت من جديد للتشاغل بقراءة محضر التحقيقات وأنا أتابع:

- انصراف يا ناصر باشا.. ولا تنس أن تمنع أي مضايقات أو مقاطعات بعد وصول سيادة المستشار.

سمعت خطواته المسرعة العصبية، وصوت إغلاقه الباب.

رفعت عيني أخيرًا من فوق الأوراق.

اللعنة عليك يا ناصر.

ماذا تريد؟ وعن ماذا تبحث بين سطور هذه القضية؟

لماذا لا تتركني في سلام وتغلق فمك؟! كما أغلق ملف القضية وانتهت.

مرت لحظة راحت الأسئلة تتزاوج وتتوالد في عقلي كبطارية
أرانب نشطة، ثم سمعت قرع الباب الهادئ.

- ادخل.

فُتح الباب، وظهر خلفه جسد رياضي ممشوق، حليق الوجه،
يصفف شعره الأسود الفاحم بعناية، ويرتدي سترة زرقاء كاملة
بربطة عنق بلون السماء تعتلي قميصًا أبيض ناصعًا.
وبشرته لامعة نضرة.

كأنه خرج لتوه من يد خبير تجميل ماهر.

- كمال بك الفوال.. لقد دب الشيب في رأسك وأصبحت عجوزًا
مسنًا.

- الرجال في أواسط أربعينياتهم يخالط الشيب رأسهم قليلًا يا
سيادة المستشار.

- ولماذا لا يحدث هذا معي؟

ابتسمت وأنا أدور حول المكتب الخشبي وأصافحه في قوة
متابعًا:

- منذ ثلاث سنوات.. سمعت أن ضباط الجيزة يظنون أنك مصاص
دماء.. لأنك لا تُصاب بالعجز مثلنا.

ابتسم ابتسامة وقور ساحرة، لو رأتها شابة فاتنة لخرت أمامها
مغشيًا عليها، ثم فتح أزرار سترته الأنيقة، وجلس على الكرسي
مشعلًا سيجارة بقداحة فضية.

- سمعت أنك أقلعت عن التدخين.

- أحاول أن أسترده بعضًا من صحتي وألا أعجل من ساعة رحيلي.

نفث دخان سيجارته عاليًا في سماء الغرفة، فتعلق الدخان فوق رأسه وكأنه يرسم هالة من هالات القديسين.

قديس الدخان مروان أبو المجد.

وبعد أن حضرت القهوة، وبعد أن شربها بهدوء وروية وهو لا يتوقف عن الحديث عن كل ما حدث وما يحدث في أروقة عمله، وعن أصدقائنا القدامى الذين شاركونا المدرسة الثانوية في يوم من الأيام.

وبعد أن جرع جرعة كبيرة من الماء من زجاجة المياه المعدنية التي فتحها بيده -لأنه لا يثق بمياه الصنبور في أقسام الشرطة- وبعد أن ألقى ببعض النكات الصبائية.

نظر إليّ في وجهي وقال:

- طبعًا أنت تعلم أنني لست هنا من أجل استعادة ذكريات الأيام الخوالي ولا من أجل الاطمئنان على صحتك؟

لأجيبه في غباء مصطنع يحمل نبرة ساخرة لم أخفيها:

- فعلاً؟! لقد ظننت أنك هنا لأجل هذه الأسباب!

نظر مروان إليّ.. وعلى عينيه تلك النظرة التي امتزجت فيها السخرية بالشفقة.. بالمحبة الخالصة التي يكنّها لي منذ أن كنا في المدرسة الثانوية.

وقال بنبرة هادئة حنون:

- أتعرف يا كمال؟ طوال عمري ومنذ أن عملت في هذه المهنة وأنا لا أعرف كيف أحكم على الأمور.. أحكم عليها من وجهة النظر الإنسانية؟ أم أحكم عليها من وجهة النظر العملية؟

ثم مدد ساقيه وعقد كفيه فوق ربطة عنقه السماوية الأنيقة متابعًا.. وهو ينظر إليّ في عيني:

- فإذا فكرت في الموضوع بشكل إنساني.. فسأصطدم بحقيقة أن هناك قتيلاً قُتِلَ وانتُهِكت حياته بطريقة أو بأخرى.. لكنني لا أعرف هل أتوقف عن السؤال عن الطريقة التي انتهكت بها حياته؟ فطالما صار لديّ متهمون وقد سجلوا اعترافهم ووقعوا عليه فإن الأمر قد انتهى.. هناك قتييل وهناك قتلة.. ولكن إذا فكرت في الموضوع بطريقة عملية؛ فإنني لا أستطيع أن أتوقف عن سؤال نفسي.. إذا كان بسام الأصيل قد قُتِلَ بالسّم، فلماذا توجد سكّين بالقرب من جسده كما ادعى قتلته الثلاثة؟ ولماذا اختفت هذه السكّين عندما وصلت قوات الشرطة؟ ولماذا طُعن بالسكّين من الأساس؟ فإذا كان قد قُتِلَ بالسّم.. فما الفائدة من سلخ الشاة بعد ذبحها؟ وإذا كان ميتًا بالفعل.. فلماذا التمثيل بجثته؟

ثم وضع ساقًا فوق ساق وفرد ذراعيه إلى جواره متابعًا كأنه يلقي حكمة اليوم في الإذاعة المدرسية.

- الحقيقة يا كمال.. أنا لا أعرف ما أقول.. لكن واجبي العملي هو ما يحكم هنا..

استمعت إلى كلماته بنصف عين مفتوحة ونصف عين مغلقة، فهذا الأمر لا يخصني في شيء.

فمن الناحية العملية فقد انتهى عملي.

هناك قتيل وهناك قتلة، وقد حققت في الأمر واكتشفت كيف قُتل القاتل، وكيف ارتكب القتلة فعلتهم، ورفعت تحقيقاتي واعترافاتهم وأقوالهم إلى النيابة لتمارس دورها، لذا فقد انتهى دوري.

أما من الناحية الإنسانية، فلا يعني الأمر في شيء، فليذهب بسام الأصيل إلى الجحيم، وليحترق جيدًا بنار خطاياہ وآثامه، فأنا لا أملك ذرة تعاطف معه، وبالنسبة لي هو مجرد جثة سثودع المشرحة، وسثمّح رقماً تسلسلياً، وبعد أن تنتهي التحقيقات سيُلقى في حفرة مقبرة مترين في متر، ويُهال عليه التراب، وسيكون العالم قد تخلص منه ومن شره.

لذا، قلت له مجيبًا بمنتهى البساطة والهدوء:

- افعل ما ترى أنك فاعله. إنسانيًا لا يعني الأمر في شيء.. وعمليًا فقد أديت دوري.. ل...

- لكنني لم أؤدّ دوري بعد يا كمال.. فدوري هنا أن أسلم إلى المحكمة قضية مُحكمة، حتى إذا وقف هؤلاء الثلاثة أمام القاضي لم يجدوا مفرًا من تنفيذ العقوبة عليهم.. فهذا هو عملي.

من جديد يعود مروان أبو المجد كما عهدته.

مروان أبو المجد رجل قانون، وهو لن يترك ثغرة لأحد كي يبطل إنفاذ القانون.

عندها نهض مروان وأملى عليّ قراره وكأنه جالس على مكتبه في نيابة الجيزة، وزر أزرار سترته الأنيقة، ثم شد السترة إلى الأسفل ليظهر جسده الشبيه بنجوم السينما من تحت السترة، وعدل من وضع ربطة عنقه السماوية الأنيقة قائلاً في حسم:

- أنا آسف يا كمال.. ولكني سأعيد فتح التحقيق في القضية.. فلا بد أن أعرف أين ذهبت السكين.. ولماذا طعن بسام الأصيل.

لماذا لا يتركني الناس في حالي؟ فأنا لن أكون أبداً وسيلة لتعطيل تنفيذ حكم العدالة في هؤلاء الثلاثة، فقد ارتكبوا ما يستحق العقوبة.. سواء بمشاركتهم لبسام الأصيل في تجارته المشبوهة.. أو بسكوتهم عنها حتى وإن لم يشاركوه في الجرم.. الجرم الذي ارتكبه في حق فتيات وبنات وسيدات أحنت رقابهن الحاجة.. ولوى أذرعهن العوز.. وشوهت وجوههن وأنفسهن نيران الفقر.

هنا يا سيدي سوف أنظر إلى وجه مروان أبو المجد مستنكراً، وسوف يواصل ذلك الصداع الضغط على رأسي، لكنني لن أنفعل ولن أصاب بالجنون، ولن أبدي سخطي لأنه يفعل ذلك، فهو في النهاية ينظر للأمر من وجهة نظره بصفته رجل عدالة، وأنا أنظر للأمر من وجهة نظري بصفتي رجل تحقيق للعدالة، فأنا جهة إنفاذ القانون.

لذا فقد نهضت من المقعد، وصافحته مصافحة قوية قائلاً:

- افعل ما تراه صحيحاً يا مروان.. ففي النهاية لا علاقة لي بهذه القضية من قريب ولا من بعيد.. وإذا رددت محضر التحقيقات إليّ من أجل المزيد من الاستبيان والتحقيقات.. فسوف أعتذر للسيد

رئيس المباحث وأطلب أن يكلف زميلًا آخر لي بها.

علامات الاستنكار تكسو وجه مروان أبو المجد.

لكنه في النهاية سيتفهم قرارى، فهو يعرف عني كل شيء ويعرف ما مررت به مؤخرًا.

يا رباه من ذلك الصداع! لا أستطيع أن أتحكم فيه، حتى وإن نمت الليلتين الأخيرتين على فراشي بعيدًا عن مقود السيارة القديم أو مكتبي الخشبي الجاف الصلب.

لكني لا بد وأن أتحكم في نفسي.. لا بد ألا أترك لمشاعري أن تخرج على وجهي كما تعودت من نفسي دائمًا.

هنا دخل ناصر الغرفة، أو بالمعنى الأصح اقتحمها.

وعندما اقتحم ناصر الغرفة ونظرت له في استنكار.. اعتذر.. اعتذر بإشارة خائبة من يده وبكلمات تتم بها لم يسمعها أحد سواه، ثم قال:

- أنا آسف يا كمال باشا.. ولكن كان لا بد أن أقترح الغرفة بهذه الطريقة.. خصوصًا بعد التطورات الجديدة في قضية ذلك الملعون.

- لماذا؟ هل صحا بسام الأصيل من نومته الأبدية وقال لك: أنا أعرف من طعنني ومن خبأ السكين؟!

- لا يا سيدي ولكن.. لأننا وجدنا السكين.. وجدناها مخبأة بعناية داخل إحدى خزانات الثياب في غرفة نومه.

- وهل لديه العديد من الخزانات؟

قلتُها ساخرًا غير معتنٍ بالخبر الذي قاله، والذي لفت انتباه مروان أبو المجد، لكنني لم أعر ذلك اهتمامًا، بل نظرت في وجهه وقلت:
- ناصر.. لا علاقة لي بهذه القضية من قريب أو بعيد.. فقد تنحيت عنها..

ثم التفت ناحية النافذة الزجاجية المتشققة متابعًا في هدوء وسلام لم أعهدهما في نفسي:

- هذه القضية.. سيكلف بها ضابط غيري في إدارة المباحث.. أو ربما كلفوك أنت بها.. وساعتها أجب عن الأسئلة التي وضعتها أمامي منذ يومين.. لماذا طعن بسام الأصيل بالسكين؟ ومَن خبأ السكين؟ وما فائدة هذا الطعن؟ لأن هذا الأمر لم يَعد يعنيني من قريب أو بعيد.

نظرات الاستنكار انتقلت من وجه مروان أبو المجد إلى وجه ناصر وكأنها عدوى، لكنني لم أعر ذلك اهتمامًا، بل جلست على المقعد خلف مكتبي، ومددت ساقي وعقدت كفي خلف رأسي وأنا أتَنفس..
شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير..

يا ليتك يا عائشة كنت تسمعينني الآن! لكنت رقصت طربًا، وكافأتني بليلة لن أنساها طوال حياتي.
لكنك يا عائشة لن تكوني هنا لتسمعي.

أغمضت عيني، ورفعت رأسي إلى أعلى وكأنما غفوت، ورأيتك بعين الخيال تبتسمين لي تلك الابتسامة الحنون التي تنير وجهك.

لقد حققت ما أريده يا عائشة وانتهى الأمر، لن أعود ثانية لفتح هذا الجرح القديم

فالآن قد أغلقت الجرح.. أغلقته إلى الأبد.

لكنني في وسط غفوتي، أسمع تلك الهمهمات التي تدور بين ناصر ومروان أبو المجد، وأتخيل نظرات الشفقة في عيونهم بينما مروان أبو المجد يقول:

- المسكين.. لا يمكنه أبدًا تجاوز تلك الصدمة.. على الرغم من أنه طوال عمره كان مقاتلاً.. كان لا يسقط ولا يستسلم.. حتى عندما كان ملاكًا صلبًا.. كان لا يسقط أبدًا بضربة قاضية من خصمه.. بل ينهض ويقاتل حتى آخر رمق

أي صدمة يتحدثون عنها؟!

فيقول ناصر بنفس اللهجة الهادئة، وقطرات الشفقة تتساقط من أطراف حروف كلماته:

- نعم.. حتى عندما عاد إلى العمل بعد أسبوعين فقط من وقوع تلك الحادثة الأليمة.. لم أكن أتخيل أنه سيكون قادرًا على العمل من جديد.. لكنه كما قلت.. مقاتل لا يستسلم.. دفن أحزانه في العمل حتى كاد العمل يقضي عليه.

عن أي حديث يتحدث هؤلاء المخابيل يا عائشة؟!

وبينما أفتح عيني، وأنظر في استنكار إلى ظهر مروان أبو المجد المستقيم في حلته الزرقاء الأنيقة، أسمعته يقول وكأن صوته يأتي من بئر سحيقة عميقة:

- بالتأكيد.. فكيف يستطيع أي إنسان أن يتجاوز كارثة مقتل زوجته بهذه البشاعة؟!

مقتل مَنْ؟! مقتل زوجته؟!

عن أي سخف يتحدث هؤلاء المعاتيه يا عائشة؟!

إنهم يقولون مقتل زوجته.. وهل أملك زوجة أخرى غيرك؟!

إلا أن وجهك الحنون يطل عليّ من غفوتي فيظهر أمامي ويقول:

- عزيزي.. آن الأوان أن ترتاح.. آن الأوان أن تذهب إلى المنزل ولا تعود إلى هنا.

لكن الصداق يقتلني يا عائشة، وأنا لا أستطيع، لا أستطيع مقاومته.

غمامة تهبط على عيني وأصوات تأتي من حولي لا أميزها.

ثم الظلام..

الظلام الذي أنهى كل شيء.

(2)

بعد الجريمة بخمس سنوات ونصف

حان الوقت كي أحكي كل شيء.

فمن حقلك يا مَنْ تقرأ هذه السطور من بعدي.. أن تعرف الحقيقة.

خمس سنوات وستة أشهر.. خمس سنوات وستة أشهر مرت وأنا
أنتظر كي أحكي.

والآن.. اجلس أنت في مكاني خلف ذلك المكتب الخشبي القديم..
وملّ عينيك من الجدار الحكومي متشقق الطلاء.

ثم انظر في عيني المتعبتين الدامعتين.

لأنني سأحكي لك كل شيء.

(3)

قبل الجريمة بشهر

جالسًا في حجرة مكتبي، ألقب في الأوراق أمامي بعيون منتفخة من قلة النوم، ورأس انتهكه الصداغ حتى كاد يقضي عليه.

أنظر في أقوال سجلها أحدهم تفوه بها أحدهم، وخلصتها هراء كامل مكتمل.

لماذا يظن الناس أنهم إذا كذبوا فلن نعرف أنهم يكذبون؟

صحت رافعًا صوتي أنادي جندي الخدمة.. طالبًا منه كوبًا من القهوة المركزة العقيلة.

وعندما أتاني بالكوب، وبينما أشعل سيجارتي العاشرة في ساعة، فوجئت بالجندي يدخل من جديد.

- هناك إشارة من النجدة يا معالي الباشا.

- خيرًا؟ أرني ما عندك.

أعطاني الورقة الحكومية الصغيرة، والتي تحوي ملخصًا لما ورد في الإشارة.

«حادثة سقوط جسد امرأة من شرفة في الطابق الرابع في شارع... رقم...».

إلخ إلخ من تلك الكلمات الرسمية.

وضعت الورقة على المكتب الخشبي بجوار المحاضر التي تحوي

كذبًا وهراء.. ثم نهضت حاملاً هاتفى المحمول، ورفعت بنطالى الذي أوشك على السقوط من مكانه بسبب فقدان وزنى من أثر فقدان الشهية.. ثم خرجت إلى بوابة القسم وأنا أصيح:

- عبد المولى.. هيا.. ستصحبني.

أفاق عبد المولى من غفوته، وألقى بالسيجارة المحلية داهسًا إياها بحذائه الميري، وانتفض معدلاً من ثيابه الحكومية، وفتح لي باب السيارة الزرقاء.

- إلى أين يا معالي الباشا؟

- إلى شارع... رقم... وأسرع قليلاً.

ركبت على المقعد المجاور، بينما قفز على مقعد السائق وانطلق. وطوال الطريق، رحت أحاول الاتصال بعائشة كي أخبرها باحتمالية تأخري من جديد.

فأله وحده يعلم ماذا سأجد هناك.. وما سيتطلبه من وقت كي أتم الإجراءات وأحصل على الأقوال وأشرف على نقل الجثة إلى المشرحة.. وأعود إلى القسم كي أنهي الورقيات.

لكن هاتف عائشة ما زال مغلقاً أو خارج الخدمة.

عائشة التي وافقت على أن تمنحني فرصة جديدة لأكفر عن ذنوبي.. وأدخلتني جنتها من جديد.. تحت ضغط إلحاحي.. ورومانسيتي المزيفة.. وأطنان من الورود والشوكولاتة.. وعشاء فاخر كلفني نصف راتبي في أحد مطاعم أكتوبر للاحتفال بتوقيع

عقد مسلسلاها المنتظر.. وشاشة تلفزيون جديدة تتعدى البوصات الخمسين.

وهاتفًا جديدًا لم تعُد بعد شحنه حتى لا يظل مغلقًا.

نحن في فترة إجازة من الدراسة.. إذن فهي لا تدرس الآن.. فلماذا تغلق هاتفها إذن؟

وضعت الهاتف فوق فخذي المهتزة من فعل التوتر، حتى وصلنا إلى موقع الحادث.

تجمع كثيف من البشر، والعشرات من جنود الشرطة في أزيائهم الرسمية، ودسته من المخبيرين في زي عادي لا يميزهم سوى شواربهم السمكة ونظراتهم العدوانية.

كأننا وسط احتفالية بنجم سينمائي في عرضه الأول.
ما كل هذا؟!

وفي وسط هذه الاحتفالية، جاء ناصر مهرولاً نحوي.
والصداع يكاد يفتك برأسي.

- ما كل هذا يا ناصر؟! ما هذا السيرك؟!

- أنت تعرف يا باشا.. نحن في أم الدنيا.. أتذكر أيام القنابل وكيف كان الناس يتجمعون لمشاهدة خبير المفرقات كأنه سيخرج أرنبًا من قبعته؟!

ابتسمت لتشبيهه، لكنني محوت تلك الابتسامة من فوري وصحت عاليًا:

- بشير.. اجمع هذه الشوارب المفتولة وأبعد هؤلاء المشاهدين..
فقرة الساحر انتهت!

نظرت بطرف عيني إلى ناصر، لأجده يبتسم ابتسامة ساخرة من
جزء سرقتي لتشبيهه الساخر.

- معلومات يا حضرة النقيب؟

- المعاينة المبدئية.. جثة لسيدة في أوائل الأربعينيات.. سقطت
من الطابق الرابع..

- ومن رآها تسقط؟

نظر إلى دفتر صغير في يده يسجل فيه ملاحظاته كأنه في
محاضرة فيزياء، ثم تابع وهو يقرأ:

- البواب.. رجل في أواخر أربعينياته.. كان يُحضر بعض الطلبات
لأحد السكان.. عندما رأى الجسد يسقط من الطابق الرابع.. ويضرب
الأسفلت أمامه.. وبعد أن تجاوز الصدمة.. اتصل بالنجدة مباشرة.

- وما معلوماتنا عن الشقة؟

قلب صفحة من المفكرة وقال في آلية:

- شقة مؤجرة باسم رجل يدعى.. محمود عبد العال زكي.

هذا الاسم ليس غريبًا عن أذني، أتذكر أنني قرأته في مكان ما.

- صورة بطاقته؟

- البواب لا يملك صورة البطاقة.. ويقول إن صاحب الشقة جاء مع

الرجل الذي استأجرها.. لكنه كان بمفرده.. ولم يرَ السيدة التي سقط جسدها.

- المعمل الجنائي؟

- وصلوا منذ خمس دقائق.

همهمت وأنا أحرك رأسي بلا رضا، ثم تقدمت وسط الجموع التي يفرقها المخبرون والجنود، ثم تقدمت من رجال المعمل الجنائي الذين تدثروا بثياب بيضاء كثياب ممرضي مستشفيات الحميات، وفي وسطهم يقف ذلك البدين متوسط الطول كجنرال في ساحة معركة، وهو يلقي بتوجيهاته على رجاله.

- الحلواني.. كيف حالك؟

التفت مصطفى الحلواني إليّ بوجهه المكتنز، ونظارته المربعة، ثم رسم ابتسامة عريضة على وجهه مُرحّبًا بي، وكأنني في صالة منزله.

- كمال الفوال.. أهلاً وسهلاً.

ثم مد يده يصافحني من ساعده كأنه يخشى نقض وضوءه، إلا أنني لاحظت القفازات تحيط بكفه.

- هاتِ ما عندك.

- ليس عندي الكثير.. سيدة في أوائل أربعينياتها.. سقطت على ظهرها من ارتفاع خمسة عشر مترًا تقريبًا.. ثُوِّفِت من فورها بنزيف داخلي حسبما أعتقد..

نظرت إلى الجثة المغطاة بغطاء أبيض سميك، وإلى رجال

الكلواني الذين راحوا يحصلون على بصمات أصابعها ويجمعون ما
انتشر حولها من بقايا عقد انفرط مع سقوطها.

عقد أعرفه ورأيته من قبل في مكان ما.

الجثة نفسها تبدو لسيدة قصيرة القامة، مكتنزة الجسد.

اقتربت من الجثة وأنا أرتدي القفاز الذي ناولني إياه الكلواني،
بينما وضع ناصر كفيه طويلتي الأصابع في قفاز آخر، وراح يتقدم
نحو الجثة معي.

وما إن جلست القرفصاء بجوار الجثة، حتى شممت رائحة جميلة
أعرفها جيدًا.

رائحة عطر فرنسي مليء بالياسمين، اشتريت مثله منذ أسبوع.
عطر شممته وحفظته.

لماذا يبدو هذا الجسد وكأنه جسد مألوف؟!

جسد اقتربت منه وعرفته وحفظته.

لماذا ترتعش يداي وهي تقترب من طرف الغطاء.

لماذا أشعر بكل ذرة في كياني تختلج رافضة أن أزيح الغطاء.

وعندما غالبت نفسي، ورفعت طرف الغطاء.

صدمني الوجه الذي رأيته.

وجه ملائكي مستدير، يسيل خيط من الدماء من شفثيه الرفيعتين
المضمومتين، ورموش عينيه تنسدلان على أطراف خده المتورد.

وجه ساحر يضيء الدنيا عندما يضحك، ويظلمها عندما يحزن.
وجه جعلني أنهار جالسًا فوق الأسفلت، ويديّ ترتعشان كأنهما
مصعوقتان بالكهرباء.

وصوت الحلواني الفخم يأتي من أعماق رأسي:

- مسكينة.. تبدو سيدة فاضلة.. لا أدري ما الذي دعاها للانتحار؟!
- لم تنتحر.

قلتها بصوت مختنق متهدج، والدوار يلعب برأسي كأنه مهاجم
ماهر.

بينما اقترب ناصر مني، وركع على ركبته متسائلًا:

- كمال باشا.. أنت بخير؟

نظرت له نظرة خاوية باردة، وعيناي تغشيان بغمامة سوداء راحت
تثبت من وسط عيني نحو أطرافها.

- كمال باشا.. أتعرف هذه السيدة؟

نظرت من جديد إلى الوجه الملائكي، ويد الحلواني تعيد الغطاء
فوقه.

والغمامة السوداء تنتشر في مدى إبصاري.

وصوتي المختنق ينطق اسمها بلا إرادة مني:

- عائشة.. اسمها عائشة.

- ومن تكون عائشة؟

نظرت إلى ناصر بعين تائهة، وصورة وجهه النحيل تختفي
تدرجياً كأنه مشهد سينما

وكانت آخر كلماتي قبل أن تبتلعني الغمامة السوداء.. كلمات
واضحة قاطعة مرتعشة:

- عائشة.. زوجتي.

(4)

قبل الجريمة بسبعة أشهر

مرهقًا متعبًا كعادتي أدخل شقتي المتوسطة المرتبة النظيفة..
الكائنة بشارع جانبي في جاردن سيتي.

شقة عادية.. كأي شقة ورثها أحدهم عن أب كان يومًا ما موظفًا
حكوميًا.. اشترى هذه الشقة في أيام الرخص والخير -كما يسمونها-
ثم مات وتركها بأثاثها القديم وحوائطها التي تملؤها بقع نشع الماء..
وأوشك طلاؤها أن يتساقط من فرط قدمه.. بينما رُقع القيشاني
ببلاطات مختلفة.. لأن صاحب الشقة متوسط الحال لا يقدر على
إعادة تجديد هذا الحمام العملاق ببلاطات السيراميك.

وصاحب هذه الشقة -وريثها على وجه الدقة- ضابط شرطة
يعمل في مباحث الجيزة، نُقل منذ شهور عديدة إلى مباحث القسم
المسئول عن المجمعات السكنية الفاخرة، والقصور التي يسكنها عليّة
القوم والسادة من مالكي الملايين.

رجل متوسط لا يملك إلا راتبه.. متزوج من امرأة متوسطة لا تملك
إلا نسبها الأصيل وشرفها المصان.. وبعضًا من لغة وملاحة في وجه
مستدير قسيم.. تلفه بحجاب أبيض بسيط.

رجل يعمل أحيانًا لخمس عشرة ساعة في اليوم.. لا تراه زوجته
فيما تبقى من اليوم سوى لساعة أو ساعتين.. تجلس بجواره فيهما
وتراقبه وهو يأكل كالحمير في النجيل.. ثم يدخل نصف علبة سجائر
أمام نشرة الأخبار أو أمام حلقة من مسلسل أجنبي.. ثم يعلن أنه

متعب ومرهق ويحتاج إلى بعض النوم.. فقط لينهض من نومه على صوت حركتها الدءوبة في حجرة النوم وفي الحمام الواسع العملاق.. وهي تستعد للذهاب لعملها المقدس بصفتها مُدرّسة..

ينهض فيجد إفطارًا بسيطًا لا يأكل أغلبه.. وكوب قهوة تفوح رائحته لشغرق الشقة.. فيرشف الرحيق الكافييني المقدس فوق معدة خاوية تئن من آلام القرحة.. ويكافح ليزيل صداغًا لا يتوقف منذ شهور.. ثم يتلقى قبلة حنونًا على خده.. لتتركه زوجته إلى عملها.. فقط ليترك البيت الخاوي إلى عمله..

وهكذا في دائرة لا تنتهي..

حياة هادئة متوسطة.. بلا أطفال.. بلا روح.

بلا حياة..

وغداً يوم جديد يُكرّر بلا انقطاع.

زوجة مخلصة حنون.. لا تتبرم ولا تشتكي إلا لمامًا.

حتى عندما تصرح بما يجول في قلبها من ألم الوحدة، فتقول:

- أنت لا تقضي الكثير من الوقت في المنزل.. وأنا أكاد أجن من الوحدة.

لأرد عليها في بساطة:

- يمكنك أن تفكري في هواية تسلي وحدتك.. فعملي صعب جدًا هذه الأيام.

فتهز رأسها في بساطة، وتعود إلى تصفح الفيسبوك في هدوء.

لكم تحملت مني الكثير يا عائشة!

لكم تحملت مني!

كم من ليالٍ كنتِ ترجين فيها حضناً ترتمين فيه وكتفاً تلقين
برأسك عليها ويداً تربت على كتفك.

لكنك لم تجدي منهم شيئاً.

لأن الحزن والكتف واليد.. كان مشغولاً بمطاردة الوهم..

وهم العدالة.

حتى عندما جاءت إليّ في تلك الليلة تحكي لي عما فعلته وكأنه
انتصار عظيم.

- هل رأيت منشوري الأخير على فيسبوك؟ لقد حقق تفاعلاً كبيراً.

- وهل صرت ناشطة على فيسبوك مؤخراً؟

أرد في لا مبالاة قاسية، فتزم شفتيها وتزمجر غاضبة:

- ألم تسمع مؤخراً عن «قصص من الحياة مع عائشة»؟

- أنا لا أقرب الفيسبوك.. ليس لديّ وقت لهذا كما تعرفين.

تنظر إليّ مستنكرة، فأجاملها بمد كف يدي طالباً أن تجعلني أقرأ
هذا المنشور، حتى أشاركها بهجة هذا الانتصار الصغير.

إلا أنها تسحب يدها بعيداً بهاتفها قائلة:

- لا تشغل بالك.. فأنت كما قلت ليس لديك وقت إلا لعملك المهم..

وأنا في الحقيقة لا أجيد كتابة محاضر التحقيقات.

ثم تتركني وترحل إلى حجرة النوم.. عابسة تعيسة مفعمة بخيبة الأمل.

لماذا لم تقرأ يا كمال؟

لماذا؟

وتمر الأيام، وحلمي أن أصبح أبًا لطفل تلده عائشة يتهاوى وينسحق تحت أقدام الأطباء والمدعين والدجالين.

ثم ينتهي الحلم ويذهب إلى الأبد.

لكن عائشة تحلم بأمور أخرى لا أعيرها انتباهًا.

أصبحت تحلم بأن تكون كيانًا له وزن وأبعاد ومضمون، وليس مجرد مدرسة وزوجة ضابط.. تقضي أوقات فراغها في مطاردات التفاعل على صفحات فيسبوك.. ومشاهدة مسلسلات المنصات المملة الطويلة.

ومراقبة زوجها المشغول المهمل وهو يأكل كالحمير.

زوجها الذي لا يفهم إلا ما يهتم أن يفهمه.

لذا عندما جاءتني تلك الليلة وتخبرني بذلك الحفل، لم أفهم ولم أستوعب إلا ما أردت أن أفهمه.

- أنا لن أذهب إلى حفل في مرقص أو ملهى ليلي.. هذه حفل افتتاح أحد المشروعات الجديدة.. وسلوى صديقتي زاهبة مع العديد من مدرّسي مدرستنا.. فصاحب المشروع هو أحد مساهمي

المدرسة.

- أنت طلبت رأيي وقلت إنني لا أوافق.. إذا كان رأيًا لا يهم.. إذن افعلي ما تشائين.

تزفر غاضبة، ثم تستعيز بالله من الشيطان وتجلس بجواري.

- يا كمال.. أرجوك.. الملل كاد يقتلني من كثرة الجلوس أمام التلفاز ومشاهدة المسلسلات المملة.. وانتظارك كي تأتي ليلاً لتأكل كفرس النهر.. ثم تنام كالفيّلة.

- أكرم الله أصلك.

ابتسم ابتسامة ساخرة شاعراً بالإهانة، وأنا أطفئ سيجارتي في المنفضة المعدنية لأسمع صوت ارتطام اللهب بالماء القليل.

صوت لا ينافسه سوى مذاق قُبلة من شفّتي عائشة على خدي.

قُبلة تطفئ النار.

- آسفة.. لم أقصد أن أهينك.. كنت فقط أحاول...

- ما علينا.. حصل خير يا عائشة.. لم تكوني تقصدين.. أنا أعرف ذلك.

ثم سحبت سيجارة جديدة وأشعلتها متابعاً:

- إذا كنت تريدان الذهاب لهذا الحفل.. فلديّ شرطان.

سحبت يدها من فوق صدري، وتبرمت بكلمات غير مفهومة بمعنى «بدأنا».

لكني تجاهلت تبرؤها و«برطمتها»، وقلت في هدوء:

- لا فساتين سهرة ضيقة تكشف أكثر ما تخفي..

- مفهوم.. والشرط الثاني؟

التفت نحوها وأنا أبتسم ابتسامة واسعة لمعت لها عيناها
الواسعتان.

- وألا تتأخري.. فغدًا عيد زواجنا.

قفزت تحتضني في جنون وهي ثقبّلي بلا توقّف.

قد أكون رجلًا مشغولًا.. لكني لا أنسى أن أستعين بصديق.

وهذا الصديق يستقر كتطبيق داخل هاتفي المحمول.. ويدعى
«المفكرة».. وهو يرسل لي بتنبيهات مهمة لم أتجاهلها يومًا.

شكرًا لك أيها الصديق.

(5)

قبل الجريمة بخمسة أشهر

عندما ذهبت عائشة لتحضر ذلك الاجتماع في شركة الأصيل للإنتاج الدرامي.. كنا لا نتحدث إلى بعضنا بعضًا منذ خمسة أيام.

خمسة أيام كاملة.. سبقها خمسة أيام أخرى قضيناها في عراك وتراشق بالكلمات والأفعال.. وتجاهل تام.. ثم نوبات جديدة من التراشق.

ثم صمت تام لمدة خمسة أيام كاملة.

خمسة أيام لا أكل فيها سوى من طعام بارد ملقى فوق طاولة السفرة العتيقة، وأشرب قهوتي في المقهى النظيف على أول شارعنا.. وأتناول إفطاري من عربة فول بجوار السجل المدني خلف القسم.

خمسة أيام لا أحدث أحدًا فيها سوى نفسي.. وصورة عائشة على هاتفي المحمول.

خمسة أيام أفرطت فيها في التدخين حتى تحولت إلى فرن بطاطا كريبه الرائحة.

حتى عندما عادت من الاجتماع، وكنت أنا نائمًا فوق فراشنا أعاني نزلة معوية والتهبت قرحتي المزمنة.. حتى استنزفت كل قواي..

لم يخرج حرف من فمها.

خلعت حجابها، ثم خلعت ثيابها، وارتدت بيجامتها القطنية المزينة

بقلوب وردية.

وخرجت إلى المطبخ لثُعد لي حساءً ما.. وبعض البطاطس المهروسة.. حتى أستطيع أن أسترد عافيتي.

ثم تترك كل شيء فوق طاولة السفرة.. وتجلس في ركن قصي تشاهد التلفاز بنصف عين.. بينما أصابعها تكتب قصصها ومنشوراتها على صفحة فيسبوك.

وعندما يشم أنفي رائحة الحساء والخضراوات والبطاطس.. تجرني قدماي إلى طاولة السفرة.. فأعب من الطعام الذي صار باردًا ماسخًا معدوم الطعم والرائحة.

اللعنة على لساني السليط.. وغضبي الذي لا أقوى على كبح جماحه!

اللعنة علي وعلى أخلاقي التي تليق بفحل زريبة.. وليس برجل متحضر!

كيف أعايرها بعدم الإنجاب.. بعدما كنت سلمت أمري وأمرها لله.. وأقسمت عليها ألا تأتي على ذكر هذا الأمر من جديد؟!

كيف أعايرها بوزنها الذي يزيد وجسدها الذي يفقد جمالها بسبب خلل هرموني لا ذنب لها فيه.

أنا حيوان.. ولا أستحق أن أعامل كالبشر.

لذا لم أُلها كميزًا على إلقاء الطعام لي فوق الطاولة من دون كلام.. كأنني شحاذ لحوح.. يجلس على بابها مترجيا كسرة خبز.

حتى عندما شد عودي وبدأت أستعيد عافيتي.. وبدأت أتودد لها طالبا المغفرة والسماح..

لم تُجِب كلماتي سوى بنظرات تكاد تذبحني من فرط حدتها.
وأنا أواصل التودد والاعتذار وطلب المغفرة.

وهي تواصل الصمت والكتابة ومشاهدة المسلسلات المملة.

ومؤخراً بدأت في كتابة الملاحظات وهي تشاهد المسلسلات.

هل لهذا ذهبت إلى موعد في شركة الأصيل التي تُنتِج أفلام الرقص والتمثيل الهابط والقصص السخيفة المكررة؟

لا أنكر أن فضولي كاد يقتلني.. بل إنه شكّل دافعا مهما لطلب المغفرة.

فضولي كي أعرف.

فأنا مثل غيري في هذه البلاد.. نعرف أي مصيبة حلت بنا عندما جاء بسام الأصيل إلى مصر.. نعرفه جيّداً من فيديوهات الأغاني التي كان ينتجها لمطربات الدرجة الثانية والعالمة.. ولفتيات الإعلانات اللاتي يختفين بمجرد أن يظهرن على الشاشة.

كلنا عندما كنا مراهقين وشباباً في سن الجامعة.. كنا نرى علامة الأصيل قبل أي فيديو على تلك القناة المشهورة وقتها.. فنعرف أننا أمام وجبة دسمة من الصدور العارية البارزة.. والسيقان والأفخاذ الملفوفة الناعمة.. والرقصات التي ترقص معها الهرمونات داخل الخلايا في فرحة.

فماذا يريد الأصيل وشركته من سيدة قصيرة مكتنزة هادئة الملامح.. كل مواهبها هي إعداد القهوة بوجه ثقيل.. وتطبخ الملوخية كشيف محترف.. وتكتب قصصًا اجتماعية بلهاء على صفحة فيسبوك.

لذا ذهبت لها في ركنها القصي، وسحبت مقعدًا وضعت أمامها، فرفعت عينيها من هاتفها المحمول في لا مبالاة، ثم عادت تنظر إلى شاشته وتقلب الصفحات.

- عائشة.. لا بد أن نتحدث..

تجاهل تام.

زفرت وأنا أبعد وجهي عنها ليصطدم بصورة كبيرة معلقة على الحائط.. صورة لرجل يرتدي حلة سوداء أنيقة، وشعره كثيف فاحم ويلف ذراعه حول عروس جميلة في فستان أبيض محتشم، وهما يبتسمان ابتسامة واسعة إلى الكاميرا.

رجل يُدعى كمال وامرأة تُدعى عائشة.

عائشة تجلس على المقعد مواجهة لصورة عرسنا المبارك.

أي رسالة مؤلمة تبعث بها لي؟!

- عائشة.. أرجوك أن تجيبيني.

- ماذا تريد يا كمال؟

أخيرًا نطق أبو الهول وأفاق من غفوته وصمته.

وهي لا تزال تنظر في شاشة الهاتف المحمول.

- أريد أن أعرف لماذا لا تتحدثين إليّ؟! لماذا لا تردين عليّ؟!

- لأنني لا أريد أن أفعل ذلك.

- ولماذا؟

رفعت عينيها عن المحمول، ولمحت فيهما خيبةً وحزنًا ولوّما لا قبّل لي بمواجهتها.

- لأنك قطعت آخر وتر في أوتار قلبي يا كمال.. أنهيت عليّ بكلماتك التي لا تعرف كيف تخرج من فمك.

ثم وضعت الهاتف المحمول فوق الطاولة الصغيرة، وعقدت كفيها أمامها.

- والآن ماذا تريد؟

- أريد أن أعرف لماذا ذهبتِ إلى اجتماع في شركة ذلك القواد بسام الأصيل؟!

- أتنتعته بالقواد لأنك تعرف ذلك؟! أم لأنك تريد أن يكون كذلك؟!

وضعت كفي فوق ركبتي وأنا أضغط عليهما لكبح جماح غضبي المشتعل في مؤخرة رأسي، وأحاول السيطرة عليه.

- لأنه قواد.. حتى ولو لم يقيم بفعل القوادة.. لكنه يسهله بكل فيلم ينتجه وبكل فيديو يخرج من قنواته..

ثم سندت رأسي على قبضتي وأنا أنظر لها متابعًا:

- والآن.. أجيبني عن سؤالي إذا تكرمت.

- أهذا كل ما يهتمك في الأمر؟

سألتني وعلى وجهها علامات الاستنكار، وعيناها تنذران بأمطار
دمعية لن تتوقف طوال الليل.

- ليس هذا هو الأمر.. لكن...

- لكن ماذا؟! تريد فقط أن تعرف إن كان بسام الأصيل قد فكر في
إمالة رأسي وضمي إلى فريق فتياته ونجماته.. اطمئن يا حضرة
الضابط.. فأنا لست مناسبة لهذا الدور.

ثم أشارت لجسدها المكتنز وقالت:

- فجسدي المتهدل المكتنز لا يصلح.. حتى زوجي لا يراني أصلح..
أليس كذلك؟

رأسي المنكسر فوق كتفي ينظر إلى تلك البقعة في سجادة الصالة،
وشفتاي ترتجفان لا تقويان على النطق بشيء.

حتى الكلمات تخرج من شفتي خافتة مرتجفة.

- أنا.. أنا آسف.

أمسكت بهاتفها المحمول متجاهلة إياي كأني غير موجود، فنهضت
من فوق المقعد وأنا أحاول مغالبة خيبة أمني ونقص المفردات في
عقلي، وحملت المقعد بيدي وأنا ألتفت راحلاً.

وهنا خرجت الكلمات من شفتيها متهدجة من أثر البكاء القادم:

- يريدون إنتاج مسلسل من مسلسلات المنصات.. وسيحصلون
على حقوق قصصي لتحويلها إلى ذلك المسلسل.

لم أقوّ على الالتفات.

لم أقوّ حتى على الاعتراض.

لم أقوّ سوى على الهمس بصوت خافت أشك أنها سمعته:

- جميل.. وفقك الله.. أنا سعيد لأجلك.

ثم وضعت المقعد في مكانه على السفرة.

وارتديت ثيابي على عجل.

وفتحت الباب ورحلت.

رحلت إلى المكان الوحيد الذي أستطيع أن أتكلم فيه مع الناس

فيجيبيوني.

(6)

قبل الجريمة بأسبوعين

أسبوعين لم أذرف فيهما دمعة واحدة..

لم أبك قهزًا ولا حسرة على الملاك الذي قرر أن يحرم البشري
الفاني من نور وجهه.. وأن يرحل إلى السماء من حيث أتى..

كنت أجلس في نفس الركن الذي تعودت أن تدفن فيه أحزانها
وآلامها ومعاناتها من تجاهلي وإهمالي وقلة صبري وعصبيتي..

توقفت عن الأكل حتى غلقت لي المحاليل المغذية.. وصرت كائنًا لا
يتغذى إلا على السوائل..

أسبوعين قرر الطبيب النفسي بعدهما أنني قادر على العمل بكفاءة،
وأنه مندهش من صبري وقوة إيماني، وأني استطعت أن أتجاوز
الصدمة في هذه المدة..

إلا أنني -وكعادتي- كنت أكبت غضبي وقلة صبري ومعاناتي خلف
قناع المقدم كمال الفوال.. الملاك السابق.. وبطل الجمهورية لعامين
متتاليين..

كمال الفوال الذي لا يستسلم أبدًا..

لذا لم أندesh عندما رأيت نظرات الشفقة المخلوطة بالإعجاب في
عيني الطبيب النفسي وهو يوقع إذن صلاحية عودتي للعمل..

لم أندesh عندما رأيت نظرات الانبهار والدهشة في عيني ناصر..
وهو يراني أدخل القسم بوجه حليق وثياب مهندمة وأنا أطلب منه

ملخصًا عما حدث في آخر أسبوعين وأنا جالس في ركن عائشة المفضل.

لم أندesh عندما اتصل بي مروان أبو المجد وهو يشجعني بكلماته القوية الشبيهة بمحاضرات التنمية البشرية.. ثم وهو يختم مكالمته بجملة حاسمة من جملة الخبرة:

- السيدة عائشة لم تنتحر..

- أعرف ذلك يا مروان.. لم تأتِ بجديد.

زفر عبر الهاتف حتى كادت أنفاسه تحرق وجهي.

- في رأيك.. مَنْ في مصلحته أن يقتل السيدة عائشة.. ويحاول تدبير هذا الأمر كأنه انتحار؟

- هذا سؤال للمقدم كمال الفوال.. أم للزوج الأرملة كمال الفوال؟

- أجب بأي شخصية تحب.. فالاثنا سوا.

- لا يا حضرة وكيل النائب العام.

كنت أشخبط بقلمتي فوق الورقة البيضاء راسمًا دوائر متشابكة بقلم جاف أحمر.

- المقدم كمال الفوال يقول لك إن أركان جريمة القتل واضحة وضوح الشمس.. تقرير الطبيب الشرعي يؤيد ما ورد في محاضر تحقيقات الشرطة وشهادة الشهود.. كما أن زاوية السقوط تثبت أنها سقطت على ظهرها وحدث تهتك في...

- أعرف كل ذلك يا سيادة المقدم.. أعرف.

- أما كمال الفوال الزوج الأرملة.. فيقول لك يا حضرة وكيل النائب العام.. إن زوجتي عائشة لا يمكن أن تلقي بنفسها من الطابق الرابع.. ولا يمكن أبدًا أن تفكر في الانتحار.. وإنها حتى لو فكرت في الانتحار.. فكانت ستختار طريقة أكثر شاعرية وأقل ألماً..

ثم نظرت في ساعتى لأتأكد من الوقت، ثم تابعت:

- والآن.. إذا لم يكن هناك شيء يتعلق بالعمل.. أرجو أن تتركني أؤدي عملي.. لأنني اشتقت إليه بالفعل.. إلى اللقاء يا سيدي.

ثم أنهيت المكالمة، ورحت أدق بأصابعي على المكتب الخشبي، وأنا أعد الدقائق التي أنتظر مرورها.

وعندما التقت عقارب الساعة ببعضها بعضًا فوق رقم الثانية عشرة.. سمعت القرع الهادئ على الباب.

- ادخل.

فُتح الباب بهدوء، وظهر على عتبة دولا ب بشري يرتدي بنطالاً من الجينز وحذاءً يزيد حجمه على حجم رأسي، وسترة من الكتان كادت تتمزق من فوق عضلاته.

- مساء الخير.

- سمير علوان.

وارتسمت ابتسامة باهتة على وجهي، هي الأولى منذ أسبوعين كاملين، وأنا أقترّب منه وأصافحه، لتحتوي يده العملاقة يدي كأنني طفل يتعلق بيد أبيه!

- البقاء لله يا كمال.. لقد عرفت الخبر منذ...

- ونعم بالله.. الحمد لله على كل شيء.

ثم أشرت له كي يجلس فوق المقعد الجلدي ذي الأرجل المعدنية،
الذي راح يأن أسفله من فرط ما يتحمله.

- يا ابني.. قهوة سادة للباشا.

ابتسم من صيحتي الشبيهة بصيحة صبي قهوة في حي شعبي،
وراح يتجاذب معي أطراف الحديث عن العمل والزملاء والدفعة
ومن استقال ومن ترقى..

وبعد أن رشف أول رشفة من قهوته الثقيلة عديمة السكر، نظر إليّ
قائلًا بصوته الثقيل كوزنه، لا أعرف كيف يكون الصوت ثقیلاً.. لكنه
كذلك:

- بخصوص طلبك الخاص.. الطرد معي في السيارة.

- لو سمعنا أحدهم.. لظن أن سيادة المقدم كمال الفوال والعقيد
سمير علوان أصبحا يتاجران في المخدرات لزيادة دخلهما
المتناقص.. ولأبلغ عنا الشرطة.. تخيل.. شرطة تبلغ عن شرطة.

ثم ضحكت ضحكة ساخرة مبالغ فيها، أثارت نظرة شفقة محرجة
في عينيّ سمير علوان الغائرتين في ملامح وجهه الصلبة.

قطعت ضحكتي، وقلت في جدية:

- هو نفسه؟

- بالتأكيد.. فيمكنه التخفي كما يحب والاختفاء كما يحب.. لكنني

سأتي به ولو في بطن أمه.

ثم أخرج من جيب سترته بطاقة رقم قومي، وألقاها أمامي على المكتب.

- محمود عبد العال زكي.. خمسة وثلاثون عامًا.. مسجل سوابق في ثلاث قضايا تعدّ بالضرب وإحداث عاهة مستديمة.. يعمل حاليًا بالأجرة لمن يدفع أكثر.. وتخصّصه الأساسي هو منافسي رجال الأعمال.. كأنه مطرقة يستخدمونها لتكسير عظام بعضهم بعضًا..

كنت أعرف أن هذا الاسم ليس بعيدًا عن أذني عندما سمعته، فقد مر بي هذا الاسم من قبل في إحدى القضايا، واكتشفت ساعتها أن البطاقة مزورة، وأن هذا الاسم هو أحد أسمائه العديدة التي يستخدمها في ممارسة مهنته القذرة.

- وكما تعرف.. هذا أحد أسمائه المستعارة التي يستخدمها في اتفاقات عمله.. لكنه مشهور باسم آخر في أوساط أبناء الكلاب على شاكلته..

- حمودة الونش.

قلتها في هدوء وأنا لا أرفع عيني عن صورته الباهتة على البطاقة الشخصية

حمودة الونش.

- اسمه الحقيقي محمد جابر التهامي.. وتربطه صلة قرابة بعائلة من عائلات الصعيد.. لكنهم تبرءوا منه في أكثر من مناسبة.. بل أسهموا في القبض عليه في إحدى المرات.. ومؤخرًا خرج من

السجن.. وقضى فترة غاب فيها عن النشاط.. وافتتح شركة حراسات خاصة.. شريكه فيها رجل أعمال معروف.. سكندري الأصل.. لكن الجميع يعرف أن هذا الرجل ما هو إلا واجهة من واجهات رجل أعمال آخر.. يُدعى...

ثم أخرج ورقة مطبوعة من جيبه تحمل صورة لرجل دقيق الملامح، يرتدي نظارة طبية ذات إطار مذهب ويبتسم في غموض. رجل أعرف صورته من الصحف، ومن اللقاءات التلفزيونية، ومن مواقع الإنترنت.

- بسام الأصيل؟

- هو هذا.

- أليس هذا صاحب شركة الإنتاج السينمائي إياها؟

- وشركات الضيافة والخدمات وفندق في الإسكندرية وآخر في الغردقة.. لكننا بدأنا مؤخرًا نشم رائحة نتنة في عمله.. رائحة الرقيق الأبيض.

رفعت عيني عن الورقة، ورحت أنظر له مندهشًا.

- دعارة؟

- ليس بالمعنى المعروف.. بل بمعنى آخر أكبر وأعمق.. يمكنك أن تسميها.. خدمات جنسية شاملة.

ثم أطلق ضحكة مجلجلة من وقع الوصف الذي استخدمه في وصف تجارة ونشاط بسام الأصيل.

نظرت من جديد إلى البطاقة وإلى الورقة، ومن دون أن أرفع عيني عنهما:

- سمير.. أنت تدين لي بخدمة.. أليس كذلك؟

- بلى.. لقد أنقذت حياتي يومًا ما يا رجل.. لذا لن أتأخر في منحك رقبتني نفسها لو طلبتها.

- لا.. لن أطلب رقبتك الآن.. بل أريد طلبًا أبسط من ذلك.

اعتدل في جلسته فأثَّ المقعد شاكيًا لائئًا.

- أريد منك أن تغض عينيك قليلًا.

- عن ماذا؟

- عما سأفعله بالونش.. فلي معه حديث آن أوانه.

- لك هذا عن طيب خاطر.

هكذا ببساطة ومن دون أن أقنعه بشيء!

- ألن تملي عليَّ محاضرة عن حقوق الإنسان وحقوق المتهمين؟!

نهض من مقعده كأنه ديناصور ينهض من غفوته، وضم سترته إلى جسده العملاق.

- مَن على شاكلة الونش يستحقون الحرق بجاز قذر.. وفي ميدان

عام.. ولولا القانون وشرف المهنة.. لأطلقت عليه الرصاص فور أن أراه.. وألقي بجثته في الشارع كالكلب الأجرب.

ثم أشار لي بيده العملاقة كي ألحق به.

وعندما خرجت معه من بوابة القسم وأنا أحمل طبنجتي الميري
في حزام تحت إبطي، وأرتدي سترتي القطنية السماوية التي أتنى
بها عائشة هدية عيد ميلادي الثلاثين، وعندما وصلت لي سيارته
ذات النوافذ الداكنة، وفُتح باب السيارة الخلفي، رأيت ذلك الوجه
جالسًا في المقعد الخلفي، وعلى عينيه كدمة زرقاء كبيرة، وخيط دم
جاف يسيل من أنفه، بينما شريط لاصق يغطي فمه.

- ما هذا يا سمير؟! قلت لك إنني أريده قطعة واحدة!

رفع كتفيه في لا مبالاة وقال ببساطة:

- لقد قاوم رجالي وهم يحضرونه من وكره الذي كان يختبئ فيه..
أضرار جانبية بسيطة.

ثم نظر إليّ في جدية متابعًا:

- إلى أين؟

- إلى المكان الذي سيجعله يتشجع على الكلام..

ثم نظرت إلى الوجه الشبيه بوجه فرس نهر شرس، وارتسمت على
شفتي ابتسامة ساخرة جذلة.

وكانني سأستمتع بما أنوي فعله.

وعندما أدخلناه مكبلًا بالقيد الحديدي إلى التخشيب القديمة
العطنة التي أتت الرطوبة على حوائطها، وغاب نور الشمس عن
نافذتها، والتي أغلقت من قِبَل لجنة التفتيش في الوزارة.. وأغلقت
عليه الباب معي.

أجلسته على المصطبة الحجرية القديمة، ووضعت مقعدًا معدنيًا قديمًا أمام عينيه اللتين امتلأتا بغضب عارم، تحول إلى رعب حيواني عندما رأى طبنجتي الميري تخرج من أسفل إبطي، ثم ازداد عندما خلعت سترتي، وشمرت أكمام قميصي في حركة سينمائية.

- كيف حالك يا حمودة؟

هز رأسه يمينًا ويسارًا في هستيريا، بينما أقول من جديد:

- سأنزع هذه الكمامة بشرط واحد.. ألا ترفع صوتك وألا تنهز وتصرخ بلا فائدة.. لأنه لا أحد سيسمعك.. فالتخشية والمبنى كله مهجور وتحت التجديد.. ولأنك إذا رفعت صوتك.. فسوف تستقر رصاصة بين ساقيك.. لو لم تأت على حياتك.. لأت على أعز ما تملك.. والآن.. هل نحن على وفاق يا حمودة؟

نظر لي من جديد في رعب، ثم هز رأسه لأعلى وأسفل موافقًا، وجسده الضخم القصير يرتعش رعبًا.

وعندما خلعت الشريط اللاصق من شفتيه، كانتا زرقاوين هرب الدم منهما، واللعب يسيل من طرف فمه.

- أنا لم أفعل شيئًا.. أقسم بشرف أبي إنني لم أفعل شيئًا يا سيدي.

- لا تقسم أيها الحثالة.. اصمت ولا تتفوه بحرف إلا عندما أمرك بذلك.

أوما برأسه المرتعش في رعب.

رعب ازداد أضعافًا عندما رأى الطبنجة تلتصق بخده وأنا أقول

بصوت أرعبني أنا شخصيًا:

- السؤال هو: لماذا ألقيت بالسيدة المُدرّسة البريئة من شرفة الشقة؟ ومَن دفع لك لتفعل ذلك؟

- أقسم ألا علاقة لي بالموضوع من...

فقط لتقاطعه ضربة من يد المسدس على أنفه، فأسمع صوت تحطيمه.

وأسمع أناته وصوت صرخته المكتومة.

- والآن.. لنبدأ من جديد.. لماذا ألقيت بالسيدة البريئة من الطابق الرابع في تلك الشقة التي استأجرتها باسمك المستعار؟

لم يُجب ولم يصدر منه حرف.

أنفه ينزف بلا توقّف ليغرق فمه المرتعش، وعيناه تشعان بريقًا حيوانيًا مرعبًا كأنه ثور أوشك على الذبح.

- حمودة.. للمرة الأخيرة أسألك بكل هدوء.. لماذا ألقيت بها من شرفة الشقة؟

نظر إلى عيني في رعب، ورأيت في عينيه نظرة اختلط فيها الرعب بالرجاء بالغضب.

- أرجوك يا باشا.. أقبل قدميك.. أرجوك.. أنا لست قادرًا على مواجهة هؤلاء الملاحين.

- وكذلك.. أنت لست قادرًا على تحمّل ما سأفعله بك إن لم تتكلم يا حمودة.

أشاح بوجهه إلى الحائط العطن الذي شققت الرطوبة طلاءه
وطبقة محارته، وظهر الطوب الأحمر من خلفه بارزًا داميًا كوجه
حمودة الونش.

- إذن فهذا اختيارك يا حمودة.

ثم سحبت مشط الطبنجة، ووضعتها فوق ركبتيه البارزة من أسفل
بنطاله الجينز الممزق.

- الطلقة إذا جاءت من وضع التصاق مثل هذا.. فستخترق
الرصاصة ركبتك وتحطم عظامها.. ستفتتها تمامًا.. ولن تكون قادرًا
على المشي بساقلك هذه من جديد.. كما أن الصوت يا عزيزي لن
يسمع.. لأن ركبتك السميقة المحاطة بالدهون والعضلات سوف تكتم
الصوت.. وبعد أن أنهي الأمر مع ركبتك اليسرى.. سأتولى أمر ركبتك
اليمنى.. ولن تصبح قادرًا على المشي بقية عمرك.

ثم نظرت إلى وجهه وعلى عيني نظرة ذئب شرس يوشك على
التهام فريسة عاجزة،

نظرة لو رأتها عائشة لفرت من أمامي ولقاطعتني بقية عمرها.

لكنني يا عائشة أفعل ذلك من أجلك.. من أجل أن تنامي في سلام
داخل جنتك.

كيف يغير الغضب والقهر الإنسان لهذا الحد؟! من يصدق أن كمال
الحوال.. الرجل الذي لا يريد سوى تحقيق العدالة.. يمكنه أن يفعل
ذلك؟!

كمال الفوال.. الذي يجلس أمامه أحد عتاة الإجرام.. مقيد اليدين..
دامي الوجه.. محطم الأنف.. وسيل من الماء نتن الرائحة يبيل ما بين
ساقيه رعبًا وخوفًا!

- والآن يا حمودة.. ساعد حتى ثلاثة.. واحد..

- أرجوك يا باشا.. أرجوك...

- اثنين...

- أنا لا أعرف شيئًا.. أقسم لك بشرفي إنني لا أعرف.

- ثلاثة.

ثم انطلقت الرصاصة.

دوي مرتفع كتمه سماكة ركبته وكم الدهون والعضلات التي تغطي
ركبته، تبعه صوت تحطم العظام، وصرخة رعب عاتية صدرت من
شفتيه الداميتين.

صرخة تبعها بكأؤه وعويله، وساقه ترتعش كضفدع ذبيح.

- والآن يا حمودة.. هل أنت مستعد للإجابة عن سؤالي؟

- سأخبرك بكل شيء يا معالي الباشا.. كل شيء.. لكن أرجوك..
أرجوك لا تقتلني.

- أنا لست مملك يا حمودة.. لست قاتلًا.. لكني أريد أن أعرف.

قلتها وأنا لا أصدق نفسي.

فأنا على استعداد أن أقتل ألف مرة، كي أنال المعرفة.

وانطلق حمودة يحكي كصنبور تالف.

يحكي عن مقابلته لبسام الأصيل، وعن طلبه له بمراقبة السيدة ومحاولة جرّها إلى منطقة معزولة كي يُعتدى عليها وينتهي أمرها، ثم فشله المتكرر في فعل ذلك، ثم أمره له بأن ينتهي من أمرها.

حكى له عن الخطة التي صنعها برعاية بسام الأصيل في قلب جنته، وكيف سثّقّع السيدة المسكينة بالحضور إلى تلك الشقة على أنها أحد مكاتب شركة إنتاج أخرى، تريد أن تُنتج لها مسلسلاً طويلاً، بعد فشل تجربتها الواعدة مع شركة الأصيل، وكيف سيُلهى البواب حتى لا يراها، وكيف سيُزيّف أمر انتحارها، التزييف الذي فشل فيه، وتسبب في أن يخضم بسام الأصيل ربع أتعابه عندما أثبتت النيابة أنها ليست بالمنتحرة.

حكى كل شيء بلا توقّف.

حكى حتى جف حلقه وجفت دماؤه على وجهه.

لكن لحم ركبته البارز، والدماء السائلة منها لم تتوقف.

وبعد أن انتهى من حكي كل شيء، قال بفم مرتجف:

- والآن يا باشا.. هل تسمح لي بالرحيل؟ والله أخبرتك بكل شيء..
والله على ما أقول شهيد.. صدّقني يا باشا.

- أصدقك يا حمودة.. أصدقك..

ثم وضعت الطبنجة أسفل إبطي من جديد، وجلست على المقعد عاقداً ذراعيّ وأنا أنظر إلى وجهه المشوه.

- ولكن.. لن ترحل قبل أن تؤدي لي خدمة أخرى.
- أنا تحت أمرك يا معالي الباشا.. أوامرني بأي شيء تريده.
- أريد منك أن تساعدني في أمر هام.. خدمة سأظل أذكرها لك طوال عمري.
- هز رأسه موافقًا مرتعشًا خائفًا راجيًا في عفوي.. ممنيًا نفسه بالحرية والفرار.
- أريدك أن تدخلني فيلا بسام الأصيل.
- لا أفهم ما تريده بالضبط يا باشا.. فالفيلا موجودة في...
- قاطعته مطلقًا في اعتراض سينمائي وكأنني عادل أدهم في عزه، وهزرت رأسي يمنة ويسرة في هدوء:
- لا يا حمودة.. لا أريد أن أدخل فيلا بسام الأصيل ضيقًا.. بل أريد أن أدخلها صاحب بيت.. مفهوم يا حمودة؟
- خفت نظرة الرعب في عينيه، ولمع مكانها بريق حيواني يذكّرني بصور الضباع في أفلام ناشونال جيوغرافيك.
- لقد أثرت عقله القذر وحفزت ملكاته بوصفه لص منازل متمرسًا.
- في هذه الحالة يا باشا.. هناك حل واحد.. سيجعلك تدخل المنزل وكأنك بسام الأصيل نفسه.
- وما الحل يا حمودة؟

ابتسم ابتسامة ثقة، وازداد بريق عينيه حتى كاد يضيء الغرفة

العتمة العطنة.

- لكي تدخل الجنة يا باشا.. لا بد أن يفتح لك حارسها..

- ومن حارسها يا حمودة؟

- رضوان يا باشا.. رضوان.

(7)

قبل الجريمة بنصف ساعة

مر الأسبوعان كأنهما دهر كامل.

أسبوعان كاملان من التخطيط والترتيب لكل شيء.

أسبوعان كاملان من البحث والتدقيق، والتفتيش في ماضي رضوان للبحث عن ثغرة أنفذ منها إليه.

لكن الثغرة كانت أبسط مما أتخيل.

فالسيد رضوان حارس الجنة، لم يكن يحب في حياته سوى شيئين، وبسبب هذين الشيئين لم يتزوج ولم يخرج من الفيلا منذ أن دخلها.

البلح.. والمال.

كان لا يجد متعته سوى في رعاية النخل القصير المثمر في حديقة جنة الأصيل، بل كان يتفنن في تلقيح الأنواع المختلفة والإتيان بعمار جديدة وكأنه عالم أحياء متمرس.

بلح لا يقربه أحد سواه.

أما المال.. فمَن حرم منه طوال حياته البائسة.. لن يتورع عن بيع نفسه شخصيًا مقابل المبلغ المناسب.

وهذه كانت العقبة الوحيدة.

عقبة تغلبت عليها ببيعي كل مصوغات عائشة (رحمها الله)..

وحتى ببيع منقولات بيتنا كلها..

لم أترك منها سوى مقعدها المفضل في ركن الصالة..

حتى الفراش.. لم أتركه.

فما حاجتي لمكان للنوم.. وأنا لا أقدر عليه ولا أستطيع إليه
سبيلاً؟!

جمعت المال، ودبرت اللقاء، ودبرت الحجة التي ستجعلني أصل
إلى ذمته، وأبتاعها بسعر مناسب.

والمبرر بالطبع، رغبتني في سرقة شيء هام من خزانة السيد
الكبير، كي أستخدمه ضده في أمور تتعلق بمنافسة الكبار.

ورحت أصب كلماتي في أذنيه، وأقنعه بحجج لا أعرف من أين
أتتني، أنني فقط سأدخل إلى الفيلا لمدة نصف ساعة، وسأخرج بلا
أن يكتشفني أحد، وبأنه إذا اكتشفني أحد، فيمكنه أن يبلغ الشرطة
مباشرة، وأن يحتفظ بالمال بلا أي عواقب.

كنت شيطاناً أكثر من الشيطان نفسه.. شيطان ينتظر الفرصة كي
يحب من التفاصيل.. وينقض على ضحيته حتى يكمل إغواءها.

وعندما اقتنع رضوان، وحمل المال تحت إبطه في حقيبة
بلاستيكية سوداء كأنه حذاء قديم، وعُطل كاميرات المراقبة على
البوابة الخارجية، وترك مكانه أمام الفيلا، واطمأن أن أبيبا في
غرفتها تُحدّث أهلها عبر الفيديو، ترك الفيلا تماماً، وفتح البوابة
الرئيسية، وترك باب الفيلا بلا قفل، وقرر الاختفاء والمبيت عند أحد
أقاربه..

وعندها وجدت الطريق مفتوحًا.

طريق حجري وسط خضرة تنتشر في كل مكان.

رائحة أزهار الحديقة تحيط بي من كل اتجاه، والنخل البارز كشواهد قبور كل ضحايا بسام الأصيل الذين انتهكهم وباع لحمهم في قارعة الطريق.

أمشي بخطى واثقة هادئة، والسكين الطويلة حادة الجانبين تستقر أسفل سترتي السوداء.

رائحة الصندل تهاجم أنفي، تحملها إلي قطرات بخار الماء التي تملأ الهواء الرطب في ليلة صيفية قائظة.

قطرات العرق تسيل من إبطي لتغرق بطني أسفل السترة السميقة، والصداع يهاجم رأسي بلا توقّف.

أقف أمام الباب الخشبي، وأبتسم ابتسامة ساخرة، وبريق عيني ينعكس على الشرائح الذهبية الصغيرة في الباب.

والهمس يخرج من شفتي ساخرًا واثقًا:

- افتح يا سمس.

أدفع الباب بيدي المغطاة بقفاز جلدي مطاطي سميك، وأمشي بخطواتي الواثقة في حذائي الأسود الخفيف الشبيه بجوارب سميقة.

أمشي عبر الردهة الرخامية، وصوت موسيقى هادئة يهاجم أذني من مكان ما.

الصداع.. الصداع.

وعند باب حجرة المكتب كما وصفها لي رضوان، أزحت الباب
الخشبي الحديث بطرف يدي.

ورأيتَه للمرة الأولى.

ضئيلًا قميئًا.. أشبه بسحلية عجوز.

جالسًا يسعل في عنف على مقعده الجلدي.

اقتربت منه، وأنا أسمع صوت سعاله، والدم الذي يتناثر من فمه
على ثيابه الكتانية الفاخرة.

لا.. لن تموت إلا بسكيني عليك اللعنة!

تماسك أيها السيد الكبير.. فلحظتك لن تأتي إلا بيدي.

وانتظرت حتى هدأت نوبة سعاله، وصار يلهث كالكلب العطشان
في صحراء قاحلة.

يحاول أن ينادي بصوته خادمتَه الإثيوبية فلا يخرج صوته.

وعندها.. ناديتَه بصوت خافت حمل كل كراهيتي وغضبي:

- بسام الأصيل..

كأنني أبصق اسمه من قلب حنجرتي.

كأنني أتلو عليه حُكم إعدامه.

- مَنْ أنت عليك اللعنة؟!

- أنا مَن جئت كي أخلصك من آلامك.. وتخلصني من آلامي.
ثم التفت حول المقعد لأواجهه.
والسكين تلمع من بين ثيابي.

(8)

لحظة وقوع الجريمة

رفع يديه أمام وجهي.. وكأنه يتوسل لي كي لا أفعلها.

- أرجوك.. سأمنحك كل ما تريده.. كل شيء.. أموال.. نساء.. كل شيء..

ابتسمت ساخراً وأنا أنظر له وأملي عيني منه.

فأر عجوز أوشكت أيامه أن تنتهي.

- أتعرف يا بسام؟ إذا فكرت أن أسامحك على ما فعلته بالفتيات والسيدات اللاتي وقعن في شباكك اللزجة القذرة.. أو عن الخادמות اللاتي انتهكت عذريتهن وقضيت على مستقبلهن.. فكيف أسامحك على ما فعلته بزوجتي؟!

ولدهشتي، لم يرتعد أو يشعر بالرعب الحيواني الذي غزا فرائص الونش عندما كان في مكانه، بل نظر لي نظرة لم أرها في عيون من على شاكلته من قبل، وهو يغوص أكثر في مقعده الجلدي حتى صار كسلحفاة عجوز تحاول اللجوء إلى صدفتها.

- نعم.. أنا زوج السيدة الشريفة البريئة التي حاولت إغواءها.. وعندما أصرت على فضحك وفضح زيفك.. حاولت أن تفضحها وتشوه سمعتها.. مثلما فعلت بغيرها.

صوت أجش واثق، يتفوه بالكلمات بلهجة مفخمة:

- أنا لم أجبر أحداً على شيء.. كلهن جئن إليّ برغبتهن.. كلهن كن

يسعين وراء المال والحياة الرغدة.. بل إن أغلبهن كن يستمتعن بما
يفعلن.. بل يتقنونه وكأنهن وُلدن عاهرات.. كلهن كن يُردن دخول
جنتي.. لكن جنتي لا تُدخَل بلا ثمن.

نظرة غاضبة تعتلي وجهي المتعب، والصداع يغزو رأسي ويهبط
غمامة رمادية أمام عيني.

أترجع للوراء من أثر الغمامة واهتزاز بصري، وأفتح عيني
وأغلقهما كأن ضوءًا قويًا يغشي عيني، بينما قدماي تغوصان في
السجادة السميقة كأنني أغرق في بحر رمال متحركة.

يا إلهي! ليس الآن.. ليس الآن!

بينما يضحك هو ضحكة تبعثها نوبة سعال جديدة، وينهض والدم
يتناثر من فمه.

- هل جئت لتقتلني إذن؟ جئت لتنتهي حياتي؟ لماذا لا تفعلها إذن
وبسرعة؟ بدلًا من تضييع وقتك في الكلام الذي لا طائل منه..

ثم اقترب مني وهو يسعل بلا توقف، ومن بين سعالته التي راحت
تنثر الدم على السجادة السميقة:

- لكن جيبك وخذلائك اللذين منعاك من أن تحمي زوجتك ممن
على شاكليتي.. هما من سيمنعاك أن تفعلها الآن يا حضرة الضابط..
وسأسقط ميتًا بعد لحظات تحت قدميك.. وأنت تشاهدني كالعاجز.

ثم همس من بين أسنانه الدامية بصوت كأنه من أعماق الجحيم:

- كما كنت عاجزًا معها.. وجعلتها تسقط في شباكي بلا مقاومة..

لكني أنا من ألقيت بها خارج بيتي.. لأنني لست رخيصةً مثلها.
النار تتصاعد إلى رأسي وتنتشر في أطرافي.
اللعنة عليك أيها الشيطان! أتظن أن كلمات وغد قواد مملك سوف
تؤثر في أو تمنيني عن إراقة دمك هنا.
سأفعلها حتى لو كانت آخر شيء أفعله في حياتي.
اقترب مني حتى كاد وجهه يلامس وجهي.. والصداع يدفع
بالغمامة الرمادية إلى مركز إبصاري الآن.
- هيا أيها الجبان.. افعلها.. افعلها وكن رجلًا لمرة في حياتك.
ثم قاطعته نوبة سعال جديدة..
نوبة جعلت جسده ينحني، وكتل من الدماء تخرج من فمه
مختلطة بعصارة معدته.
ثم سقط..
سقط على وجهه فوق البساط السميك.
سقط ميتًا قبل أن تلمسه سكينتي..
سقط وانتصر في معركته الأخيرة.
وعندها لم أعرف ماذا أفعل..
لم يحركني عقلي ولم تحركني إرادتي..
بل بدا وكأن كل جزء مني يتحرك بإرادة منفصلة..

يدي تُخرج السكين من بين طيات ثيابي.. وركبتي تثني ساقي
حتى أركع إلى جواره..

ثم يدي ترفع جسده من الأرض حتى أرى وجهه.

وجهه الغارق في الدماء والقيء الأحمر.. وعيناه الشاخصتان..

ويدي الممسكة بالسكين.. ضعيفة هزيلة.. تولج طرفها في بطنه..

طعنة عاجزة خاملة لا تقتل حتى دجاجة صغيرة.

ثم يدي تُسقط السكين إلى جواره..

وجسدي المنهار يتدحرج بآخر ما أملكه من قوة.. حتى أتوارى
خلف مكتبه الخشبي..

وفي نوبات غفوتي وبكائي المكتوم المكلوم.. والعرق الغزير
المتصبب من جسدي المنهك.. ووجه عائشة القلق الذي يحمني على
النهوض والهرب..

وسط كل هذا.. أسمع الصرخات والجدل والعراك بينهم.. ولا أميز
من أصواتهم إلا همهمة وصياحا..

ثم يأتي الصوت الذي جعلني أفيق من غفوتي..

صوت سارينة سيارة الشرطة.. ومعه صوت صرخات كاترينا
الحادة.. ثم فرارها من الغرفة.

وصوت عائشة الحنون يتردد في أذني قَلْبًا:

- انهض يا كمال.. انهض وتمالك نفسك.. فلن أرضى لك الفضيحة..

ولن أنام في قبري راضية وأنت تتعذب خلف قضبان السجن.

- وكيف أفعّلها يا عائشة؟! أنا هنا في فخ نصبتة لنفسي.. حتى ما جئت لأجله لم أحققه.

- بل حققت ما هو أكثر منه.. لقد شهدت لحظة موت هذا اللعين.. رأيتها بعينك

ثم صوت عائشة الحازم الأمر يقول:

- انهض.. وخذ هذه السكين.. واخرج من الباب الخاص الذي أخبرك عنه رضوان.. اخرج يا كمال.. واحرص على ألا تدخل السجن.. احرص على أن تجعل انتقامك لي كاملاً.

لكني عندما أخذت السكين وأنا أراقب الجسد الغارق في دماؤه.. وعندما نظرت إلى جسده الهزيل الملقى على وجهه غارقاً في دماؤه. شعرت بأنني قد انتهيت..

وأن موت السيد الكبير وإن كان بغير يدي.. فقد حدث.. وانتهى أمره إلى الأبد..

فقط لو يهدأ ذلك الصداع الذي يفتك برأسي..

فسيكون كل شيء بخير..

تمت

شكر خاص وتقدير لكل من كان الفضل
لهم في اكتمال هذه الرواية وخروجها إلى النور:

1. صفاء أمين

2. أحمد عبد المجيد

3. شيرين هنائي

4. ماريا ألفي

5. محمود توفيق

6. خميلة الجندي

7. سارة العناني

8. أحمد السقا

جميع أعضاء فريق اوريجو للدراما الإذاعية

وإليك يا قارئتي العزيزة، ويا قارئتي العزيز..

أرجو أن تجد جنتك التي تُفُش عنها.